

الغرفة 211

كتاب دوري يعنى بالثقافة و الفنون في ليبيا



الإبادة الجماعية ومستقبل تاريخنا

صورة الغلاف خريطة لمعتقل العقيلة رسمها الحاج محمد عصمان الشامي، أحد المعتقلين هناك.
الصورة مأخوذة من كتاب "الإبادة الجماعية في ليبيا: الشر، تاريخ استعماري مخفي"

الغرفة 211

كتاب دوري يعنى بالثقافة والفنون في ليبيا
العدد ب، 2023

يصدر عن مؤسسة أريتي للثقافة والفنون
طرابلس - ليبيا
البريد الإلكتروني : alghurfa211@gmail.com

المحرر المسؤول
خالد المطاوع

مدير التحرير
حسام الشني

تم نشر هذا الكتاب بمنحة من الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)



AFAC ARAB FUND FOR
ARTS AND CULTURE
الصندوق العربي
للثقافة والفنون

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون
الحصول على الموافقة الخطية من الناشر، باستثناء حالة الاقتباسات المختصرة
التي تتجسد في الدراسات النقدية أو المراجعات.

جميع الحقوق محفوظة – مؤسسة أريتي للثقافة والفنون © 2023
ISBN 979-8-9887298-0-8

مؤسسة أريتي للثقافة و الفنون
Arete Foundation for Arts & Culture



الفهرس

مقدمة

- 1 ذاكرة الاستعمار، ومستقبل تاريخنا. (فريق التحرير)

نصوص

- 6 مقتطف من رواية الهروب من جزيرة أوستيكا. (صالح السنوسي)
- 24 مقتطف من رواية صندوق الرمل. (عائشة إبراهيم)
- 38 الرحلة. (مروان جبودة)
- 57 مقتطف من رواية بنغازي. (صلاح المنصف. ترجمة: ميرنا فكري صبحي حنا) عن
- 79 المقرون والبرّاح وشوق سيدي رافع. (حسام الثني).

ملف خاص

- 86 عن كتاب "الإبادة الجماعية في ليبيا"، للدكتور علي عبد اللطيف حميده.
- 90 مقدمة الطبعة العربية لكتاب الإبادة الجماعية في ليبيا.
- (علي عبد اللطيف حميده/ ترجمة: محمد زاهي بشير المغيربي)
- 97 مقتطف من كتاب الإبادة الجماعية في ليبيا (الفصل الثالث).
- (علي عبد اللطيف حميده/ ترجمة: محمد زاهي بشير المغيربي).
- 128 إعادة تشكيل تأريخ الإبادة الجماعية. (فؤاد مغربي/ ترجمة: نافع الطشاني).
- 136 في نقد المعرفة الاستعمارية والنخبوية: عن التاريخ الاستعماري في ليبيا، وما
بعد الاستعمار/ حوار مع الدكتور "علي عبد اللطيف حميده"

توثيق

- 156 أمي حين تسرد التاريخ. (أحمد يوسف عقيلة).
160 ما تيسّر من سِير المقاومة. (فاطمة غندور).
171 مرايف عليهم خاطري ولهان. (حسام الثني).
177 ميثاق الحراي.

قراءات

- 184 العساكر وذاكرتهم، مسارن للحياة بين ليبيا وإيطاليا. (أنطونيو إم مورون/ ترجمة: خالد المطاوع)
221 ليبيا خلال الاستعمار من منظور إثيوبي. (سعد العشة)
234 ما تعلمه لورانس الدنماركي في ليبيا. (فريدريك ويري/ ترجمة: سعد العشة)
250 دلالة غامضة هائلة- عن رواية بنغازي، لصالح المنصف (ستيفين وات/ ترجمة: نافع الطشاني)

إدراكات

- 260 الصعود من الشر: تأملات إشكاليّة في مستقبل تاريخنا. (خالد المطاوع)
314 المساهمات/ون (سِير ذاتية موجزة)

ذاكرة الاستعمار ومستقبل تاريخنا

يعتقد كثير من الناس أن التاريخ هو مُجْمَل أحداث الماضي، وهو اعتقاد، كما يخبرنا عبد الله العروي، واضح البطلان؛ الواقع أن التاريخ (في أحسن الأحوال) "يسرد ما تبقي من الماضي محفوظًا في الذاكرة"¹. على هذا النحو فكتابة التاريخ (أي ما يسمى "التأريخ")، هي استحضار لوقائع الماضي وليست تسجيلًا دقيقًا لها، فنطاق التاريخ، ليس الطبيعة، إذ لا يمكن أن نجده فيها بسهولة، بل نطاقه هو الإنسان وذاكرته. على هذا النحو يغدو التاريخ، الذي هو ماضي (يحدثنا عن وقائع سالفة)؛ حاضرًا في الوقت ذاته، في ذهن من يروي تلك الوقائع أو يتأملها، وهكذا فالماضي (الماضي المطلق) يخرج عن نطاق التاريخ ليدخل حيز الطبيعة، أما التاريخ فيجعل ذلك الماضي (الذي بطبيعته مخفي ولا يمكن الرجوع إليه)؛ متاحًا لنا بطريقة ما، يجول في وعينا ويؤثر في سبل حياتنا.

وبما أن التاريخ شيء نصنعه، فمن العسير أن يكون محايدًا، ولا يمكن له أن يخلو من غرائزنا وآمالنا. وعليه، فعملية استحضار الماضي هي عملية ذاتية مرتبطة بالحاضر، حسب من يقوم بها وكيف يجري ذلك. ولا مناص من القول، إن عملية استحضار الماضي لا بد أن تخضع بطريقة أو بأخرى لاعتبارات معقدة تحكمها دوافع نفسية وأيديولوجية متداخلة، وتحتكم إلى مدى كفاءة الأدوات المعرفية والمنهجية والتقنية المتاحة للمؤرخ. ولأن التأريخ

1 . عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، (الدار البيضاء - بيروت: المركز الثقافي العربي، 1996)، ص13.

لا يحدث في فراغ، فلا بد للمؤرخ أن يتعامل بشكل ما مع الاتجاهات المنهجية السائدة وسطوتها في عصره، ويقرّر إلى أي مدى سيتمسك بها أو يتحدّأها. ما نريد قوله هنا، إننا -إذ نقرأ تاريخنا في كتابات المؤرخين- نحن نستحضر "ما رسب من ماضينا في أذهان المؤرخين" ليس أكثر. وإذا ما أردنا أن نقرأ التاريخ بوعي لا بد أن نعي خيارات المؤرخ من الماضي والأوضاع والسياقات الفكرية التي وجّهت خياراته.

ولا بد أن تقودنا معضلة كتابة التاريخ، التي طرحنا جوانب من تحدياتها هنا، إلى تاريخنا الليبي على وجه التحديد، وتثير لدينا الأسئلة العسيرة حول الإشكالات التي صاحبت عملية التأريخ (المحلي والاستعماري) لتاريخنا الوطني: ما دوافع السلطات السياسية والعلمية التي أنتجت تاريخنا؟ كيف أثّرت سطوة الاتجاهات المنهجية السائدة على المنجز التاريخي؟ كيف وظّفت السلطات الاستعمارية أدوات التأريخ لكتابة تاريخ يتماهى مع همومها؟ وكيف تتابعت السلطات الوطنية لاحقاً على كتابة تاريخ يشبه في كثير من ملامحه "الأساطير التربوية"؟ وماذا عن المعتقلات الجماعية والإبادة؟ كيف يمكن أن يختلف حاضرنّا، ومن ثم مستقبلنا باختلاف طرائق التأريخ للإبادة؟ بل يمكن المضي قدماً إلى أسئلة المشترك الهُووي: كيف يمكن أن نوّسس سرديّة تكون رافداً لهوية المستقبل بإعادة النظر في الماضي الاستعماري؟ ما مستقبل الماضي إذن؟ كيف يمكن لنا المضي قدماً انطلاقاً من مراجعة التاريخ وأدوات التأريخ؟ هذه الأسئلة، إذن، دعوة تسير جنباً إلى جنب مع مطالبات السير في مسار ثالث، مسار مخالف من جهة لمسار (التأريخ التقليدي) المعتمد على المفاهيم الثلاثة: الحقبة، الحدث، الوثيقة. حيث يتم التعامل مع الواقعة عبر اللجوء

إلى شهادة مكتوبة أو شفاهية، وب عقلية محدودة الحس الناقد، لا تتجاوز إنتاج الدرس التربوي، وهو مخالف في الوقت ذاته لمسار (التأريخ الاستعماري)، حيث إن المنهج لا يبدو أنه يعيد النظر في أدوات التأريخ، ولا يتجاوز كونه توسيعاً للمفاهيم الثلاثة للتأريخ التقليدي، عبر سرد تقلبات مؤسسات الدولة وتحولات بنى الإنتاج وغيرها من الاتجاهات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، بطريقة كثيراً ما تتضح فيها الأحكام السابقة المستعارة من التاريخ الأوروبي وسرديات الأمم الأخرى².

المسار الثالث، بخلاف المسارين (التقليدي، والاستعماري)، يدعو إلى نبذ الامتثال الكسول إلى السرديات البطولية القائمة، وتجاهل جرعة التعويض التي تمنحها ملاحم الأبطال، جنباً إلى جنب مع نبذ سوء تقدير الذات، والارتكان الهامشي إلى متن المركزية الأوروبية، كما يدعو إلى إخراج التاريخ الليبي من العزلة المحلية، ووضعه ضمن إطار عام للتاريخ الإنساني للشعوب. ولا يخفى علينا أن التاريخ الغربي للعالم شابهته أيديولوجيات الاستعمار والاستشراق والتفوق العنصري التي وجّهت كتابته إلى تاريخ الآخر، وأسهمت في تبرير هيمنته الدموية على العالم، وحيث ما زلنا نجد تلك التأثيرات حتى عندما يحاول الآخر (الأفريقي والآسيوي والهندي الأحمر) كتابة تاريخه.

تحديداً، ومن هذا المنطلق، يبدأ العدد (ب) من مجلة الغرفة (211) بالدعوة إلى إعادة النظر إلى التاريخ الليبي، الاستعماري الإيطالي على وجه الخصوص،

2 . على سبيل المثال: في التأريخ لشمال إفريقيا، كثيراً ما يُقجم المؤرّخ الاستعماري ما يعرف بـ "التحقيب الثلاثي"، ليحوله مرجعاً أساسياً لتحقيب تاريخ المنطقة، حيث يقسم المراحل التاريخية لشمال إفريقيا إلى ثلاث حقبة تمثل (الازدهار - الانحطاط - الازدهار)، (حقبة قديمة = رومانية)، (حقبة وسيطة = إسلامية)، (حقبة حديثة = استعمارية).

ليس على أنه مُعطى مأخوذ من الرواة، بل بوصفه حدثاً مركّباً داخلياً في أبستمولوجيا عامة تؤسّس إلى نقد مزدوج، كالذي نادى به عبد الكبير الخطيبي. نقد لا يكتفي بتوظيف الأدوات الناقدة في عملية مراجعة الذات والتراث؛ بل إضافةً إلى ذلك، وفي الوقت ذاته نقد يضع أدواته الناقدة موضع مساءلة دائمة، ويعيد البحث في الإشكالية عوضاً عن الاكتفاء بالتحقيق في الوثيقة التاريخية، وهو مسلك الدكتور علي عبد اللطيف حميده، الذي نخّص له في هذا العدد، من الغرفة (211)، ملفاً عن كتابه "الإبادة الجماعية في ليبيا: الشر، تاريخ استعماري مخفي". الذي يسعدنا أن نقدم جزءاً منه للقارئ.

ولقد سعينا، في هذا العدد، إلى فتح المجال للنقد المزدوج ولإعادة القراءة وتوظيف أدوات ناقدة جديدة، عبر المواد المتضمنة في جزأي التوثيق والقراءات، حيث يسلّط الكتابُ الأضواء على جوانب منسية أو مخفية من حقبة الاستعمار الإيطالي لليبيا. ولعلّ أكثر المواد إثارة في هذا العدد هي الأعمال الإبداعية السردية التي نرى فيها المبدع الليبي يعيد بشكل مؤثر ودؤوب قراءة الماضي بجعله حاضراً معنا، وبعمرق يوازي مأساة الحاضر الذي تعيشه ليبيا الآن.

وختاماً، نأمل أن يرى القارئ المواد التي نقدمها هنا دعوة إلى إعادة النظر في تاريخنا، وإعادة رتقه عبر إنتاج سردية موثقة ومنصفة. وإن كان هذا مشروعاً طموحاً يتجاوز دافع الفضول المعرفي، ويمتد ليستجيب إلى حاجة وطنية وإنسانية تقتضيها ظروف انحلال الشعور بالانتماء، وسوء تقدير الذات، وتفكك الهوية الوطنية.

فريق التحرير

نصوص



الهروب من جزيرة أوستيكا (مقتطف من رواية)

صالح السنوسي

كانت بداية التحوّل في حياة سالم البراني هي تلك الفرصة التي أتاحتها إدارة السجن لمن تبقى من السجناء على قيد الحياة، فقد عرضت إدارة السجن على هؤلاء فرصة العمل في المزارع القريبة، وفي مصانع السردين من السابعة صباحًا حتى الخامسة مساءً في مقابل وجبة الغداء وفرنك واحد يوميًا.

لقد جاءت هذه الفرصة بعد مضي ست سنوات من السجن في الأقبية والكهوف المظلمة.

كان رأي معظمهم هو رفض هذا العرض لأنه نوع من أعمال السخرة تحت سياط الجلادين.

قال الشاعر حسين الفضيل إنه يفضّل أن يجلدوه في السجن من أن يجلدوه بالسوط على مرأى من الإيطاليين والإيطاليات في المزارع والمصانع.

لم يكن خالد الكيلاني متحمسًا لهذا العرض، ولكنه فضّل الصمت لكيلا يؤثّر في خيارات رفاقه، بينما أبدى سالم البراني حمسه قائلاً: نحن مستعدون في بلادنا وليس في هذه الجزيرة فقط، ولهذا فقد رأيت الخروج والعمل في المزارع بين الهواء والشمس مهما كانت طبيعة هذا العمل، فذلك أفضل من البقاء كثيرًا داخل هذه الكهوف المظلمة الرطبة.

كان سالم البراني أصغر السجناء في الخامسة والعشرين من عمره حسب المعلومات الواردة في ملفه الشخصي بالسجن، فهو يبدو شاباً فارح القامة قوي البنية مليح التقاطيع، ضاحكاً مقبلاً على الحياة رغم قسوتها.

لم يتحمّس لهذا العرض إلا اثنان آخران، أحدهما إدريس التايب، الذي أتت به المقادير من منطقة مرتفعات الرحمة إلى جزيرة "أوستيكا"، كان من الأغنياء المعروفين في منطقته، له زوجتان ولم يبلغ الأربعين بعد، محكوم عليه بخمس عشرة سنة بتهمة تقديم الأموال إلى العصاة المتمردين على الدولة الإيطالية.

أما الثاني فهو رمضان الجالي الذي جاءت به من منطقة أجدابيا تهمة أنه كان يقوم بشراء البضائع والسلع وتهريبها إلى من تعتبرهم الحكومة الإيطالية عصاة متمردين، فنال عقوبة مماثلة لعقوبة إدريس التايب بعد أن تَمَّت مصادرة حيواناته وما يمتلكه من أراضٍ.

قال رمضان الجالي معلقاً على العمل في مزارع جزيرة "أوستيكا": لقد تعودنا على حصاد القمح والشعير تحت حرارة شمس الصيف الحارقة، فما بالك بالعمل في مزارع الطليان تحت سماء باردة!

أخذ هؤلاء الثلاثة يروون بعد عودتهم من العمل تفاصيل حياتهم اليومية في مزارع البطاطس والخضراوات والمعاملة التي يلاقونها تحت رقابة الحراس.

ولكن بعد بضعة أشهر أصبح أكثر الموضوعات إثارة في هذه التقارير اليومية هو ما يرويهِ سالم البراني لصديقيه خالد الكيلاني والشاعر حسين

الفضيل، عن تطوُّرات العلاقة بينه وبين هذه الفتاة التي التقاها بعد أن انتقل هو ورفاقه الثلاثة من مزارع الخضراوات إلى مزارع البطاطس.

كان سالم البراني بحكم صغر سنه وقوة بنيته هو أحد المكلفين بحمل جوانات أو أكياس البطاطس من الحقل إلى مكان التجميع، وكانت الفتاة تقوم باستقبال هؤلاء الحمالين والإشراف على تسليم حملاتهم وتسجيلها تمهيداً لنقلها إلى المخزن الرئيسي بالقرب من الميناء.

تتكرَّر رحلاته عدة مرات في اليوم بين الحقل ومكان التجميع محاولاً لفت نظرها إليه، بل أخذ يقوم بنقل حمولات رفاقه بدلاً عنهم لكي يزيد من عدد مرات اللقاء بها، فكان رفيقه إدريس التايب يتندَّر بهذا الجميل الذي يسدونه له قائلاً: نحن نضحِّي بهذه الأحمال فنحرم منها ظهورنا لكي نتبرَّع بها لظهرِك!

كان سالم يعود كل مساء ليعرب لخالد الكيلاني عما يساوره من إحباط بسبب عدم اهتمام شقراء حقول جزيرة أوستيكا به بينما يحاول البِّي خالد أن يشجعه على الاستمرار في محاولاته ولا يدع اليأس يتسرَّب إلى نفسه، لأنه يرى في ظهور هذه الفتاة في حياة سالم بارقة أمل يجب أن يتشبَّث بها في مواجهة القنوط والقهر والإذلال والأفق المسدود في جزيرة معزولة، وفي أقبية مظلمة باردة رطبة تحوم فوقها غربان الموت كل يوم.

يحاول خالد الكيلاني دائماً ألا يجعله يفقد الأمل فيقول له: الأمل في النصر هو الذي يجعل المجاهدين رغم قلة عددهم وضعف سلاحهم يتحدُّون الجيش الإيطالي الكثير العدد والقوي التسليح.

ذات مساء يدخل سالم صائحًا: لقد ابتسمت لي عصر هذا اليوم، نعم لقد ابتسمت لي.

يرد خالد: ألم أقل لك، لا تيأس.

كانت ابتسامتها خجولة ولكنها صافية تألّقت معها عيناها الخضراوان وازداد وجهها الطفولي براءة.

قال خالد معلقًا على الأوصاف التي أوردها سالم: لا بد أنها تستحق هذه الأوصاف، ولكنها محظوظة أيضًا، لأن الذي عشقها أستاذ موهوب في اللغة العربية وشاعر.

يعود سالم إلى وصف تفاصيل ما حدث عصر ذلك اليوم، فعندما وصل إلى مكان التجميع وجد اثنين يحاولان رفع جوال ثقيل فلم يتمكّنا من ذلك، وكان ذلك المشهد يجري أمام الفتاة، فقام سالم برفع الجوال وحمله إلى أن وضعه فوق آلة الميزان العالية، ثم صاح تشجيعًا لنفسه باللغة الإيطالية: برافو.

والتفت فجأة فالتقت عيناه البارقتان ذات الحاجبين الكثيفين عينيها الخضراوين فعلت محياها ابتسامة خجولة استدارت بعدها إلى الناحية الثانية بينما غادر هو المكان مردّدًا بصوت مسموع وبلغة إيطالية: خلقنا الله لنساعد بعضنا البعض ولنحب بعضنا البعض.

لكنه عندما عاد في المرة الثانية لم يجدها فقد انتهت دوريتها بالنسبة لذلك اليوم.

يقول له خالد: ستجدها في انتظارك غدًا، ولكن كن حذرًا من الحراس.

وتتوالى لقاءات سالم مع الفتاة وتتواصل تقاريره المسائية، فقد ظلت تبتسم له من بعيد عدة أيام إلى أن انتهز الفرصة ذات ضحى كان فيها الحراس يتناولون إفطارهم، فتحدّث معها وعرف أن اسمها "لورينزا"، وسألته عن اسمه وعن وطنه ولم يبدُ عليها أنها عرفت المكان الذي ذكره لها ولكنها فهمت أنه مسلم وعربي.

قال سالم في إحدى رواياته المسائية لخالد الكيلاني: في البداية وجدنا صعوبة في التفاهم لأنها تتحدث بلهجة أهل الجزيرة المختلفة عن اللغة الإيطالية التي تعلّمناها، ولكننا تغلّبنا على ذلك بالإصرار والتعود، ولأن ما بيننا أقوى من لغة الكلام.

أراها أحياناً تتحدث مع بعض النساء العاملات وهي تشير نحوي، فلما سألتها عن ذلك قالت إن النساء يعتقدن أنكم من المجرمين العتاة الذين يأتون بهم إلى سجن الجزيرة، ولكنني أوضحت لهن إنكم أسرى من المسلمين الذين بينهم وبين الحكومة الإيطالية حرب في أرض المسلمين. يعلّق خالد:

لقد اكتشفت "لورينزا" عالمًا آخر خارج جزيرتها، ومع مرور الوقت سيصبح لها رأي وموقف حول ما يجري فيه من أحداث.

مع مرور الأيام بدأت علاقات سالم البراني تتشعّب مع العاملين في هذه المزارع، وأصبح شخصية تحوز على استلطاف الكثيرين ولا سيما في وسط النساء اللائي يساعدهن في رفع ما يحملن من جوانات فينال نظرات الإعجاب منهن ويمارحنه بعبارات لا يفهم بعضها لأنها بلهجتهم الريفية،



المصدر: أرشيف مركز الدراسات والتوثيق بجزيرة أوستيكا.

ولكنه يحس بفحواها، غير أنه لا يطيل الوقوف معهن خوفاً من الحراس، ومراعاة لمشاعر "لورينزا" التي لم تعد تخفي غيرتها عليه.

اقترحت عليه "لورينزا" أن ينتقل مع ثلاثة من رفاقه الأصحاء إلى المخزن للعمل في ترتيب وتحميل العربات بجوالات البطاطس والخضراوات، وأنها ستكون معهم لأنها مكلفة بالإشراف على عملية النقل وتسجيل كل ما يخرج من المخزن، وهناك ستكون الفرصة أمامهما أكبر ليكونا معاً أطول وقت ممكن بعيداً عن رقابة الحراس، فأجابها مماًزحاً بأنه عندما يكونان معاً بعيداً عن الحراس لا يهتم المكان حتى ولو كان جهنم.

تضحك "لورينزا" على سجيته ثم تقول: أليست لديكم جنة مثلنا نحن المسيحيين؟

يرد عليها سالم: جنتنا واحدة، ولكن للأسف الحروب هي التي تقودنا جميعاً إلى جهنم.

نظرت إليه بنهم قائلة: أنت تقول أشياء تعجبني ولكنها تخيفني.

ينسحب سالم دون أن يرد عليها لأن الحراس الذين كانوا منشغلين بالإفطار عادوا إلى أماكنهم.

كان انتقال سالم مع رفاقه الثلاثة إلى المخزن مرحلة أخرى في تطوُّر العلاقة بينه وبين "لورينزا"، فقد أتاح لهما ذلك قضاء وقت طويل معاً، فيختلجان ببعضهما في ملحقات المخزن بينما يقوم رفاقه نيابة عنه بتحميل نصيبه من الجولات ويقومون بتحذيره إذا ما حضر أحد الحراس ليقوم بجولة داخل المخزن.

كان أحد رفاقه إدريس التايب يصيح مشجّعًا سالم البراني: "يا بو البراني، قرعتك شوري، غير استرنا مع الطليانيات" أنا أتكفل بنصيبك من الأحمال، ولكن عليك أن ترفع رؤوسنا لدى الإيطاليات.

إدريس التايب في الأربعينيات من عمره كان متزوجًا من امرأتين، غنيًا، ضخم الجثة، اتهمه الطليان بتقديم الأموال إلى المجاهدين وإيوائهم لينصبوا كمائن للدوريات الإيطالية في مرتفعات الرحمة، ولكنهم لم يقبضوا عليه متلبسًا فاكتفوا بمصادرة حيواناته وأملاكه والحكم عليه بالمؤبد وبالنفى في جزيرة "أوستيكا". فتاة جميلة تعيش في قريتها الصغيرة المعزولة في جزيرة بركانية تائهة خلف أمواج وعواصف البحر، وشاب لا يشبه سكان القرية في شيء، غريب قادم من المجهول.

تشاء سخرية الأقدار أن تجعل من الغزو والاستعمار والجهاد والنفى ظروفًا موضوعية تصنع لقاء بين شاب وفتاة، ما كان لهما أن يلتقيا لولا حماقات البشر وجنونهم، فمن رحم الوحشية والمآسي، ولدت ظاهرة نبيلة تتحدى العبث والعدمية مثل الزهرة اليانعة العطرة التي تتحدى الصخور الصماء السوداء وأملاح السبخ، ورمال الصحراء القاسية.

حينما تلتقي مشاعر الظلم والاضطهاد والظمأ مع الحنان والبراءة والاشتهاء، يتحرّر الحب من كل القيود والحدود.

احتسى سالم البراني و"لورينزا" كأسيهما حتى الثمالة وأصبحت إحدى الحجرات الملحقة بالمخزن هي ملجأهما معظم الفترة الصباحية، بينما تقوم السنيورة "كارلا" بمهمة "لورينزا".

”كارلا“ تجاوزت الخمسين من عمرها، وتقول عنها ”لورينزا“ إنها بمثابة أمها، وأنها خرجت من الجزيرة وهي فتاة صغيرة وطافت جميع إيطاليا وعاشت في عدة مدن من بينها روما وتزوجت عدة زيجات ولم تنجب ثم عادت إلى القرية وأحضرت معها كتبًا كثيرة وزارها راعي الكنيسة فلم يجد في خزانة كتبها نسخة واحدة من الإنجيل، فحذر الناس منها، فأصبحت لعدة سنوات شبه منبوذة رغم ما تقوم به من أعمال خيرية في القرية.

يقول لها سالم: لو كنت مكانك لقرأت كل ما في خزانة ”كارلا“ من كتب.

تجيبه ”لورينزا“: أخذت في قراءة هذه الكتب بتشجيع من ”كارلا“ فعندما علمت أنني تعرفت على بعض الغرباء في العمل، أخذت تزودني ببعض الكتب وتطلب مني قراءتها لكي أرى العالم بعيون أخرى غير عيون القرية.

يقبلها سالم في عينيها وهو يسألها ما إذا كانت قد بدأت ترى أشياء جديدة؟

تخبره بأنها توقفت في دراستها عند الصف الثامن، وهذا مستوى لم تصل إليه أي من بنات القرية، ولكن الآن أخذت تقرأ كتبًا من خزانة ”كارلا“ عن تاريخ الأمم الأخرى وعن الديانات والأفكار والطبقات الاجتماعية وبعض الصحف والمجلات التي لدى ”كارلا“.

يقول لها سالم وهو يرفعها بين يديه: لقد بدأت أنا أيضًا أتعلّم منك.

تشبك ”لورينزا“ يديها خلف رقبته وقدميها خلف ظهره تاركة كفلها يتدلّى في حضنه وهو واقف فيحيطه بذراعيه ويضمه حتى يستقر داخل حضنه ثم يدور بها دورة تامة داخل الحجرة قبل أن يسقطا فوق فراش القش الذي ينتظرهما دائمًا.



سجناء مدنيون ليبياون تحت الحراسة الإيطالية في جزيرة أوستيكا.

يقفزان إلى الخارج عندما يسمعان طرقات السنيورة "كارلا" على باب الحجرة حين تسمع هذه بدورها إدريس التايب رفيق سالم البراني يصيح في الخارج: "جاك السيل يا بو البراني" خذ حذرك، هناك شخص قادم.

ورغم أن السنيورة "كارلا" لا تفهم ما يقوله إدريس التايب، إلا إن "لورينزا" أفهمتها بأن صياحه يعني تحذيرًا من خطر قادم.

ولكن هذه المرة بعد أن سقطا فوق السرير أخذتهما النشوة وقوة الاشتها فلم يسمعا طرقات "كارلا" رغم شدة صياح إدريس التايب الذي كان يرى حارسين يقتربان من المخزن في جولة روتينية ولم يرَ سالم البراني يخرج إلى ساحة المخزن بينما رأى "كارلا" ما تزال تطرق على باب الحجرة وتنادي، وأمام خطر اكتشاف الحارسين لما كان يجري داخل المخزن الذي لم يعد يفصلهما عن الدخول إليه سوى بضع خطوات، أطلق إدريس التايب صرخة قوية وهجم على رفيقه رمضان الجالي مفتعلًا شجاءًا معه أخذًا بتلابيبه مرددًا: "الراجل ما زال في المخزن جوة" الرجل ما يزال داخل الحجرة (يقصد سالم البراني). فهم رمضان الجالي الحيلة على الفور فأخذ يصرخ في وجه إدريس التايب ويصارعه.

فغير الحارسان خط سيرهما وهاجما المتشاجرين وأخذوا يضربانهما بالعصي ليخلي كلُّ منهما سبيل الآخر، ولكنهما ظلّا متشابكين ويتصايحان، رغم المطارق التي تنهال على ظهريهما إلى أن رأيا سالم البراني يخرج مهرولًا نحوهما فتوقفًا وأخذ سالم يترجم بينهما وبين الحارسين فاختلق سببًا لشجارهما وهو اختلافهما حول فتاة كان كلُّ منهما يحبها عندما كانا في بلادهما.

فأخذ الحارسان يقهقهان بينما قام إدريس التايب بتقبيل رأس رمضان الجالي الذي قام بدوره بتقبيل رأس رفيقه تاركين لسالم مهمة توضيح هذا التصرف على أنه يعني التسامح والمصالحة حسب تقاليد بلادهما.

أصاب أحد الحراس بمطرقته رمضان الجالي بجرح في فكه الأسفل، فأخذ سالم البراني يمسح بقايا الدم المتجلط حول فوهة الجرح الصغيرة، وهو يعتذر لرفيقه عما أصابه بسببه، بينما انصرف الحراس دون أن يولوا اهتمامًا بالأمر، فقد اعتادوا عدم الاكتراث بما تتركه قسوتهم واعتداءاتهم من آثار على أجساد السجناء.

عندما ابتعد الحراس غمست "كارلا" قطعة من القطن في زجاجة عطر معها وناولتها لسالم ليقوم بتنظيف الجرح وتعقيمه في حين أخذ رمضان الجالي يضحك ساخراً وغير مبالي وهو يقول: كنت أتمنى أن تقوم هي وليس أنت بوضع البلسم على الجرح.

عندما يترجم سالم البراني ما قاله رمضان الجالي، تبسم "كارلا" قائلة: أنت ما تزال في عز شبابك وأنا امرأة تجاوزت خريف العمر.

يطلب رمضان من سالم أن يقول لها: "ما زلتي درس أجواد" رغم خريف العمر فما تزالين امرأة جميلة.

تضحك "كارلا" وهي تهز سبابتها في مواجهته وكأنها تتوعد: يا لك من ثعلب ماكرا! ولكنني لست الدجاجة التي تبحث عنها.

ينفجر سالم ضاحكاً وهو يترجم فحوى ما قالته لرمضان الذي لم يتمالك نفسه هو أيضاً من الضحك ثم قال لها: أنا لست ثعلباً وقد أكون رجلاً غير

جذاب، أما أنت فقطعًا امرأة رائعة ولست دجاجة.

ترد "كارلا" وهي تخطو عائدة إلى المخزن:

"لو التقيتك في زمن شبابي لتزوجتك أيها الرجل الشجاع، ولكن أتمنى أن تنتصروا قريبًا على الاستعمار فتعود إلى حضن من تحبك وتنتظرك؟

تعود "كارلا" دون أن تنتظر ردًا من رمضان، الذي رأت فيه إنسانًا مقهورًا يحلم بما لا تستطيع أن تشاركه فيه.

يعلق إدريس التايب ساخرًا بعد أن ظل صامئًا طوال الوقت: "هذي عجوز أميرة ما شافت غير أنت" هذه عجوز عركتها الحياة، فلا يستطيع أمثالك أن ينال إعجابها.

يرد عليه رمضان الجالي بسخرية مماثلة:

أن تعجب بي أفضل لها من أن تعجب بمن يريد أن يجعل منها زوجه ثالثة. كان إدريس التايب قد ترك خلفه زوجتين وعددًا من الأطفال وكثيرًا ما كان رفيقه رمضان يناكفه من هذا الجانب.

كانت مثل هذه الأحاديث والمناكفات غذاءهم اليومي للتغلب على شقاء العمل البدني، لكن هذا اليوم انتهى في المساء بمفاجأة محزنة، فقد كانوا يحصلون في بعض الأيام على قليل من البطاطس المشوية ضمن وجبة الغداء، فيحتفظون بها ليعودوا بها إلى رفاقهم في السجن، ولكن نظرًا إلى تفتيشهم عند عودتهم في المساء وعند خروجهم في الصباح لمنع إدخال أو إخراج أي شيء معهم، فقد اتفق سالم البراني مع "ماتيوتي" أحد الحراس بأنه في اليوم الذي يحصلون فيه على نصيبهم من البطاطس

يدفع له ثلاثة فرنكات وهو أجرهم اليومي- في مقابل أن يقوم "ماتيوتي" بإدخال البطاطس إلى السجن.

بعد أن جمع سالم نصيبهم هذا اليوم من البطاطس وحضر الحراس ليعودوا بهم إلى السجن اكتشف أن "ماتيوتي" قد غادر مبكرًا قبل نهاية الدوام دون أن يخبره بذلك، فنصحه رفيقاه أن يتخلّص من كيس البطاطس فيلقي به على قارعة الطريق ولا يحاول الدخول به إلى السجن، غير أن سالم البراني أصر على المحاولة، لأن في بعض الأيام يتركونهم يدخلون دون تفتيش، ولأن رفاقهم في السجن أصبحوا ينتظرون هذه الوجبة مرة في الأسبوع ولا يريد أن يخيب انتظارهم هذا المساء.

وقعت الواقعة في بوابة التفتيش وقبضوا على سالم البراني متلبسًا بإدخال كيس صغير من البطاطس المشوية إلى داخل السجن.

نجح سالم البراني، في إقناع إدارة السجن بأن رفيقيه لم يكونا على علم بما كان يخبئه من البطاطس، فتركوهما يعودان إلى عنبر السجن، ولكن رغم دفاعه عن نفسه بأن ما يحمله من البطاطس هو نصيبه من وجبة الغداء، فأراد أن يدخرها للعشاء، إلا إن إدارة السجن اعتبرته مذنبًا وقرّرت معاقبته بإحدى عقوبتين، يختار أحدهما.

كانت العقوبة الأولى هي الحبس في زنزانة انفرادية لمدة ثلاثة أيام، أما العقوبة البديلة فهي الحبس لمدة يومين مع حلق شعر رأسه.

اختار سالم البراني العقوبة الأولى لكي لا يفقد خصلات شعره التي تحبها "لورينزا" فأثار ذلك الخيار قريحة الشاعر حسين الفضيل، فنظم ليلتها

عدة أبيات من الشعر يشيد فيها بوفاء سالم البراني لحبيبته، وقبوله بأن يقبع لمدة ثلاثة أيام في زنزانة مقفلة في الليل والنهار ولا يزيد عرضها عن متر وطولها عن مترين، وذلك من أجل أن يحتفظ بما تحبه وتعشقه "لورينزا".

عندما وصل إدريس التايب ورمضان الجالي إلى عملهما في صبيحة اليوم التالي ولم يكن برفقتهما سالم البراني، أصاب "لورينزا" الهلع وأخذت تسألها محاولة فهم ما حدث، وكان الاثنان قد تعلّما الكثير من الجمل والعبارات بفضل تبادل تعليم اللغة الإيطالية والعربية بين السجناء الإيطاليين والمنفيين العرب.

فهمت "لورينزا" من إدريس التايب أن سالم يوجد في زنزانة بينما استطاعت أن تفهم من رمضان الجالي أن البطاطس لها علاقة بموضوع الزنزانة. سقطت دموع "لورينزا" من مقلتيها الخضراوين وهي تجهد نفسها من أجل الربط بين هذه الجمل التي تفوّه بها محدثاها، بينما أخذ إدريس التايب يحاول طمأننتها مردّدًا جملة يحفظها على ظهر قلب: ليس ميتًا، ليس ميتًا.

فهمت "لورينزا" أن سالم علي قيد الحياة وذلك كان مطمئنًا لها، ولكنها لم تستطع أن تفهم علاقة الزنزانة بالبطاطس، وخشيت أن تكون هي السبب بعد اكتشاف ما حصل بينها وبين سالم في اليوم السابق، فأخذت تستفسر من إدريس التايب مستعينة بلغة الإشارة إلى جانب الكلام مشيرة بسبابتها نحو نفسها وهي تقول: هل أنا سبب ذلك؟

فهم إدريس سؤالها فاخذ يردّد كلمة، السبب التي يفهمها ويشير نحوها

بسبابته راسمًا علامة النفي.

حسّمت "كارلا" هذا اللبس فأبلغت رئيس الحرس بأن أحد السجناء غائب عن العمل وما إذا كان هو على علم بذلك فأجابها بأن هذا السجين يقضي عقوبة مدتها ثلاثة أيام في الحبس الانفرادي لأنه حاول إدخال كيس من البطاطس إلى السجن.

لم تتمالك "لورينزا" نفسها فانخرطت في البكاء عندما نقلت إليها "كارلا" الخبر، فأخذت هذه الأخيرة تواسيها وتخفف عنها قائلة: عليك أن تعودتي نفسك على هذا الوضع، فقد أحببت سجينًا أتى به أعداؤه من وراء البحر ليمارسوا عليه كل ما يخطر لهم من أشكال القهر والإذلال.

فتساءلت "لورينزا" بمرارة وعبراتها ما تزال تطغى على صوتها: لم أكن أنصوّر أن الاحتفاظ ببضع حبات بطاطس من وجبة الغداء لأكلها في وجبة العشاء يمكن أن تكون جريمة تستحق العقاب.

تحمل ابتسامة "كارلا" خليطًا من الأسى والشفقة وهي تربت على كتف "لورينزا" قائلة: سأعطيك الليلة كتابًا وستتعلمين منه أن الرأسمالية الاستعمارية لكي تطوّع من تستعمرهم، لا بد أن تجرّم كل أفعالهم التي لها علاقة بالدفاع عن أنفسهم.

ظل سالم البراني أيامًا ثلاثة لا يرى النور إلا لحظة انفتاح نافذة صغيرة في أعلى الباب الحديدي، ليتسلم منها وجبته اليومية المكونة من قطعة من الخبز الأسود وحساء الحمص، وظل كل من إدريس التايب، ورمضان الجالي يذهبان كل صباح ليوажها سؤال "لورينزا" اليومي عن سالم فيجيبها

رمضان الجالي إجابة مركبة من اللغة والإشارات تفيد بأن سالم ما يزال في الزنزانة، ثم يشير بسبائتيه الاثنتين نحو عينيه ويرسم إشارة النفي، فتفهم "لورينزا" بأن لا أحد يراه، فتعود أدراجها منكسة الرأس وعيناها مبتلّتان، بينما تقف "كارلا" عند باب المخزن تحتضنها عن بعد بنظرات ملؤها الشفقة والحنان.

تضع "كارلا" يدها على كتف "لورينزا" لتقودها إلى الغرفة الملحقة بالمخزن حتى لا يسمعها أحد ثم تجلس في قبالتها وهي تقول لها: لقد قاسيت مثل هذا الوجد في أول تجربة حب، ولهذا أستطيع أن أستشعر الحالة التي تمرين بها، ولكن يجب أن تستفيدي من تجربتي، فأنت أحببت رجلاً سجيناً لا يملك من أمره شيئاً، فإن لم تكوني قوية في مواجهة المفاجآت، فستنهارين من أول صدمة كهذه.

ترد عليها "لورينزا" لأول مرة منذ أن عرفتها بلهجة استنكار: وهل تريدين مني أن أتخلى عنه؟

تجيبها "كارلا" بصوت حانٍ: لا يا بنيتي، لا أطلب منك ذلك، فالحب الذي بينكما يعد حالة تحدّ فريدة جديرة بالدفاع عنها والحرص على استمراريتها، ولكن عليك أن تكوني متماسكة في حالة حدوث الأسوأ.

كانت "لورينزا" تحاول طوال الأيام الثلاثة التماسك أمام أول تجربة فراق بينها وبين سالم الذي عاد في اليوم الرابع ليروي لها تفاصيل الأيام التي قضاها في الزنزانة دون أن يشعر بالقسوة نفسها التي عاناها في تجارب الحبس الانفرادي السابقة.

تنتفض "لورينزا": كيف لا تحس بقسوتها، بينما كنت أنا أتعذب طوال هذه الأيام؟

يجيبها سالم: لقد خفف عني قسوتها حضور طيفك معي ليلاً ونهاراً، وكانت بداية كل يوم تقرب من موعد لقائنا هنا.

تتعلق "لورينزا" برقبة سالم فيرفعها ويضمها إليه ليعيشا لحظة لا تحفل بالزمن، في حب يولد كل يوم وغده مجهول على الدوام¹.

1 للمؤلف عدة روايات، منها رواية ثانية تدور أحداثها فترة الحقبة الاستعمارية، وتحديدًا 1920 إلى 1930. بعنوان "أزهار بيضاء على تخوم المقبرة"، صدرت عام 2022، عن منشورات إبيدي، مصر.

صندوق الرمل (مقتطف من رواية)

عائشة إبراهيم

كان الصباح بهيجًا والهواء خفيفًا برائحة النعناع وحلقت حمام قمرية فوق أشجار النخيل، ومن بعيد ارتفع ضجيج السقائين وهم يحملون الماء على الحمير من سبالة بومليانة إلى البيوت، شاهد ساندرو الحمير تسير بانسجام في المقدمة، ومن خلفها تتضحك فتيات بملابس رثة وجدائل طويلة، سرعان ما تفرّقن واختفين واحدة تلو الأخرى في الأزقة الضيقة وبين طوابي الصبار، لم يبقَ إلا حمار وحيد تتعقبه الفتاة بائعة الحليب برفقة شقيقها، ما إن رآته حتى أشاحت بوجهها وزمّت شفيتها بعبوس مثير، كانت تقترب منه بخطوات ثابتة، وهو يقف على ناصية الطريق مرتجفًا مثل طائر بلّله المطر، فكر أن يلقي عليها تحية الصباح، (بونجورنو سنيورينا) همس في سره فتسارعت دقات قلبه كأنه مقبل على عملية انتحارية.. اقتربت.. اقتربت أكثر حتى لم يعد يفصلها عنه إلا خطوات.. تأملها باندھاش وهي تسير برصانة ملكة: جديلتاها الراقصتان، شفتاها الشقيتان المزمومتان، نظراتها المثبتة باتجاه الحمار أمامها، كانت المرة الأولى التي يحسد فيها حمارًا، وتمنى لو تحدث معجزة من نوع ما، أن يسقط الحمار في الخندق.. أن يهطل المطر.. أن يفيض الخندق بالماء فتصرخ به مستنجدة.. أن يقفز إلى القاع الموحد ويحمل الحمار فوق كتفيه.. وكانت المرة الأولى أيضًا التي يتبادل فيها الدور مع حمار، لكنها مضت.. دون أن تشكره.. دون أن تحفل

بأمنياته.. دون أن تكثرث بالوحل أو بثقل الحمار على كتفيه.. فكّر بكل أمنياته السابقة.. حبيباته اللاتي يفاضل بينهن فيتوارى خجلًا من أوهامه، لكن هذه الفتاة الصغيرة عاقدة الحاجبين المتمالكة نفسها باقتدار جعلت قلبه يرتجف رعبًا وحُبًّا، وقبل أن تتوارى وجد نفسه يردّد بيتًا من قصيدة دانتي: "الجمال هو ما يشعل الروح"، ولما أوشكت أن تختفي عند نهاية طابية الصبار استدارت وقالت شيئًا بلغتها لم يستطع أن يفهمه، شيئًا ظل يتردّد في الفضاء الشاسع من حوله دون أن يستطيع التقاطه مرة أخرى.

تنكّب ساندرو بندقيته الكاركانو وجراب أمتعته وقربة ماء شبه فارغة، وفيما هو على وشك مغادرة الخندق والتوجّه إلى المعسكر مع بقية فصائل المشاة، اندلعت زوبعة من الرصاص الكثيف من خلف الكثبان الرملية التي تطوّق المدينة من الجنوب، بدا الأمر محيرًا، حتى أن أكثر الضباط حنكة احتاج إلى بضع دقائق لاستيعاب فكرة أن يكون هجومًا من الأتراك أو العرب، سارع بالقفز إلى الخندق، وتكدّس فوقه أربعة جنود خمّن أنهم مثله يخوضون مواجهتهم الأولى، بدا ذلك من طريقة ارتمائهم على الأرض كدجاج خانع، ضاربين بعرض الحائط كل قواعد (دريل) لتدريب المشاة، تلك التي خضعوا لها طيلة عام كامل حول كيفية الانبطاح أرضًا بقرار واع. لقد تذكّر الآن أنه ارتكب خطأ جسيمًا لا تغفره قوانين الجندية، مثبتًا أنه كائن عفوي يتحرّك وفق ما تمليه غريزة البقاء. ولما سمع الأمر من القادة بإطلاق النار تمّنّى للحظات أن يفقد وعيه، كانت أمنية سخيفة وليس هذا وقت البوح بها، كان أيضًا مندهشًا من سرعة تنفيذ الجنود لأمر الإطلاق، وخامره إحساس بأنهم كانوا مدربين أكثر منه وضالعين في مهمتهم

الجديدة بتفانٍ عجيب، وفيما هو يقلب عينيه في الجدار الرمادي الذي تشكّل من الغبار والدخان والزوابع الرملية الناتجة عن انفجار القذائف في الأرض، مرت قذيفة مدوية فوق رأسه مثل العاصفة دفعت قبعته من مكانها وأوقعتها أرضاً، صاح فيه قائد الموقع بحدة:

- ماذا تنتظر أيها الجندي الوغد؟

أسند بندقيته على أكياس الرمل، ألقمها بأصابع مرتبكة وسحب الزناد متجاهلاً الصدمة القاسية لارتدادة البندقية على عظام كتفه، كرّر ذلك بطريقة آلية وسرعان ما اندمج في مهمته وتخلّص من رهبة الاتصال الأول بالنار وتلك الهوة المخيفة ما بين المتوقع والحقيقي، صار يطلق من دون ارتباك، ويشاهد بانبهار مخلفات الرصاص الفارغ وهي تتكوّم بين قدميه. بعد لحظات لم يعد يشعر بشيء، حتى ذلك التردّد اللولبي الذي يحيط بكتلة الرأس ويتعاضم طنينه في الأذنين، كان قد اختفى تماماً وأصبح رأسه فارغاً كما ينبغي لجندي زائل، ولا يزال الضابط يصيح فيه بإصرار:

- فوكو!

كان قد أطلق ثماني رصاصات دفعة واحدة لكن شيئاً لم يتحرّك على المدى باستثناء حفر صغيرة تتفتّح في الرمل مثل زهور من النار، صاح فيه ثانية:

- فوكو! اضرب! اسحق.. أطلق من أقصى اليمين إلى اليسار، لا تترك أي ثغرة.

بعد قليل انضمت إليهم وحدات من الفوج الثاني والأربعين بمدافعهم الرشاشة، ليتحوّل الخندق إلى تنين كبير بآلاف الأقدام ينفث النار فتتنصهر الأنفاس في رائحة البارود، من الجهة المقابلة تنهمر القذائف، تقتلع الحشائش المحيطة بالخندق، تثقب أكياس الرمل وتستقر بين حين وآخر

في رأس جندي تعس، تناقل القادة أن الهجوم يمتد على هيئة قوس من أقصى شرق المدينة إلى غربها، وأن لواء قناصة البارساليري الذي يسيطر على خط واحة المنشية في وضع حرج بعد اختراق سريته الخامسة إثر هجوم عنيف من المقاتلين العرب والأتراك. جاءت التعليمات إلى الضابط شافيز أن يتقدّم مع جنوده لنجدة لواء البارساليري في تل الهاني، حيث يتحصّن العقيد فارا قائد لواء البارساليري هناك.

- الوضع حرج جدًّا هناك، إنها حرب شوارع.

قال الضابط شافيز فصعدوا إلى الشاحنات المخصّصة لفرق الإسناد. انحسر ساندرو مع دسّته من الجنود في المقاعد الخلفية لشاحنة مغطاة بقماش مشمع، وحاول تهدئة التوسكاني الذي استغرق في حالة هلع هستيرية خوفًا على شقيقه في لواء قناصة البرساليري، كان الطقس قد أصبح رماديًا وتساقطت زخات صغيرة من المطر فوق القماش المشمع غمرت المكان برائحة التبن المبلول، فجأة وبنظرة ساهمة في اتجاه البساتين البعيدة شاهد ساندرو جموع أهالي حي المنشية وشارع الشط ينسلون من كل مكان من الأرض، كأنهم يخرجون من الأجداث، حفاة بتياب رثة وقبعات باهتة بلا لون، مسلّحين بحراب وبنادق صيد وأخرى من طراز ألماني حديث، صاح الضابط مخاطبًا السائق:

- فورسا! (اسرع)، سيلتهمونا!

- هي السرعة القصوى في الرمل، المقاومة عالية. أجب السائق.

- يجب أن تفعل شيئًا، سوف نُحاصر، ثم صاح في الجنود، أطلقوا في جميع الاتجاهات.

جثا الجنود على أرضية الشاحنة، وأطلقوا بعشوائية في اتجاه البساتين، لكن الرصاص كان ينهمر عليهم من أماكن لا يمكن التكهن بها، وشعر ساندرو أن شيئاً كريهاً سيحدث لا قبل لهم به، ولم يطل الوقت بهاجسه إذ سرعان ما غرقت الشاحنة في الرمل، ومن دون انتظار للتعليمات قفز الجميع متمترسين خلف إطاراتها، وانهمكوا في حشو البنادق بالرصاص وإطلاق النار ثم إعادة حشوها والإطلاق ثانية، ومن بين قعقة البنادق وأزيز الرصاص والأصوات البدائية التي يصدرها الجنود بلا معنى، يصرخ شافيز بنفاد صبر:

- تابعوا الرماية سوف نحاصر.

- الذخيرة على وشك النفاد، صاح أحد الجنود.

- أين بقية الشاحنات؟ صاح آخر.

- يجب أن يرسلوا إلينا الدعم، تابعوا الإطلاق، صاح شافيز.

لم يكن الوقت مناسباً لأي مشاعر، لكن ساندرو شعر بالشفقة على الضابط وهو يمارس دوره بمثالية في الاستنزاف ضالعا في قيادة جنوده نحو الموت، إذ إن أي أحرق سيقول إنه يتعين عليهم الإبقاء على بعض الذخيرة، فكر أن يرتكب خيانة صغيرة للبقاء حياً، بعد قليل صاح بعضهم مشيراً إلى صندوق الرصاص:

- انتهت الذخيرة!

تسمّر شافيز وابتلع ريقه بصعوبة، مسح حبات الرمل الملتصقة بالعرق على جبينه، وأمر الجنود بالانتشار، ركضوا في مجموعات صغيرة باتجاه الأحرار الشائكة، كانت مجموعة ساندرو تضم الجندي التوسكاني

والضابط شافيز وجنديًا ضخمًا من أوغستا مدججًا بالوشم، تولى توفير غطاء من نيران بندقيته، لكنه أول من سقط برصاصة في الرأس، وتدحرج خلفهم على كثيب من الرمل، كانت الصدمة الأولى للقتل مريعة، مخزية ومقرزة، وكل المبررات التي تسبق فعل الجريمة بدت لساندرو أكثر تفاهة عند مشاهدة لحظة الاحتضار، ركضوا من دون حزن متوغلين بين النباتات الشوكية المتبرعمة في الرمال بعد قليل شهق الضابط شافيز وهو يتحسس كتفه المضرج بالدم لكنه تابع الركض، وبين الطوابع، في جوف سيقان الصبار الخضراء المفلطة انحشر ثلاثتهم باستماتة فوق الشوك المدب، ومن بين الفجوات شاهدوا جنود البرساليري وقد أطبق عليهم السكان وذبحوهم بسكاكين البقر، صرخ التوسكاني وعاد إلى حالته الهستيرية مرددًا اسم شقيقه بهلع، ثم نهض من قعدته عازمًا على اللحاق به، ارتمى فوقه الضابط شافيز وأطبق على فمه بيديه:

- هل جننت؟ سنموت جميعًا!
- إلى الجحيم!
- أنت تعصى الأوامر!
- دعني أذهب، ذلك أخي.
- تقول القوانين ليس مسموحًا للجندي أن يتخذ قرارات خاطئة، كما أنه ليس مسموحًا له بأن يموت.
- ليس مسموحًا للجندي أن يموت ولكن على معجزة ما أن تحدث كي يظل حيًا.
- لن تتمكّن من إنقاذه، ابقَ هادئًا؛ هذه أوامر عسكرية.
- اغرب عن وجهي.. لن أتركه.

تمسك شافيز بذراع التوسكاني، استجمع قوته وطرحه أرضاً على الشوك، هدده بلهجة حاسمة:
- لن تتحرّك من هنا، إذا اكتشفوا وجودنا سنموت جميعاً بسببك.

لكن التوسكاني لم يأبه للتهديد، استدار وسدّد لكمة قوية إلى وجه شافيز، فانقلب الآخر عليه بكامل جسده محاولاً كتم صرخاته، وللمرة الثانية يشهد ساندرو خطأ جسيماً لا تغفره القوانين ليثبت الجنود أنهم يتحرّكون وفق ما تمليه أهواء العاطفة، لوهلة بدا له وهو ينكمش في جُحره بين السيقان المسنّنة، أن التوسكاني سيموت خنقاً تحت ذراعي شافيز، لكن التوسكاني سحب سكينه بيده الطليقة وسدّد طعنة في ظهر شافيز جعلته يقفز من هول الصدمة ثم يرتمي مضرباً بالدم.
- قتلتنى أيها الوغد!

تأوّه شافيز، وانطلق التوسكاني باتجاه خندق البرساليري، وقبل أن يصل، شاهده ساندرو من بين ثنايا طابية الصبار الهندي وهو يقع بين يدي السكان الحفاة ذوي الثياب الرثّة، يطبقون عليه الخناق، ويطرحونه أرضاً، ينزعون ثيابه ويقطعون بسكين البقر شيئاً من بين ساقيه ويطوّحونه بعيداً، ثم يربطون ساقيه بالحبال ويجرونه على الأرض المرصوفة بالحصى، وهناك عند فوهة البئر يدحرجونه بأقدامهم إلى القاع، ثم يلتقطون جنوداً آخرين، تنتظرهم نفس النهاية المحتومة.

انتاب ساندرو الهلع وأيقن أن كل ما حدث قبل هذه الساعة هو حقاً نزهة صغيرة له وللحملة الإيطالية على شواطئ ليبيا، وآن الألوان كي تنقلب الموازين إلى أسوأ ما يمكن توقّعه، لطالما تساءل: لماذا جئنا إلى طرابلس؟

وبعيدًا عن أحلام القوميين، وبروباقندا الظهور كدولة عظمى، ونزعة الكنيسة لمحق الإسلام، وأطماع الجماهير البرجوازية الصغيرة بامتلاك حقائق الفاكهة، بعيدًا عن كل ذلك، جثمت أمامه ذكرى معركة سولفرينو قبل أربعين عامًا، المعركة الأكثر بشاعة ودموية في تاريخ إيطاليا، ضحك بمرارة من فكرة النصر المؤزر الذي قاده نابليون الثالث بالتحالف مع الملك عمانويل الثاني، ضد قوات النمسا، النصر الذي يحتفلون به كل عام، وقد كلف ستة آلاف قتيل وأربعين ألف جريح في نصف نهار، النصر الذي احتاج إلى أسبوع كامل لإزالة الجثث المتعفنة عن الأرض، ولما شاهد جنود البرساليري يتقاذون كالفئران المذعورة، يطاردهم أهالي طرابلس في شوارع المنشية ويخصونهم بسكاكين البقر، أيقن أن انتصار سولفرينو الأسود هو مصير محتوم يطارد تاريخ إيطاليا بظلامية مقبلة، كان الوقت قد تأخر ليستوعب ما قاله مؤرخ روما العظيم تيودور مومسن، عندما سأل السياسي كوينتينو سيللا، ما الذي تنوون فعله بعد أن تحرّرت إيطاليا من الاحتلال النمساوي؟ بالنسبة إلى مومسن كان يتصوّر أهدافًا حضارية سامية، إلا إن كوينتينو أجاب: استعادة أمجاد روما. حاول ساندرو أن يخفّف عن نفسه وطأة الشعور بالوعي، لكنه لا يستطيع أن يدفن رأسه في صندوق الرمل ويتغاضى عن جنون روما الثالثة وريثة روما الإمبراطورية، ثم المسيحية، روما الاستعمارية ذات الجرائم المخجلة والطموح المخزي، تمخّط وبصق شيئًا مرًا على ألواح الصبار، وتنبّه إلى شافيز وقد استغرق في نوبة من الأنين بصوت مرتفع، حاول تهدئته، لكنه بدا غير واعي بنفسه، زحف نحوه بحذر، فكّ أربطة الحذاء الطويل، نزع جوربه من قدمه وحشره في فمه، لكن ذلك لم يجد نفعًا، إذ أصبح أنينه مثل خوار ثور تشتعل من تحته النيران، حينها

جاء الوقت لارتكاب خطأ ثالث لا تغفره القوانين، متصالحًا بسلام تام مع الفكرة التي تقول: "المصلحة السياسية تبرّر الحرب"، لتصبح وفق الحالة الراهنة: "المصلحة الذاتية تبرّر القتل"، موقفًا أن القاطنين في صوامع الفلسفة لا يعرفون على وجه الدقة ما يحدث في خط النار، لقد جاءت اللحظة الحاسمة للكفر بكل الأحلام الوطنية، والتبرؤ من كل النزعات الطموحة التي ألقت بهم في صندوق الرمل الكبير، الصندوق الحارق مثل ثور صقلي ينفث الدخان، ما إن دوّت زوبعة أخرى من رصاص كثيف متواصل، تراجع إلى أبعد مسافة ممكنة في الجحر الشوكي، سدّد الفوهة وأطلق الرصاصة الوحيدة التي احتفظ بها، كانت إصابة موفقة، إذ إن جسد شافيز انتثر من مكانه بضعة سنتيمترات عن الأرض، ثم همد إلى الأبد.

كل ما يعرفه، وما سيقضه لاحقًا في مقاهي المحاربين القدامى الذين فقدوا أطرافهم وأسنانهم وأجزاء أخرى مهمة لحياتهم، أنه حدثت معجزة أسهمت في بقائه حيًا يوم واقعة شارع الشط، وباستثناء الخدوش الغائرة التي حفرها الشوك على جسده وتلك القفزات الهلعة التي تنتابه خلال النوم، إضافة إلى سلس البول الذي لازمه طوال الحياة، فإنه لا شيء يوحى بما كان هناك، فعندما جاءت شاحنات الدعم قفز باتجاهها بهستيرية ملوّحًا بفردة جورب الضابط شافيز، ملقيًا بالبندقية وراء ظهره وبأطنان من المقولات عن الشرف العسكري الذي يرقد على قنطرة الزناد.

في المساء أحصى الضباط أعداد القتلى، جمعوا الجنود في باحة المعسكر ونادوا الأسماء من قوائم مكتوبة، لما سمع اسم ساندر كومباريتي من ميلانو، غصّ الصوت في حلقه، تلمس أطرافه ليتأكّد أنه لم يكن هناك في

البئر مع التوسكاني التعيس. كرّر الضابط النداء متهيناً لوضع علامة (X) أمام اسمه، أخيراً أجاب بصوت مخنوق:
- حاضر.

رمقه بنظرة تبرّم ونادى الاسم الذي يليه: فرانش فيليس من توسكانة، خيم الوجوم على الجميع، كرّر الاسم ثانية، ثم رشم العلامة المحتومة.
- فقدنا خمسمائة جندي وواحدًا وعشرين ضابطًا.

قال الضابط لرئيسه وهو يسلمه القائمة، عاد ثانيةً ووجه حديثه إلى الجنود:

- بإمكانكم كتابة رسائل الليلة إلى ذويكم استباقاً لما يمكن أن تسببه الأخبار المروّعة لهم من قلق.

كان يريد أن يكتب رسالة إلى الأنسة كريستين، ثم تجاهل ذلك، فكل التقارير الإخبارية التي أرسلها إليها وجدها منشورة، في نسخ الصحيفة التي تصل مرة كل ثلاثة أيام، بمعلومات محرّفة ومكتنزة بمغالطات انتقائية، وبشيء من الخيبة تراجع عن التفكير بإرسال رسالة إلى جيا جارسيندا حيث لم يصله رد على رسالتيه السابقتين، وهي التي كتبت له عنوانها بخط يدها في تلك الليلة السعيدة ودعته إلى مراسلتها قائلة: اكتب لي بكل ما في قلبك.

في القلب لم يكن هنالك شيء سوى الخواء، وشعور بالتفاهة والانحطاط، لطالما كان تقديره لنفسه عاليًا ويعتقد أنه مشروع رجل صالح، يلبي أوامر الواجب بكل إكبار ويقهر بصبر قديس كل ما في نفسه من نزعات الأنانية، وعندما استدعته قيادة الجيش للتجنيد الإلزامي والالتحاق بالحملة

العسكرية على طرابلس، تجنّب مغالطة القوانين أو التشكيك في نقائها، وعدّ هذا النداء صورة أخرى لمعاني المواطنة، أما اليوم وهو أمام ما يمكن أن يسميه صفقة أخلاقية أطاحت بشرف الدولة والجيش والصحافة والبرلمان والحكومة لم يعد راغباً إلا في الانزواء بعيداً أو الموت، شريطة ألا يُكتب اسمه على الأنصاب التذكارية للجنود الأغبياء الذين ظنوا أنهم ماتوا في سبيل الوطن. لقد بات من الواضح الآن، صبيحة اليوم الثاني لمعركة شارع الشط، أن الموت الذي نجا منه بأعجوبة عند طابية الصبار الهندي هو أقصى ما يتمناه اليوم، ذلك أن الموت وكما في كل الأزمنة هو السبيل الوحيد لمسح العار. بدا الصباح فاجعاً منذ أول خيوط الفجر، في منتصف الباحة، عند سارية العلم الذي كان حتى تلك اللحظة منكساً حداداً على أرواح البرسالييري، غنى الجنود نشيدهم الصباحي:

أماه صلّ ولا تبك، بل اضحكي وتأملي
ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني؟
وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً
لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة
ولأحارب الديانة الإسلامية
سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن
ليس للمجد من لم يمت من أجل إيطاليا
تحمّسي أيتها الوالدة
وإن سألك أحد عن عدم حدادك عليّ
فأجيبه مات في محاربة الإسلام.

في تلك الأثناء ظهر الجنرال كانيفا محاطًا بضباط آخرين قضوا الليل وهم يعلقون الدبابيس والنجمات وشارات النصر على كل مكان من قبعاتهم وملابسهم العسكرية، لقد بدوا أكثر وجاهةً ومنعةً من أن تتبادر إلى الأذهان فكرة الإحباط أو الهزيمة، وأمام بريق الكتفيتين الضخمتين المقصبتين بخيوط الذهب اللتين ارتداهما كانيفا، أصبح بالإمكان التغاضي عن كل ما حدث في الأمس المشؤوم، كانت المرة الأولى التي يوجّه فيها حديثًا مباشرًا إلى الجنود، والمرة الأولى التي يعطي فيها مبررًا لقرار عسكري اتخذه دون العودة إلى الحكومة، مع الوقت وبعد أن عاين الطليان قسوة الطبيعة الرملية في موقع القتال سلموا أن كانيفا، وخلافًا لاتهامات جوليتي له بالتخاذل، كان محققًا لأنه لم يسمح بنحر سرية سلاح الفرسان في صندوق الرمل الحارق، لقد سمح فقط بنحر الطرابلسيين. وعندما طلعت الشمس كان الجنود يركضون كالجاموس الهائج باتجاه واحة المنشية، يطلقون النار على كل من يصادفهم، ويتفوّهون بتلك النداءات المهولة "من لم يسلم سلاحه سوف يقتل رميًا بالرصاص"، وكان الضابط ذو العنق الأحمر الذي تولّى قيادة سرية ساندرود بدلاً عن شافيز: يصرخ بعروق نافرة دفعت المزيد من الدماء إلى عنقه: اقتلوا الخونة الملاعين، ومن بعيد تأتي أصوات الهلع والضجيج والرصاص وطقطقة النيران في البيوت المحترقة، وصرخ النساء والأطفال، والشهقات المروّعة للقتلى الذين ذبحوهم بين أهاليهم، ركض ساندرود متعجبًا من صلابته في مقاومة الرمل ملامسًا حقيقة اندماجه الجديد، أطلق النار كما ينبغي، سمع حشجة قتلاه في لحظات احتضارهم، ألقي الأغلال في معاصم المشتبه بهم لاقتيادهم إلى ساحة الإعدام، وللمرة الأولى يستذكر بدقة قواعد دريل دون أن يكفر بشيء منها:

لكي تكون جنديًا لا بد أن تنصهر مع الآخرين فيما يؤدون من مهام، لا بد أن تخضع للدوران الجماعي كي لا تنسحق أمام الركض المعاكس، مضيّقًا قاعدته الخاصة: لكي تكون جنديًا لا بد أن تتحرّر من غائلة الوعي.

كانت الجثث مكوّمة أمامه على امتداد البصر، ورائحة الدم الساخن تتغلّل في حلقه، يملؤه صراخ الفتيات اللاتي اقتادوهنّ من بيوتهن إلى وجهة غير معلومة، وأمام البيت الحجري المسامت لمزرعة شبه جرداء وقف الضابط ذو العنق الأحمر بعيدًا وأمر الجنود بالاقترام، ركل ساندرو الباب بقدمه وقبل أن يخطو إلى الداخل سحبت امرأة عجفاء تلتحف رداءً أسود عمود المنساج من نولها، وهوت عليه بضربة غير موفّقة، ذلك لأنه سبقها فأطلق النار. شاهد الدم يتدفق من حزامها، في اللحظة ذاتها وثبت الفتاة بائعة الحليب وشقيقها الصغير من مخبئهما يصرخان ويمرغان وجهيهما على جسد الأم المسجّى على الحصى، وقف مشدوهاً بلا حراك، متحطّماً كتمثال من الرمل، مصروعاً بنظرتها الغامضة وبوعي انكساره الأبدي، أدرك في اللحظة التالية أنه كائن بائس، محكوم بقدرية العار، كان دائماً يخاف من أهوال المعركة، من الرصاص والنار والخنادق والدم، ومن السقوط جريحاً ويتخلّى عنه الرفاق، إنه بمعنى آخر يخاف من الخذلان، نعم الخذلان، وخزت الفكرة رأسه مثل إبرة مسمومة، مثل طعنة، أو بالأحرى، مثل نظرة الفتاة الآن، داهمه إحساس أن نظرتها تدرجه إلى قاع البئر حيث ذهب التوسكاني من دون رجولته، وتمنى أن يتحطم سريعاً في القاع كنهاية رحيمة لسقوطه المريع، كانت الفتاة ما زالت تصرخ وتتلّمس حزام أمها النازف وتلطم وجهها بالدم، حين دخل الضابط وصاح مشيراً إلى

الفتاة بالعنف ذاته الذي يتدفق من عروقه النافرة:
خذها إلى الشاحنة.

ذهل وهو واقفٌ قبالتها، تجمّد للحظات في محاولة للاستيعاب واستقبال فكرة مشوشة حول كيفية أخذ فتاة إلى مكان ما بطريقة صحيحة غير حملها مستلقية على الذراعين، شعر بالدم يهرب من رأسه ومن عروقه ومن فراغات عينيه ونظر كما تنظر فزاعة من القش فاجأتها صاعقة، صاح الضابط ثانية بزمجرة مدوية: الفتاة، خذها حالاً، ماذا تنتظر أيها الوغد؟ انحنى عليها من الخلف، مطوّقاً خصرها بقبضتين من الفولاذ، وسمع في اللحظة ذاتها شهقة نَزَّت عنها بمزيج من التقرُّز والوجع والصدمة والاحتقار، ونشبت أظافرها تمرّق ظاهر كفيه وهي تصرخ محاولة الافتكاك، ومع ذلك تابع مهمته بسرعة قصوى مختصراً قدر الإمكان اللحظات السمجة لاحتكاك رأسها على صدره وهو يجرجرها على الرمل، راسمة بقدميها الحافيتين أخاديد كبرى على خريطة وعيه الحضاري، في اللحظة ذاتها سمع آخر نداءات الأم من بين حشرجاتها، كانت تهتف باسمها: حليلة، حليلة، هكذا سمعها تنادي اسم الفتاة وتقول شيئاً يبدو مهمّاً جدّاً بالنسبة لأم في آخر لحظاتها، ولفتاة تساق إلى مصيرها المجهول.

الرحلة

مروان جبودة

1. للحكاية

لحكايات جدّي تأثير كبير في قلبي، فمنذ الصغر وأنا أراه أمهر الحكّائين، أسلوبه في السرد ساحر ومتين، يشعرك أثناء حديثه أن القصة تحدث الآن في زمن تلاوته لها، يتقمّص شخصياتها ويلبسها، فيعلو صوته تارة وينخفض تارة أخرى. تتغصّن جبينه وتنفرج، ترتعش شفاته وتهدّل، وعيونه تتبدّل، كأنك ترى الشخصية نفسها في الحكاية، ويظل يمسك بخيط السرد بمهارة الفنانين فلا تكاد تلتقط أنفاسك وراءه، وإذا صمت قليلاً فإنه يرى وراءك ذلك الزمن الذي عاش فيه وتلك الوجوه الكثيرة التي عبرت أمامه.

تشكّل وجداني مع حكايات جدّي، تعلّقت به، وكنت ملاصقاً له دائماً في النهارات الصحوّة، أتبعه وأراقبه، منبهراً بقدرته على نسج كل هذه الحكاية وبذاكرته الفتية، وفي تلك الليلة الشتائية التي نسي فيها ذكرى ما، قرّرت أن أكتب، سأكتب رواية تؤرّخ لذلك الزمن بتقلّباته وتناقضاته، سأكتب انتصاراً للذاكرة، ذاكرة جدّي.

2. تلك الظهيرة 1933

كان بلقاسم يشرف على العمال في حقل الرومي ويتابع حركتهم وهم يميلون

بأجسادهم النحيلة بطريقة رتيبة أثناء حفرهم الأرض، وقد رموا وراء ظهورهم كل آلامهم، ورغم وهن أجسادهم فهم يقومون بهذا العمل الشاق دون أي شكوى أو ملل، فلولا تلك القروش الزهيدة التي يتحصّلون عليها نهاية النهار، سينتهي بهم المطاف موتى من الجوع، أو مهاجرين بحثًا عن الماء والغذاء، فلذلك تراهم لا يشتكون من التعب مطلقًا، فمن يعمل أكثر يعيش أطول.

يمتطي بلقاسم جملة معتدًا بنفسه على المكانة التي اكتسبها عند صاحب الأرض، يحسده عليها الجميع، وقد وصل ليكون كبير العمّال أو "الكبران" كما يقولون، وصل إلى ذلك بسرعة وهو لم يتجاوز الثلاثين عامًا لما يحظى به من بصيرة وذاكرة وقّادة، فهو يعرف الشخص من آثار أقدامه على الرمال، فإن سرق أحدهم شيئًا يكفيه نظرة واحدة على تلك الآثار حتى ينطق باسمه.

عند الظهيرة عندما بدأ الخدر يتسلّل إلى رقبتة وهو يخطو ذهابًا وإيابًا، علم أن وقت الراحة قد حان، راحته هو وراحة هؤلاء العمّال، ولقد شعر بتباطؤ العمال وتكاسلهم فقرر أن ينتظر ساعة أخرى قبل أن يصرفهم، ثم قرر أخيرًا أن يوقف العمل تحت وطأة النعاس، صاح بهم ليتوقّفوا وغادر عائداً إلى بيته.

وصل إلى الخيمة وقد وجد حصانًا بالقرب منها يجتر العشب بسكينة وامرأته خارجًا جالسة على قدر غدائها، وكتبه الأعور ينظر في غير اكتراث، تجاوزها ودخل. وجد ابن عمه محمد الذي خرج مع القافلة قبل عام نحو الجزائر، عانقه محمد الذي كان أقل منه طولًا، بكى كأنه احتفظ بدموعه ردحًا من الزمن، نزلت حارة على خديّه، اختلطت دموعهما معًا.

قبل أسبوع وهو في السوق يشرب الشاي، سمع الأخبار حول انتشار مرض

غريب بين الناس وقد أرداهم موتى بالآلاف، لم يكن يشعر بأن لذلك أهمية لديه.

لن تصدّق الأمر، الموتى بالآلاف، هربنا من الرصاص فاجأتنا الحمى.

ماذا عن البقية؟

مات أبي وأمي وكذلك أبناء أخيك المختار وزوجته، وخالك عبد الله يتهدى في الركب وكاد يموت، القافلة خلفي مسافة يومين.

لنأكل ثم نتصرّف لاحقًا.

خيمة بلقاسم كانت قريبة من خيمة الرومي، صاحب الأرض وهو مزارع إيطالي أحضرته السلطات مع عائلته إلى ليبيا مع انتهاء الحملة الإيطالية الأولى لاحتلال البلاد والتوجه نحو خطط التنمية ومنها استصلاح الأراضي، مكث عشر سنوات في طرابلس ونجح في تنظيم الأراضي الزراعية خارج العاصمة، وكذلك في تقوية الحزام الأخضر المحيط بالمدينة، والذي يمنع عنها رياح القبلي الساخنة المحمّلة بالأتربة، وعلاوة على كونه ماهرًا في عمله فقد كان يحظى بصداقة الليبيين ويتعاطف معهم، وكان يرّدّد دائمًا: "أنا هنا لا أحمل البندقية، بل أحمل فأسًا لأجل أرضكم، فكّروا في أن هذه الأراضي التي نصلحها، ستكون لكم في نهاية الأمر"، ومع نجاح الحملة الإيطالية الثانية مطلع الثلاثينيات نُقل إلى الجبل الغربي (نفوسة)، وقد راق له ذلك كونه كان على أعتاب مرض صدري لولا أن ذلك الهواء البكر الذي كان يستنشقه كل صباح ويدخل إلى أعماق صدره أسهم إلى حدّ كبير في انحسار المرض.

بعد الغداء مباشرة غادر نحو الرومي وقد وجده مستلقياً في خيمته الكبيرة ذات المعدات والأشياء التي لم يعرف يوماً كنهها، وقف أمامه ثم نظر إليه بعينيه الصغيرتين، الرومي يعرف ماذا تخبئ تلك النظرة، ولذلك التفت إليه ليسمع وقد تحدّث:

يا سي جيوفاني، لقد حدثتك منذ زمن عن أهلي الذين غادروا للتجارة وأنا رفضت وقرّرت العمل هنا، إنهم على مسافة يومين، جاءني رسول منهم وقد حدّثني عن المرض الذي انتشر في البلاد القريبة، أعتقد أنهم مصابون به، وربما البعض.

نهض جيوفاني وقطع قيلولته، خرج مع بلقاسم، سارا قليلاً تحت أشعة الشمس الدافئة، من يراهم من بعيد لا يميّز بين من هو رب العمل ومن هو الأجير، مرّ كلاهما خلال الحقل، مسح الرومي بعينيه الأرض ثم التفت إلى بلقاسم: "يبدو أن العمال نشطين هذا اليوم"، بعد قليل توقّفا عند الأرض اليابسة قرب الهضبة، كانت تقع خلف البيدر شرقاً بالقرب من بئر المياه غريبة الطعم.

هنا يا بلقاسم. هنا تجلب بعض العمال يبنون خمسة خيام ثم تحيط هذه الخيام بعيدان الخشب، واحرص على تزويد الخيام ببراميل كبيرة من المياه الحلوة.

غادر الرومي وظل بلقاسم واقفاً ينظر إلى التراب؛ إلى السراب، ومن السراب تنبثق البيوت وتشتد العידان.

خمس قطع من القماش جنباً إلى جنب والحبال تربطها، ثم يؤخذ من

أطرافها بحبال أكثر قوة وأقصر طولاً، وعند نقطة ما في الأرض يرتفع عمودان صلبان من الخشب مبتعدان من الأسفل ثم يقتربان من الأعلى حيث يلتقيان في ركيزة يوضع عليها القماش وهكذا كظهر الإبل، الخيمة تفتح ناحية الشرق ناحية القبلة، قبلة الصلاة التي لم يتذكّر متى اتجه إليها آخر مرة، ربما في العيد السابق، وفي الطرف الغربي تهبط ستارة من قماش أقل كثافة، وهكذا بنيت البيوت الخمس قبل أن تحيطها العمدان، عندما رفع العمال رؤوسهم وانتهى العمل آخر النهار، فجأة شاهدوا الحياة تدب خلف البيدر.

3. قبل الهروب

فتح المختار عينيه في الظلام إثر رذاذ رطب أصاب وجهه، في تلك اللحظة غرس يديه في خصر زوجته ثم انقلب إلى الناحية الأخرى. نهضت زوجته وخرجت وهي تحمل الرزام (عصا صغيرة ذات رأس دائري)، توجّهت ناحية شجرة السرو واختارت العيدان الصلبة ثم قبضت على كومة من القش الجاف، ربطت العيدان ووضعت القش تحت لباسها، رمت الكومة داخل البيت، الريح كانت شرقية، أنزلت الستارة الأمامية للبيت ورفعت الستارة الخلفيّة، ومَرّت على قطع القماش من الخارج، شدتها أكثر وضربت على الأوتاد، كانوا خمسة، تنهّدت ثم عادت للنوم، الفجر لن يطلع قبل ساعتين.

4. الحمى

يدخل الخريف وقد يتأخر المطر، فيخرج الناس إلى الأراضي الواسعة ومعهم الأطفال والعجزة، ولا يسمح بالحضور لمن عليه دُين أو مخاصمة مع أحدهم، ولكن من هو ذاك صاحب حجر الخطيئة، تُقلب الألبسة وتتهَدَّل الشفاه، وتُرفَع الأكف إلى السماء طلبًا للمطر.

في ذلك العام تغيَّر الحال.

هطلت الأمطار بغزارة، حتى اضطر الأمر إلى زيادة الأغذية فوق البيت، وتحصينه بأكوام من الرمال حتى لا يعوم، استمر المطر لأيام، تحركت الأودية وتكوَّنت البحيرات وغُمرت السواقي وكشط السيل كل شيء أمامه، وتوقَّف المطر، وركدت المياه ومن المياه فقست بيوض البعوض.

كان الأمر شائعًا أن يصاب أحدهم بالحمى وآلام المعدة، ويكثر ذلك بسبب تقلبات الجو، وما يحدثه، حتى قرصات البعوض أمر اعتيادي، ولكن الدملة الصغيرة فعلت بالجسم كما تفعل الجمرة في القش، ارتفعت حرارة الأجسام وذابت الأعين في حرقه الدموع، وتشقَّقت الشفاه وذبل الجسم رغم منقوع الأعشاب والدهانات الكثيرة، وتكرر الأمر مع كثيرين.

سمع المختار أخبار الموت بينما يعبر الدروب الضيقة خارجًا من السوق، قبض على الأوراق اليابسة في غيظ وأسرع خطاه.

رمى الصرة أمام زوجته الجالسة أمام الأطفال المرضى، لم يعلم كيف حدث هذا، ومن هو أول المصابين؟ وأين أصيب؟ وضع يده على جباههم الواحد تلو الآخر، وكأنه اقترب من النار، "ضع هذه الأوراق في ماء ساخن واتركها

لفترة حتى تبرد ثم أزل هذه الأوراق واجعلهم يشربون منها كأسًا كبيرة“ صاحب الدكان قال ذلك.

مرَّ على عمِّه وأخيه وهو في طريقه إلى هنا، طلب منهم اللقاء هذا المساء، المبروك لم يكن موجودًا.

كانوا ثلاثة وضوء الفئار يحاول مجارة الحديث، المختار وعلي وعبد الله، رأى أنه من الحكمة تحمل المسؤولية أمام أمر كهذا، ولذلك لم يضع اعتبارًا لكونهم أكبر سنًا منه وعليه دائمًا طاعتهم، قد تحدث معهم منذ أيام عن مغادرة هذا المكان المسكون برائحة الموت، قال ذلك: ”الموت يقترب منا، علينا المغادرة“ خاله عبد الله رفض ذلك بينما يحاول صف أوراق التبغ بعناية على الورق، عمُّه علي صامت طوال الوقت وينظر في غير اكتراث، وهو يعلم مدى تأثير عبد الله في علي، لكنَّه قرر بالفعل المغادرة. عند الفجر سأنطلق.

صمت وأخذ بيده كوب الشاي محاولاً الانشغال به عن أعين خاله الذي قال: اسمع يا ولد، هنا مكان أفضل للحياة، ثم إن تجارتنا تتعافى يومًا عن يوم، هذه الحمى تأتي كل عام وتزول مع شمس الربيع. وعندما تزول هذا العام تكون قد أخذت كل شيء.

في نهاية السهرة اقتنع خاله، سيغادرون بعد الغد حتى يعود الأبناء من الحرث، قال لهم إنه سيسبقهم وألا يستعجلوا في المسير، لكنَّ خاله أمره بأن يتنازل قليلًا ما دام الجميع اتفقوا، وهذه الرحلة الطويلة تحتاج أن يكون الجميع في ركب واحد.



ليبون داخل الحجر الصحي، بداية الاحتلال الإيطالي بسبب وباء الكوليرا الذي
تفشى بطنابلس سنة 1911.

ينقسم البيت إلى نصفين بواسطة ستار، مكان حيث العائلة تنام وتطبخ في الشتاء وتأكل وفي الجهة الأخرى يجلس الضيوف، وبينهما عند المنتصف تمامًا بين الركائز يتم تخزين الطعام وما يلزم تخزينه، زوجة المختار في الركن الآخر من البيت وقد سمعت كل شيء، هو لم يستشرها في الأمر ولكنها فكرت أنه القرار الصحيح، فالأولاد المرضى قد يجدون علاجهم عند الابتعاد من هذه المنطقة.

كانت دائمًا لا تناقشه في شيء ولا هو كذلك يسألها، هي تعلم أنه هكذا منذ الصغر نشأ كقط بري، ومن الصعوبة أن يرضخ لأحد، دائم السفر والترحال، ويحسُّ دائمًا أنه الأقل شأنًا بين إخوته وأقلهم حظًا.

بدأ الجميع في تحصيل ما لديهم من رزق، رؤوس من الغنم والإبل وبعض الدجاجات، أكياس من الشعير والقمح، والحبوب التي من المفترض أن يتم بذرها هذا العام، ومستلزمات البيت وأدواته.

نام المختار تلك الليلة وكأنه يوشك أن يطير من الخفة، هكذا رأى نفسه في المنام أنه يطير بجناحين ضخمين، كان يرى كل شيء من فوق كما في السنين البعيدة وهو يتسلَّق الشجرة الضخمة أعلى الوادي ويشاهد المنحدر.

حينما يغيب عن الأعين وتهبط الشمس وراء الأفق، وتبدأ حياة الليل بكل وحوشها ووحشتها، يصعد والده بالمشعل والكلب، يعلم أنه سيجده هنالك غارقًا في تأملاته فوق الشجرة لا تحتها.

5. أحمد الجبالي

في مطلع العشرينيات من القرن العشرين، دخلت بقرة إلى مزرعة أحدهم وأحدثت ضررًا بها، خرج صاحب المزرعة وقتل البقرة وعاد إلى بيته.

لم يعلم أحد أن تلك البقرة كانت ناقوس خطر ينبئ بما هو أخطر، الحرب الأهلية في الجبل الغربي (نفوسة) أو الفتنة تلك الكلمة التي ستجري على الألسن في ما بعد، لكنّ الجميع استهان بالأمر وظنوا أن الأمر عادي، لكن ماذا حدث؟ انتشرت نيران الحرب مرة أخرى في كافة القرى العربية والأمازيغية والمختلطة منها، عادت من جديد بعد ستة أعوام عن حادثة صغيرة تم تجاوزها، ولكن يبدو أن ذلك لم يكن إلا فترة للاستعداد، فبعد أن عاش الناس لفترة طويلة مترابطين ومنسجمين كأحجار صغيرة في تلك الفسيفساء، كان لا بد من حرب ما تنعش تلك النفوس التي كانت تتغذى على القصص البطولية وتحيي ما كان غائرًا لوقت طويل.

الابن الأكبر لأحمد الجبالي يدعى محمد، وقد كان متعطشًا لدخول هذه الحرب رغم اعتراض والده الشيخ الكبير، هذه الحرب التي كانت فرصة لأولئك الصغار الذين أرادوا إثبات رجولتهم أمام أعين الصبايا وزغرذتهن، الابن خرج إلى الحرب والأب قرّر الخروج من الجبل والاعتزال عن هذه الفتنة، فلم يدُر بخلده البتة أن يأتي ذلك اليوم الذي يحمل فيه السلاح ضد جاره وصديقه.

قرّر أحمد الجبالي المغادرة إلى الجنوب إلى ابنته المتزوجة من أحد الأقارب، وفي صبيحة ذلك اليوم مشى قليلاً في الأراضي المحيطة، يتفقد

المكان كأنه لن يعود مرةً أخرى، يقولون إن الإنسان يشعر بأنه يموت قريباً، أنت ورقة في شجرة ضخمة، في فترة ما تكون شديد الاخضرار مزهواً بقوة بدنك وعافيتك، ثم ما تلبث أن تتلقى هذه الورقة الرياح والغبار وصروف الدهر حتى تمتص وتستنزف ما استطاعت من الحياة، ثم تبدأ في الخفوت، في الذبول، حتى تصبح يابسة هشة، هو هكذا يحس الآن أنه أصبح هشاً، قابلاً للكسر، مشى حتى وصل إلى منزله الأول وقد بدأ النهار في الانسلاخ وتوارت تلك العباءة النورانية تحت الجبل، أضناه التعب، دخل إلى الداموس الذي قام بحفره قبل نصف قرن، شعر بارتعاش بدنه، أحسّ كم هو ضعيف، عندما حاول أن يقف خذلته قدماه، ظل يردد بعض الأوردة والأذكار، ولكن لم يمت، دخل عليه ابنه محمد وهو يحمل بارودته في يد وفي الأخرى الفئار، تلاقى الأعين، اقترب محمّد.

- العائلة قلقة عليك، قالوا إنك خرجت منذ العصر.

- وأنت يا ولدي أأست قلماً على أببك الشفخ.

- أنا أكثرهم.

- ألم تفكر ففنا إن فُقدت فف هذه الفتنة؟

هذه حربنا فهل نترك غفرنا فقوم بها، وإن لم أكن قاتلاً سأكون قتلاً.

فف الظلام شعر الشفخ أن هذا الموقف والحوار قد تكرّر قبل سنوات فف تلك الحرب البعفدة، وابنه الآن كأنه ففحدث بلسانه، فقول تلك الكلمات التي خرجت منه وقتذاك.

عاد الشفخ أحمد الجبالي إلى العائلة وغادروا ففمعاً مع فجر الفوم التالي،

لكن الشيخ لم يصل إلى ابنته، ومحمد لم يصل إلى نهاية حربه، فقد تعب الشيخ في الطريق وخارت قواه بعد ثلاثة أيام، وابنه محمد تلقى رصاصة في رقبته، زارهم الموت في ليلة واحدة، الشيخ كان يهذي بكلمات، ومحمد لم يستطع تحريك لسانه، في الصباح خرجت أرواح كليهما بعيداً.

6. في الطريق

الرحلة استمرّت أسابيع طويلة، من أقصى الغرب الجزائري نحو الشرق حتى جبال ليبيا الغربية، وقد قضى نحو عشرة أفراد من عائلة الجبالي موتاً بالحمى، مقابل ولادة ذكر صغير ستكتب له الحياة.

أثناء الطريق كانت المشاهد مروّعة، جثث كثيرة مرميّة تحت الشمس وتحت أنظار الطيور الجائعة، بطون مبقورة تتدلى منها الأمعاء وعيون مفقوءة، لم يكن الأمر كذلك أثناء إقامتهم بالقرب من المستنقعات، أشبه بالمناعة المكتسبة لمن عاشوا هنالك طوال عمرهم، فقد كان من الملاحظ ندرة الإصابة بين سكان تلك المناطق.

منذ اليوم الأول مات أطفال المختار الثلاثة، نزل عن جملة وحفر لهم حفرة واحدة ومضى في طريقه بينما كانت زوجته تبكي، هو ظل صامئاً طوال الوقت ووجهه لا يحمل أي إشارة، بعد أسبوع سقطت زوجته من راحلتها أثناء النهار، أحس أنه فقد كل شيء، قبل أسبوع كانت له عائلة؛ زوجة وأطفال، أما الآن فقد أصبح وحيداً، لم يستمر الأمر طويلاً، زوجة عمّه علي ماتت أثناء نومها.

يتم التعامل مع الموت كأن توقد ناراً للعشاء، حدث عادي يمر كغيره من

الأحداث الأخرى، فلم يكن الفرق عندهم واضحًا بين الموت والحياة، فهل كونك تستطيع التنفس يعني أنك حي؟! ما قيمة الحياة حين لا تجد دليلًا على وجودها؟

مرض عبد الله خلال نصف الطريق، طلب من القافلة التوقّف، فقد أحس بدنو أجله، كان يتنفس ببطء وأولاده يحيطون به، تقدّم منه علي ابن عمه الذي لطالما كان بالنسبة له عجينة رخوة يشكّلها كيفما يشاء، أخذ قطعة صغيرة من الصوف وغمّسها بالماء، وبدأ يقطر بها على شفّتيه، لا يقوى الميت على البلع ويشعر بالعطش كأنه أكل ملح العالم، أصبحت الصوفة تفرغ قطرة قطرة، ومع كل قطرة كانوا يشعرون بروحه تغادرهم. لكنّه لم يمت.

مات علي، الأمر أشبه بمعجزة، استعاد عبد الله شيئًا من عافيته، وعند ظهيرة اليوم الثاني استيقظوا على أنين علي، الآن عبد الله هو الذي يقطر الصوفة في فم علي، لكن الروح هذه المرة خرجت.

اضطروا إلى عبور مسالك ودروب صغيرة ووعدة، هربًا من الحجر الصحي الذي فرضته الحكومة حينها، عندما غادروا أخبرهم صديق أن الحكومة بدأت في منع الأهالي من مغادرة القرية خوفًا من انتشار المرض، فلم يعد الركب يسير كوحدة واحدة، فذلك الأمر لم يعد ممكنًا، تأخّر محمد بن علي عنهم، وضعوا له إبريق فخار من الماء البارد حتى يشرب ويأتي به، وجد الإبريق أمامه بعد نصف نهار، فرغ منه وتركه ومضى، عاتبوه بعد ذلك على تركه له، لكنّه بدأ يفقد عقله، لم يحافظ على رباطة جأشه كغيره، فقد أباه وأمه أثر فيه كثيرًا، بينما ظل المختار صامدًا طوال تلك

المدة، وكان أكثرهم حرصًا على وصول الركب مكانه، أصبح يتقدّمهم ثم يعود بحصانه وراءهم ليتأكّد من عدم تخلف أحدهم إلا لطارئ ماء الموت كان يسير معهم ويحيط بهم وفي كل مرة كان يخطف منهم، والمختار قرّر عدم الاستسلام.

عبروا الخطر واستقروا قرب العجيلات وأرسلوا محمدًا ليسبقهم ويخبر بوصولهم.

7. اللقاء

خيام منتصبة ومحاطة بعيدان يابسة، نجح قائم لا ينقصه إلا أن تدبّ الحياة فيه، المكان أشبه بقرية مهجورة في أغوار الزمن رحل ساكنوها على حين غفلة.

كان لبلقاسم ما أراد، إلا إنه بالترتيبات التي أراد مسيو جيوفاني أن تكون، كمشفى ميداني ومعزول، وذلك لسلامة الجميع، فاستيطان مرض هنا كفيل بإضاعة شهور من العمل، فكّر جيوفاني للحظات أنه لن يستطيع الوفاء بكلمته تجاه رئيس عماله الوفي، لكن شيئًا ما جعله يتحرّك في الاتجاه الآخر، دفعته رغبة عميقة لإظهار شيء من مشاعره التي يكتنّها لأهل هذا البلد، إظهار صورة مغايرة عن تلك التي رسخت خلال هذه السنوات عن البطش الإيطالي، لم يكن جيوفاني حقيقة مهتمًا بسياسة بلده يومًا ما، كان دائمًا يقنع نفسه أن يؤدي عمله كمزارع، ذلك شغله الدائم خلال كل الأماكن التي استوطنها، لكن الأسى الذي شعر به في أعين الناس الذين تعامل معهم جعله يتساءل لأول مرة: لماذا تفعل إيطاليا ذلك؟!!

بينما كان الأفق يتوهج كأن الشمس تُقَبَّتْ وسال كل شيء، ظهر الموكب من بعيد، الأرض واسعة ونظر المرء يمتدُّ إلى بعيد، امتطى بلقاسم حصاناً نحوهم، سار يخرق الهواء البارد حتى ظهر له المختار في المقدمة، مسح بعينه الجميع، وجوه أرهقها طول المسير، أجساد خاوية تترنَّح قابضة على الحياة وتعتصرها.

”سلامتكم كبيرة يا مختار“.

”كدنا نهلك جميعاً لو ظللنا يوماً آخر“.

أحكم بلقاسم اللثام وتعانقوا واختلطت الدموع التي نزلت حارة بحرارة الموقف، شعروا بالحزن، بالفقد، بمن غادرهم في وصولهم إلى هنا، ذلك السفر وتلك الرحلة ستبقى ماثلة أمامهم وغائرة في ذاكرتهم، لا يتم حساب السنوات بدقة متناهية، إنما برد ذلك إلى أحداث ووقائع، ولذا فإن هذا العام سيؤرَّخ بعام ”الوخم“.

قادهم بلقاسم إلى الخيام.

”ستمكثون هنا لمدة، يجب ألا يغادر أحد منكم، وسيتم جلب كل شيء إليكم“.

”نحن هربنا من الكرنيتينا هناك توذُّ أن تقيمها لنا هنا“.

”يا خالي المرض لا يزال بينكم وسيتم نزع بعون الله ومساعدة صاحب الأرض“.

كان السينيور جيوفاني واقفاً على مقربة منهم، مبتسماً رغم بعض الآلام التي يشعر بها في صدره منذ الصباح، هو الستيني الذي أرهقه المرض في

وقت مبكر في حياته، ورغم انحساره وشفائه لكن هذه المدة يشعر أنه قد يداهمه هذه المرة.

تقدّم حيث الرجال، وقال: "السلام عليكم" ضحك الصالحين، ابن عبد الله، الصالحين ابن الحادية عشرة. أسكتته نظرة حادة من أبيه، ردّ عبد الله السلام ثم شكر هذا الرومي على صنيعه.

خلفهم أحد الخدم ينحر خروفاً سميناً، راقبوه وهو يقبض على رأس الخروف بركبته اليسرى، ثم يمرّر السكين على رقبته اللحمية في حركة واحدة ذهاباً وإياباً، خرج الدم ساخناً على التراب، مُسِح السكين على ظهر الخروف ثم ترك يتشنّج حتى تدلّى لسانه خارجاً.

غابت الشمس أخيراً والتمعت السماء بنجوم متناثرة، وألسنة اللهب تصاعدت من الحفرة الكبيرة تحت القدر الضخم الطافح باللحم. همس جيوفاني في أذن بلقاسم: "لا تبق معهم لوقت طويل"، ثم غادر.

8

أثقلهم الخدر، أطبق عليهم النعاس، كُلّ في خيمته مستلقٍ بعد عشاء دسم، رائحة الزعتر اخترقت أنف المختار، كأنه ينام تحت عيدان الزعتر، "الزعتر مطهّر للفم وطارد للبلغم، يرطب الحلق ويخفّض الحرارة، يقضي على الاحتقان ويزيل السعال". تذكّر تلك الكلمات التي قالها له التاجر الكهل محدودب الظهر، عندما ذهب إليه لعلاج أطفاله، لكنهم رحلوا الآن، غادرت أرواحهم ثم تبعتهم أمهم إلى مكان آخر.

الهواء الخريفي يدخل من الباب ويمرُّ إلى الاتجاه الآخر، يبرِّد جبهته النديَّة بالعرق، يستيقظ كل لحظة على صوت بكاء أطفال، ينهض وقلبه يكاد يقفز من صدره، وتتلصص عيناه في الظلام، يبحث عن الأطفال ولا أحد.

هكذا طوال الليل، يطارد الكوابيس ويشتبك معها، يشتبك مع مخلوقات غريبة، يسقط في النوم وقبضته مغلقتان وأسنانه تطقطق، كأنها تتكسَّر ويبلعها، حتى سمع الأذان.

خاله المبروك لم يعطس عطسة واحدة خلال الرحلة كلها ولم يسعل، ولم يكن غريبًا، فلطالما اعتبروه من المرابطين وقد كان الوحيد بينهم الذي يداوم على صلاة الأوقات.

المبروك سعيد الجبالي

هو الابن الأكبر لسعيد الجبالي، من مواليد 1887، جاء بعد ابنتين، ماتتا قبل بلوغهما الشهر، أمه ذهبت إلى قبر ولي صالح وهو في أحشائها، بكت كثيرًا وأخذت من التراب ونثرته على مقدمة رأسها وبلعت منه حفنة، جاء إلى الحياة أبيض البشرة ممتلى الجسم وكفاه كبيرتان، علقت في رقبته الأحجة، وبعد شهرين سُمي المبروك.

ضخم الجثة لكن تلك الضخامة كان خلفها قلب دافئ.

يقوم للصلاة قبل بلوغها يتوضأ ويقف على حجرة مرتفعة، يتَّجه إلى القبلة ويرفع الأذان، وحده صوته يخترق الفراغ، يعبر سرب صغير من الطيور على مقربة منه، يجلس في المكان الذي اتخذه مسجدًا، يخرج مسبحته الطويلة بلون الفحم، بعد مرور الوقت يقف ويلتفت لعلَّ أحدهم يمرُّ ويصلي معه،

كانوا يراقبونه من بعيد.

بعد أن يفرغ من صلاته يصبُّ عليهم اللعنات بأعلى صوت ويبصق: "كيف لا تشكرون الله على نعمة وجودكم!".

خرج المختار، أخذ إبريقًا من الماء البارد واقتعد حجرًا وتوضأ، دقات قلبه الفزع تقل مع الوقت، بعد أن انتهى مسح وجهه بكمّ قميصه وجلس وراء الرجل الخمسيني، بعد قليل قام وصلى ركعتي الفجر، خاله طلب منه أن يقيم الصلاة، كلما أغمض عينيه رأى الأطفال وأمهم، لم يشعر إلا وخاله يطلق السلام، يتحرّك بلا روح، عاد إلى خيمته دون أن يقول حرفًا واحدًا، وجلس خاله يتلو بعض التسبيحات والأوردة، حفظها من كتاب سميك أصفر الورق، معنون بلون الذهب "سفينة البحور" كتاب لتوسُّلات وتضرُّعات وتسبيحات وأقوال جمعت من كلام الشيخ عبد السلام الأسمر، صاحب أكبر مزار في البلاد، هذا الكتاب يعد مقدّسًا عند المشايخ، وصّى عليه أحد التجار المارين إلى طرابلس، يحتفظ به في قماش أزرق مزركش. نهض بلقاسم من نومه على رائحة الخبز الطازج الآتية من الخارج، كانت زوجته نشيطة هذ الصباح، أخبرها في الليل عن عودة الركب، طلبت منه أن يحضر والدها، خاله عبد الله، تحدّث معها عن المرض والمخاطر، سيذهبون صباحًا إلى خيمة السينيور جيوفاني حيث سيحضر الطبيب من القرية، ويعطيهم المصل المضاد وسيدأوم على الحضور إلى الكرنيتينا التي أقاموها.

دخلت وهي تضرب الأرغفة الساخنة ببعضها فيسقط الرماد منها، وضعتها أمامه وأحضرت الإناء الصغير وسكبت الزيت من الغالون الحديدي، التفت

ناحية الأطفال الذين لا يزالون في النوم، أمسك بالرجيف وأخذ من أطرافه قطعة وغمسها في السائل الأخضر اللامع وقذفها إلى جوفه، عادت زوجته بإبريق الشاي الذي تتصاعد من فوّهته الأبخرة الدافئة في هذا الصباح الخريفي، جلست أمامه ومدّت يدها إلى الخبز، نظر في عينيها وفكّر ماذا سيحدث لو أنه ذهب مكان المختار ذلك اليوم؟

بنغازي (مقتطف من رواية)

صلاح المنصف

ترجمة: ميرنا فكري صبحي حنا

توفي والدي إثر أزمة قلبية في الخامس والعشرين من مارس، عام 1939. كان عمه هو أول من عثر عليه ميتاً - ذلك الرجل الذي كنا جميعاً ندعوه "العم إبراهيم". كان قد مرَّ بمخزن البيع بالجملة الخاص بنا للدردشة، فعثر على أبي في إحدى غرف التخزين، منهازاً وملقى على وجهه فوق أحد أكياس القهوة. لقد توفي أبي بعد أربعة أيام من إتمامي لعامي الثاني عشر، وهكذا فقد وجدت نفسي يتيمةً في نفس السن التي تيتّم هو بها. تم التخطيط لزفاف أختي زينب ليكون في صيف عام 1941. لم يعيش طويلاً لكي يسلمها بيده إلى زوجها. كانت هي في عامها الخامس عشر، وهو كان في الخامسة والأربعين.

حتى ذلك اليوم، كنا نعيش كعائلة بنغازية عادية قوامها المحبة الكونية، التسامح والمسالمة اللذين تميّزت بهما عقيدتنا (فنحن صوفيون في غاية التحفظ والالتزام الأعمى)، عائلة ما زالت قادرة على عيش حياة مسالمة وغير مضطربة، على الرغم من كل الأعمال البشعة التي قامت بها فاشية موسوليني في دولتنا. كنا نعيش آنذاك في شارع "مهدي"، ليس ببعيداً عن أجمل الموانئ وأروع سوق سمك في العالم، لا يفصلنا سوى بابين

عن إبراهيم مهدي، القناص الشهير، القائد الأسطوري الروحاني، والعم الذي أرسلته العناية الإلهية ليصبح بمثابة أبٍ لوالدي عندما تيّمَّ صغيرًا. وبحلول الوقت الذي بلغ فيه أبي عامه الخامس عشر، كان الاثنان بالفعل شركاء في التجارة، واسماهما مطبوعين بأناقة على قرطاسية وأغلفة المشروع؛ إبراهيم مهدي وأحمد خلدون. أدار الرجلان المستوردان شركة ناجحة من المبنى العثماني الذي أنشئ في القرن التاسع عشر، والذي كان يُلقَّب، بكل مودة "الحوت" - ذلك المتجر الضخم للبيع بالجملة القائم بشارع "شاشير"، والذي ورثه أبي وأمه عقب وفاة جدنا.

وبحلول العشرينيات، أصبح اسمَا الرجلين المسؤولين عن إدارة "الحوت" مقترنين محليًا بالبضائع المستوردة عالية الجودة، والمنتجات الغريبة الرائعة. وفي غضون بضع سنوات، تمكَّنَا من بناء سمعة مهنية فائقة، باستيراد القهوة من اليمن وإثيوبيا، والشاي من سيلان والصين، والتوابل والمنسوجات من كل مكان. كان أهم شريك تجاري لديهما هو ابن عم أبي "كريم أكرم"، تاجر استيراد وتصدير كبير ورئيس شركة مهمة كان يديرها من الإسكندرية، مصر.

في كل ربيع، كان أبي والعم إبراهيم يستأجران حافلة من المنطقة التعليمية ببغازي، ويقومان بتحميل إحدى شاحنات الشركة بالطعام ولحم الشواء، ويصطحبان عائلتي "مهدي" و"خلدون" إلى الجبل الأخضر؛ للتنزه وإقامة حفلة شواء في مدينة "قورينا"، المدينة اليونانية الرومانية القديمة التي تقع بالقرب من مدينة "شحات" حاليًا. ما زلت أحتفظ بأعذب الذكريات عن تلك النزاهات التي قضيتها مع إخوتي وأبناء عمومتي في ثلاثينيات

القرن الماضي. كان آباؤنا يسمحون لنا -نحن الأطفال آنذاك- بلعب الغمّيزة في المعبد، والركض وسط الأطلال والتماثيل القديمة. كنا نلعب بإعطائهم أسماء وسمات شخصية من مُخيّلاتنا. كانت "الصيادة الوحشية" هي المفضّلة عندي، امرأة رخامية مقطوعة الرأس برمح يستند إلى خصرها الأيمن، وأصابع يدها اليسرى متغلغلة في لبدة أسد مهزوم تحت قدميها. كان أحد أهم الأنشطة التي نقوم بها في نزهاتنا تلك، طقسًا عزيزًا على قلب العم إبراهيم: زيارة مَنْحَل مترامي الأطراف يديره راعٍ صوفي، كان دائمًا ما يرحب بالعائلتين بحفاوة بالغة، مُعاملًا عمي كما لو كان بطلًا قوميًا. وبجلوسهم معًا، كان الرجال الثلاثة يستذكرون ذلك التقليد القومي الشامخ، الذي يُعبّر عنه بكلمة واحدة متداولة بين البنغازيين المعتنقين لنفس العقيدة: "الولاء"، ذلك الالتفاف المصحوب بالبقاء، الذي كان علامة ولائهم الراسخ لـ"عمر المختار"، أبي الحركة المناهضة للفاشية في ليبيا، أسد الصحراء الذي قاتل بشرف حتى الرmq الأخير، حتى يوم إعدامه في 16 سبتمبر، 1931. وبعد ذلك كانوا يتوجّهون إلى كوخ طيني، بناه الراعي السيراني، لبييعهم ما عنده من أفضل أنواع العسل، بما في ذلك الأنواع البرّية النادرة والباهظة الثمن التي تُحصّد من الأشجار.

..

كان شعار "الولاء" يمثل لنا -نحن معشر عائلة خلدون- أكثر من كونه رمزًا سياسيًا، فقد كان أيضًا أسلوبًا عقائديًا، وممارسة يومية ساعدت عائلتي على التكاتف والحفاظ على وحدتها في وجه تلك الأيام العصيبة. وقد تمكّن شعار "الولاء" المغروس فينا من إحكام الوثائق بيننا تحديدًا لأننا

تعلّمناه بالاقتداء، حيث كان أبي وأمي متمسّكين به للغاية في علاقتهم معًا. فعلى سبيل المثال: كان للـ"الولاء" دور كبير في بقاء والديّ مترابطين عندما تعلّق الأمر بطريقة تنشئة بناتهما؛ بمساعدتهما على توحيد أهدافهما، على الرغم من الاختلاف الشاسع بين رأي كلّ منهما بشأن تعليمنا، حيث لم نكتشف -أنا وإخوتي- هذا التباين الهائل بين رأي أبي وأمي في هذه المسألة إلا عندما كبرنا، فأمي نشأت في عائلة تؤمن إيمانًا وثيقًا بالمساواة في تعليم الفتيات، فقد كان آل أكرم، كالعديد غيرهم من أفراد العائلات التركية الأرستقراطية في الإسكندرية، متمسّكين بالعقائد العلمانية الكمالية بقوة.

أما بالنسبة لأبي فإن اعتناقه للصوفية جعل منه رجلًا تقدميًا سابقًا لعصره بالنسبة لرجلٍ ليبيٍّ من جيله، إلا إن سياساته المناهضة للفاشية كانت تمثل إشكالية كبيرة، ونظرًا إلى أنه تم إخفاء معتقداته السياسية، بشكل رسمي، عنّي أنا وزينب، فلم نُسكّ للحظة في أنه يمكن أن يكون قد شعر بذلك الامتعاض الشديد لالتحاقنا بـ"مدرسة موسوليني"، أو أنه حبّد أيما تحبّيد أن نتلقّى تعليمًا منزليًا، بالإضافة إلى درس اللغة الإنجليزية الذي كنا نحضره أسبوعيًا في نادي الكتاب المحلي مع زوجة صاحب مطعم مالطي، ولكن -وفي مرحلة متقدمة جدًّا من حياتها- أخبرتنا أُمّي أن الشكوك كانت تساورها بأن أبي قد استاء منّا -أنا وزينب- لحصولنا على تعليم فاشي، حتى على الرغم من حرصه على الظهور مع أُمّي برأي مُتّحد، ولكن أمام الضرورة المُلحّة تلك الأيام، لم يكن هناك مجال متسع للشكوك، فقد ساد "الولاء" على كل شيء آخر.

وكان أيضًا بدافع "الولاء" أن كرّست نفسي لتقبُّل فتوى أبي، بغتةً وبدون أي مقدّمات، بأن زينب كانت الابنة ذات الشخصية القوية، وأنا كنت ذات القوة البدنية والتحُمُل.

أتذكّر بوضوح شديد تلك اللحظة من حياتي تحديدًا: كنا في شتاء عام 1936. كانت لحظةً من الانتظار، في خوف، وفي أمل؛ لحظةً من رهبة الترقُّب المتبوعة بالِّم غامض لم يترك لي خيارًا سوى الاحتفاظ به في صدري، لا سيما أنني لم أكن أعرف كنهه. كنت قد شارفت على التاسعة من عمري، وكنت قد طلبت من أمي قبلها أن تسمح لي بمرافقة زينب في جولاتها حول الربع، لدعوة السيدات من حيِّنا إلى حفلات الشاي التي كانت تعدها. كانت زينب دائمًا ما تقوم بجولاتها تلك في يوم الأربعاء، يوم عطلتنا الأسبوعية من المدرسة.

"سوف أتكلّم مع أبيك بهذا الشأن" قالت لي، "فهو من يقرّر هذه الأمور". وعلمت القرار بعد ذلك بعدة أيام، فور رجوعي من المدرسة. أذكر أنني كنت أقترّب من بيتنا سالكةً الزقاق الخلفي عبر الباحة الخلفية، كالعادة. فتحتُ الباب المُفضي إلى الفناء، ورأيت الخالة منى واقفةً تسحب بعض الماء من البئر الموجود في الجهة المقابلة، بجوار الجدار الحجري الفاصل بين بيتنا وبين المبنى الملحّق الذي قمنا بتأجيرِه. أنزلت الخالة دلوها عند رؤيتي. قطعَت الفناء باتجاهي، وأخذت بيدي وقادتني نحو النافورة القائمة في المركز. كنا في فصل الشتاء، ولم نكن نقوم أبدًا بتشغيل النافورة خلال الأشهر الباردة، ولذلك فقد جلسنا على حافة الحوض. أذكر لهائي والعرشة التي أصابتني عندما أحسست بوخزة الرخام البارد أسفل تنوّرتي. أحكمتُ

لف ردائي حول خصري وعدت للجلوس مجدداً.

أمسكت بيدي مرةً أخرى، وجلسنا في صمتٍ لبرهة، ولكن بمجرد النظر إلى وجهها، استطعتُ فهم الأمر برمّته بدون تبادل كلمة واحدة معها. كان يعلو وجه الخالة منى تعبير كئيب كالظلال الباردة التي تعلو الجدران المحيطة بنا. كانت حدقتها المتسعان تشبهان قرصين من العقيق يتوسّطان عينيها العسليتين، واتخذت بشرتها العاجية المتوهجة ظلًا فاترًا من الرمادي الشاحب. ولولا غطاء الرأس المليء بالألوان، لحسبتُ للحظة أن مدبرة منزلنا الجالسة أمامي هي امرأةٌ في فترة حداد، في قلب ذلك الصمت المُقبض.

عندما بدأت في الحديث، كانت كلماتها ثقيلة -وربما خجلة قليلاً أيضاً- كما لو كانت تكشف عن سر شخصي تشمئز من فكرة مشاركته معي. "طلبتُ مني السيدة نور أن أخبرك. أبلغها أحمد باشا بقراره هذا الصباح". صمتت الخالة منى لبرهة، وأبقت عينيها مثبّتين على وجهي، ويديها محتضنتين ليدي، ووجهها ملطخاً قليلاً بالكحل. "أعلم أنكِ محبّطة"، تابعت، "ولكن، يا حبيبتي، أبوكِ يعرف طبيعتك كظهر يده. وهو مُحقٌّ عند قوله إن العمل خارج المنزل مناسب لكِ. فأنتِ، على حسب قوله، تملكين قدرًا كبيرًا من التَّحمُّل والقوة. هذا هو ما قاله للسيدة أمكِ؛ التَّحمُّل والقوة. فالعمل معي في الفناء، على حدِّ قوله، سيساعدك على التخلُّص من طاقتك الزائدة عن الحد، وأنا أثق بذلك تمام الثقة. لقد رأيتُ أن هذا الأسلوب يصنع معكِ العجب، يا مريم. كما يقول أحمد باشا أيضاً أن العمل خارج المنزل يجعلكِ تنامين بشكل أفضل عندما تأتيكِ تلك النوبات

..... ذلك الأرق الذي يصيبك“.

لا بد أنني بدوتُ أمام نظراتها المُمحّصة كمن أصابته النكبة، أول مرة أذوق فيها الشعور المُر بالرفض. همّت الخالة باحتضاني بين ذراعيها، ولكنني تملّصتُ منها: “دعيني وشأني”، تمتمّ بين طيات جلبابها عندما حاولتُ جذبني إليها. كانت دموعي، هي الأخرى، بدأت تنساب مني، ورغبتُ أن تنتهي تلك اللحظة.

قرأتُ الخالة مني أفكارٍ في الحال.

“اتبعيني إلى غرفة الغسيل“ قالتُ وهي تهّمُ بالوقوف. “فلنصعد إلى سطح المنزل. يمكنك أن تقرئي لي واحدًا من كتبك، أو بإمكاننا مدُّ بصرنا لمشاهدة البحر، سيجعلك هذا تشعرين بحالٍ أفضل بكثير“.

ذهبتُ لتلتقط لوح الغسيل الموضوع بجانب باب المطبخ.

“اتركي حقيبتك هنا، وهيا بنا“ قالت مبتسمةً، متأبطّةً لوح الغسيل. “لا يزال الوقت نهارًا بالخارج، سيكون بإمكانك رؤية القوارب الجديدة وهي تُسحب إلى داخل الميناء. أنتِ دائماً تحبين مشاهدة القوارب!“.

لا أتذكّر بوضوح ما حدث بعد ذلك على الدَّرَج بالخارج، إلا أنني أذكر أن الخالة مني كانت تسبقني بدرجتين على السُّلم أثناء صعودنا، وعند لحظةٍ ماء، تذكّرتُ الدلو الذي تركته عند البئر.

“يا إلهي! لقد نسيْتُ الدلو“. قالت وهي تغير اتجاهها، صافعةً إياي بقوة على فمي بزاوية لوح الغسيل التي كانت تمسكه، فترنّحتُ جانبًا ووقعتُ إلى الخلف باتجاه الدرابزين. كانت الصدمة قاسية لأبعد حد، ولكنها كانت

أيضاً مفاجئة للغاية، وكنتُ بحالة من التشوُّش لم تسمح لي بالشعور بالألم في بداية الأمر، ثم نظرت إلى الأعلى ورأيت نظرة الهلع على وجه مدبرة منزلنا، وفي الحال امتدَّ رعبها ليشمل كياني بأكمله - إدراك أن شيئاً في غاية البشاعة قد حدث. رأيتُ قطرات من الدم تقطر على ردائي، مستريحة لبضع ثوانٍ على نسيج الصوف الأسود، كخرز مسبحة مرجاني اللون. وضعتُ أصابعي على فمي، وعندما أبعدتها كانت مُلَطَّخة.

ما أذكره تالياً هو صوت ارتطام لوح الغسيل على درجات السلم، والخالة منى جاثيةً على ركبتيهما أمامي، فاردةً ذراعيها على جانبيّ، ممسكةً بالسياج، ووجهها قريب جداً من وجهي إلى درجة أنني شممتُ رائحة المستكة في أنفاسها، ورأيتُ شرائط المسواك الرفيعة بين أسنانها العاجية النظيفة.

”أرجوك، بحق الله“، توسّلتُ، ”قولي لهم إنك تعرّرت على درجات السلم! سينتهي أمري إذا قُلت أنني أنا من صفعتك..... ستكون نهايتي.... عوض سيقتلني!“.

لا أستطيع أن أتذكر بالضبط ما إذا كان الألم هو ما أثار دموعي أم منظر عذاب الخالة منى، ولكنني أعلم على وجه اليقين أنه عند لحظةٍ ما، تركتُ نفسي أجلس، لاصقةً ظهري بالدرابزين، وأبكي، محاصرةً بين ذراعي مدبرة منزلنا الممدودتين بينما يزداد وجهها قرباً من وجهي، بينما أراه يكبر أكثر فأكثر، وبينما يزداد التواءً وعذاباً. وقبل أن يمضي الكثير من الوقت، كنت قد شرعتُ في الأنين بألمٍ وعجزٍ وأسى، كما لو أنني تحرّرتُ، عن طريق تلك الإهانة الفائقة الأخيرة، لأنوحَ بأسى وبكل ما أوتيتُ من قوة على الجملة المشؤومة التي نزلت عليّ كالصاعقة عند النافورة.

”أتوسّل إليك، أرجوكِ قلولي أنك تعثرتِ ووقعتِ من على السلم، وإلا سيقتلني عوض. لن يسامحني الله أبدًا على ذلك، أعلم هذا، ولكن أرجوكِ أظهرِي رحمةً نحو خالتك مني. قلولي إنكِ تعثرتِ ووقعتِ من على السلم، أستحلفكِ بالله! سأعوّضكِ عما حدث، أقسم لكِ بذلك، سأعوّضكِ مائة مرة“.

لا فكرة لديّ عن المدة التي قضيتها هكذا؛ أبكي وأنتحب بهدوء ملصقةً ظهري بالدرابزين المعدني، ووجهها الدامع الملطّخ بالكحل قريبٌ من وجهي، ولكن في النهاية، استطعتُ أن أتمسّك بمغزل عامودي في الدرابزين وأرفع نفسي لأعلى. نهضتِ الخالة مني، وتنحّت جانبًا لتفسح لي مجالًا للوقوف، وتركتني أعود أدراجي إلى البيت، متدحرجةً بجانبني على السلالم، ومائلةً عليّ مع إبقاء ذراعها مفتوحتين حول جسدي في محاولة لحمايتي، كما لو كنتُ سأتعثرُ في أية لحظة وأسقط على وجهي. كنتُ ما زلتُ أبكي، ربما ليس بكثيرٍ من الألم، ولكن بقلبٍ مفطور، كما لو كانت تلك الضربة لها صلة مشؤومة وغامضة بذلك التصريح المصيري الذي نطق به أبي.

وفي النهاية كان عليها أن تتركني أمضي وحدي، متخلّفةً عني بخطوات بسيطة، وهي لا تزال تلعن نفسها وترجّاني أن أقول إنني أنا التي وقعت وحدي.

كان علي هو أول من رآني. كان في المطبخ، وأذكر أنه كان يأكل قطعة حلاوة مغلفة: شطيرةً كنا نسُميها بشغف في ذلك الوقت ”عروسة“ – بمعنى ”دمية“ أو ”جميلة“. أسقط ما كان يأكله وخرج راكضًا من المطبخ مناديًا على أمي بعلو صوته.

”يا الله!“ صاحت أُمي عندما رَأَتني. ”ما الذي حدث لك؟“.

”لقد سقطتُ وأصبْتُ فمي“. قلتُ كاذبةً، والتفتُ نازرةً إلى الخالة منى لتؤكِّد كلامي، والوجع في شفتي صارخ كما لو سرى فيه تيار كهربى كوجع الأسنان، والزاوية السفلى لفمي تحترق ألماً. هذا هو الثمن الذي عليّ دفعه مقابل التفوُّه بالأكاذيب، فكرتُ، وفطنتُ لحظتها أنه سيتحتَّم عليّ الكلام بدون أن تتلامس شفتاي، إذا أردتُ أن أتجنَّب المزيد من الألم.

”كنتُ صاعدة إلى غرفة الغسيل مع الخالة منى، ووقعتُ على وجهي أثناء ارتقائي السلام“.

لن أنسى أبداً نظرة الامتنان التي علَّت وجهها بينما كان فمي الممزَّق ينطق بتلك الكلمات؛ مستنشقا ومُتمتِماً إياها بطريقة خرقاء. لقد كذبتُ لأجلها، بدافع ”الولاء“ الأعمى، وتأثَّرتُ هي لذلك جدًّا لدرجة أنها شرعت في البكاء مجدِّداً.

”أشعر باضطرابٍ شديدٍ، يا سيدتي. يا له من أمرٍ مُروِّع أن أرى عزيزتي الصغيرة مريم تتعرَّض لأذى“.

”دعيني أرى فمك تحت الضوء“. قالت أُمي، وعيناها ما زالتا مثبَّتتين عليّ بعبوس، وكأنها تجد صعوبة في استيعاب قصتي.

خطونا خارج باب المطبخ إلى المنطقة التي كنا نسميها ”الردهة“. في بيتنا، لم تكن تلك المساحة بهواً اعتيادياً للمدخل، بل بالأحرى كانت مساحة معمارية هجينة بلا اسمٍ محدَّد، وُضعت في موقع وسطي بين منطقة (صالون الرجال) المُحرَّمة، والغرفة الكبيرة متعدِّدة الاستخدامات التي

كنا نسميها (غرفة الرسم الخاصة بالسيدات). لم تكن تلك الردهة ذات الاسم العجيب تفضي إلى النطاق الخارجي لبيتنا، وهي مساحة محكمة الإغلاق يمكن الوصول إليها فقط عبر أبواب الحجرات الثلاث الملاصقة لها: المطبخ وغرفنا الرسم المنفصلتان. وهناك أيضًا السلالم المُفضية إلى غرف النوم الخاصة بنا بالأعلى، مع ثرية كريستالية تتدلى فوقها، وهي مصدر الضوء الذي كانت تقصده أُمي. أشعلت أُمي مصابيحها وأجلستني عند أسفل الدرج، ثم طلبت مني أن أميل برأسي إلى الخلف وهي تمسك بذقني وتجذب شفتي السفلى لأسفل بإبهامها.

”أها لهو هقرة، لو تعلمين!“ صرختُ.

”اصمتي!“ همست أُمي. ”أختكِ مريضة بالأعلى. والآن أنتِ. ستظهر كدمة كبيرة على ذقنك لفترة، ولكن شفتيكِ... لم يصبها شيءٌ يُذكر، لقد انشقتُ شفتك السفلى قليلًا. ليس شيئًا لا تستطيع فتاة قوية مثلك أن تتحمّله. سنذهب إلى المستوصف فورًا. سيقومون بتقطيعها لكِ“.

أنا لستُ بقرة، لو تعلمين! كان هذا ما كنتُ أحاول قوله، ولكن مع خوفي الشديد من أن تلامس شفتي بعضهما، خرجت الكلمات من فمي خليطًا من فوضى غير مفهومة. ”أها لهو هقرة، لو تعلمين!“ كرّرتُ.

”ماذا؟“ قالت أُمي هاتفةً متعجّبة، ”يجب أن تتوقفي عن استنزاف الجرح إلى أن نقطبه لكِ، مفهوم؟“.

عند سماعي لأُمي تتفوّه بهذا الكلام، لم أستطع أن أتمالك نفسي: خرج الرد مني تلقائيًا مدفوعًا بشيء من التهكُّم والرعونة، مما أخافني وأثارني في

الوقت ذاته. "ها عهيك - هقد كان يُستهزه طيهه هترة الظهيرة." أجبتُ، متعمّدةً أن أبالغ في تشويهه نطقي للكلام. لا عليكِ، فقد كان يُستنزف طيلة فترة الظهيرة، كان هذا هو ما قُلته ولم أقُله في ذات الوقت، شاعرةً بالعزاء والمتعة لإدراكي أن بإمكانني الآن أن أتخذ من إصابتي سلاحًا سرّيًا، أن أفلت من عواقب إخبارها بما كان يدور في رأسي منذ أبلغتني الخالة منى ذلك الخبر المروّع بجوار النافورة.

لَقْتُ أُمي عينيها. تجاهَلتُ كلامي وَخَطتُ خلفي، واستدرتُ أنا مع رعشةٍ غامضةٍ من الترقُّب. كانت هناك كُوةٌ بحجم حجرة صغيرة محصورة بين الدَّرَج وغرفة الرسم الخاصة بالسيدات، وكانت تُستخدَم كخزانة صغيرة مفتوحة، حيث كان بها رفٌّ عالٍ لوضع الشمعدانات ومخزوننا من الشموع، ويوجد أسفله حامل مُثَبَّت في الجدار لتعليق معاطف السيدات اللاتي كنَّ يأتين لزيارتنا. وكان هذا الرف هو أيضًا المكان الذي تضع عليه أُمي محفظتها؛ محفظة جلدية بسوار ذات لون أخضر قاتم، كانت تحتفظ فيها ببعض المال للنفقات اليومية. مدَّت يدها لتلتقطها، فتحتها، وسحبت منها بعضًا من الإيصالات والعملات الورقية. أَلَقْتُ نظرة على الإيصالات، قامت بعدَّ العملات الورقية، ثم وضعت كل شيء في حقيبتها، مما كان يعني شيئًا واحدًا: أنها سترافقني إلى المستوصف.

"ابقيا أنتما هنا مع ولدي". قالت أُمي، موجهةً الكلام للخالة منى وعنتر عندما وصلنا إلى المستوصف الذي كان يقع أمام مدرسة "جيوفاني جنتيل" للمرحلتين الابتدائية والإعدادية، حيث كنا ندرس أنا وأختي.

ثم دخلنا معًا إلى المبنى، وفورًا بدأت أعصابي مفرطة الحساسية وأنفي

شديد التحسُّس بإبداء رد فعل عنيف تجاه رائحة الفورمالين، إلى درجة جعلتني أترنَّح وأبدو سقيمة. كنَّا بالكاد قد دخلنا إلى الرواق، ولكن شعورًا بالخوف الغامض كان قد غمرني بالفعل.

“أهجوِك يا أهي” توسلْتُ، “أها هريضة ها أستطيع هواصله السير”. وبالفعل، كنت بدأتُ أدفن وجهي بين طيات معطفها، جاذبةً إياه نحوي في محاولة بائسة لحجب نفسي عن الرائحة المعدنية العفنة والمنظر العاري لهذا المكان، بإضاءته الصارخة وقسوة جدرانه البيضاء الصادمة.

“هيا يا طفلي” توقَّفتُ أُمي وتجادلت معي بلطف. “إذا لم نتعامل مع جرحك هذا الآن، ستتشَوَّه شفتك بندبة قبيحة لبقية حياتك. عليك أن تتحلَّى بالقوة يا صغيرتي، وسينتهي كل شيء في غضون دقائق قليلة. صدقيني يا حبيبتي، سينتهي الأمر سريعًا جدًّا”.

كنت لا أزال غير متجاوبة، لا أزال متعلقة بمعطفها كما لو كان ستارة، في محاولة لإخفاء وجهي. وعند ذلك الحد، قرَّرتُ دفعي بالقوة إلى الداخل. وضعت أُمي ذراعيها حول كتفَيَّ وقادتني نحو غرفة انتظار صغيرة، كانت فارغة بدورها وتفوح منها رائحة كحول أقوى من التي كانت في الرواق.

“انظري إليَّ يا طفلي” قالت أُمي فور جلوسنا. “هيا الآن بربك، انظري إليَّ. أنتِ تريدين الانتهاء من هذا الأمر برمته، أليس كذلك؟”.

كنت أجلس بميل في كرسيٍّ، وأنا لا أزال ممسكةً بمعطفها، مشمئزَّة من صدمة المكان. ضمَّمتُ رأسي بيديها ذات القفازات، ورفعته برويَّة ولكن بقوة وثبات حتى تلاقت أنظارنا، بعينيها الزمرديتين الشاخصتين لأسفل

نحوي بنظرة حزن أكثر منها عزيمة وتصميم؛ ووجهها البضاوي المَحَوَّط بعناية بغطاء رأس فضي- رمادي قابل للانزلاق، بدون أن تضل خصلة واحدة من الشعر العسلي- الأشقر طريقها خارجه. كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي أتملّى فيها من طلعة أُمي بإحساس من الانفصال عن الواقع، وعلى الرغم من كم البرود العاطفي في تلك اللحظة وفي ذلك المكان، فإنني لم يكن بوسعي سوى أن أجد شيئاً من السلوى الغامضة في الجمال الأخّاذ لتلك المرأة التي حملتني في أحشائها وقامت بتربيتي: وجهها المرمري المثالي المُتناسق، الحمرة الخفيفة على خديها، رَفَعَة الحزن على حاجبيها الرمليين.

”أنتِ تريدين الانتهاء من هذا الأمر برمته“ كَرَّرَتْ بنبرة مُلِحَّة ولكن ليست بقاسية، والحزن ما زال بعينيها. ”هل أنا مُحَقَّة؟ أجيبي الآن.“

”نعم يا أمّاه“ أجبتُ، مدركةً بغريزتي أنه من الأفضل لي أن أقول لها ما تود سماعه.

”حسناً إذًا. هناك شيءٌ واحدٌ فقط يجب عليكِ عمله، إذا أردتِ الانتهاء من الأمر سريعاً وبدون ألم. بمجرد أن يأخذوكِ إلى الداخل ويطلبوا منك الجلوس، احرصي على إبقاء عينيك مغلقتين حتى ينتهوا. عِدْني بأن تفعلي ذلك يا حبيبتي، وسيكون كل شيء بخير. أُنْعِدْيني؟“.

ومرةً أخرى وجدتُ نفسي مضطّرة إلى أن أجيب أُمي بما تود سماعه. وعدتها، ولبرهة شعرتُ بارتياح وبأنني لم أعُد ضعيفة.

ثم دخل أحد المُنظّمين إلى الغرفة، ووجدتُ نفسي أعود مجدداً إلى

الشعور بذلك الخوف الجليدي الذي انتابني في الردهة. كان المُنظَّم يبدو كأَي رجلٍ غريبٍ يمكنني مصادفته بين الفينة والأخرى خارج المستوصف؛ رجلًا صقليلًا، هزيلًا، شره التدخين، وبشرته مصبوعة بلون التبغ، يرتدي معطفًا أبيض كبير المقاس، وشعرًا ممشَّطًا بحيث يداري صلعته، ونظارة قاع كأس تحجب نظراته وتضفي عليه، بصورة مُضلَّلة، مسحةً من الخبث، ومعظم جسده غير قابل للتمييز بالمرة تحت ذلك المعطف الأبيض غير الملائم له.

عندما لاحظ ذلك المُنظَّم الهلع البادي على وجهي، ابتسم لي ابتسامةً عريضةً مصبوعة بلون القهوة والتبغ، مما زاد من شعوري بالدُّوار والاضطراب، ثم نادى على إحدى الممرضات الإناث، اسمٌ مصريٌّ، لحظي السعيد.

”رتيبة!“¹ قال صارخًا تقريبًا.

”هذا أفضل، فلنُحضِر ممرضًا منظمًا حقًّا – هذا ما أحتاجه الآن بالضبط.“
همستُ بتلك الكلمات باتجاه أمي، بهدوءٍ وبلاغةٍ شديدين على قدر استطاعتي، على الرغم من معرفتي الأكيدة بأن فمي سيؤلمني.
لم تستطع أمي أن تتمالك نفسها، وانفجرت في نوبة من الضحك نصف المكتوم.

”أنتِ ونكاتك الغريبة!“ هتفت بتعجُّب، محاولَةً أن تبدو معارضة، وأن

1 . في اللغة العربية، كلمة ”رتيبة“ تُعبر في نفس الوقت إما عن اسم شخص، أو الصيغة المؤنثة من الصفة ”منظم“ أو ”مرتّب“.

تحفظ ماء الوجه أمام ذلك الرجل.

المزيج بين المتعة المصاحبة لتلك النكتة والألم الحارق في فمي، جعلني أشعر ببطولتي فجأة، شعورًا مقاربًا للابتهاج. وفجأة أدركت أنه، سواءً بإلقاء النكات أو لا، إذا كنت أستطيع أن أثير ضحك أمي في هذه الظروف، فبال تأكيد يمكنني أن أسير مع رتيبة إلى غرفة العمليات المروعة لأواجه مصيبتني وحدي.

بعد عودتنا إلى غرفة الانتظار، أعطت أمي بقشيشًا لرتيبة وتفقدت الأقطاب، ممسكةً بذقني بين إصبعيها الإبهام والسبابة، متفحصةً لحرفة يد الممرضة بدقة، بنفس العبوس النقدي الذي كان يظلل وجهها عندما تشرف علينا في إنهاء واجباتنا المدرسية في البيت.

”شكرًا لك، يا ست رتيبة. كيف حال جرحها الآن؟“ سألت، موجهةً نظرها إلى أعلى نحو الممرضة.

”كأنه لم يكن“ قالت رتيبة بصوتها الرنان، متشدقةً أثناء حديثها بقطعة كبيرة من علكة المستكة، ثم ناولت أمي قنينة يود، وعلبة صغيرة بها طبقات من القطن المكبوس. ”إنها أقطاب قابلة للامتصاص، لا حاجةً لأن تعودا مرةً أخرى. فقط لا تنسيا أن تطهّرا الجرح بانتظام. ولا تتأؤب بعد الآن في الفصل لمدة أسبوعين.“ قالت لي، قارصةً خدي بابتسامة خبيثة، وهي درجة من الألفة والمزاح لم تكن أمي في المزاج المناسب لتحملها.

”ابنتي ليست ممن يتشاءون في الفصول، ثقي بذلك. في الواقع، تكمن مشكلتها الحقيقية في السماح لنفسها بالانتقال إلى المقاعد الخلفية وأخذ

قسط من الراحة بين الحين والآخر. وداعًا أيتها الممرضة“.

وفي الخارج بساحة ”بيازاديل مونيسيبيو“، شعرت بسوط الرياح الباردة الرطبة، وانغمست فجأة في ذكرى تلك اللحظة المصيرية عند النافورة، وكأنني انفصلت وهُجرت في العراء. كنا نسير باتجاه العربية التي تجرُّها الخيول، ولا بد أن أفكاري الكثيبة قد انتقلت كالعدوى إلى علي، الذي كان يسير خلف أربعتنا مثيرًا هواءً فاترًا بائسًا. كانت أربعة أحصنة، أقوىاء أشداء قد رُبطوا إلى العربية، بينما وقف الآخرون الطلقاء ثابتين كالأحجار في لجامهم، متدثرين ببطانياتهم، ورؤوسهم محنية أمام الرياح الرطبة. حثَّتنا أُمِّي أن ندخل إلى العربية جميعًا، إلا إن أخي ظلَّ واقفًا بلا حراك بجوار الأحصنة العاطلة، متجهمًا ومحملًا في الفضاء، وحاكًا كعبه بمساحة فارغة بين الحصى، شارِدَ الذهن.

هرعنا جميعًا إليه. ”ما الأمر يا بني؟“ سألته أُمِّي، وهي تنحني عليه في حُنُوِّ واهتمام لم تكن تظهرهما نحوي أبدًا. كانت كل الأعين على علي الآن. كنا نقف على بُعد ذراع من الأحصنة المستريحة، وكان الهواء من حولنا يعبق بحرارة أجسادها، والرائحة الحلوة لعرقها.

”تلك السلالم الحمقاء!“ أفشى ما كان يدور بخلده، وهو لا يزال واقفًا جامدًا ومتجهّمًا، يعاني كي يكبح دموعه ويرسم ملامح قوية على وجهه. ”خَرَّبَتْ وجه أختي كال.... كال... كالألعب النارية المعطوبة!“ كان صوته مرتعشًا ومختنقًا بالدموع. أصابه منظري وأنا أنزف باضطراب منذ البداية، إلا إن رؤيته لي الآن بالأقطاب لَهِيَ أصعب مما يقوى على تحمُّله. وُلِد علي في بداية شهر يونيو، ولم يكن قد وصل إلى عامه الثالث عشر في

ذلك الوقت، ولكنه كان دائماً ينظر إلى نفسه باعتباره أخي الأكبر، ويشعر بواجبه الصميم تجاه حمايتي. كان على شفا البكاء عندما تفوّه بتلك الكلمات، إلا إن أسلوبه في صياغة العبارة كان نابضاً بالحيوية إلى درجة أننا -نحن النساء- لم نستطع أن نتمالك أنفسنا، فانفجرنا جميعاً ضاحكين على كلامه، الصورة الوجيعة والمذهلة لعدم الجدوى التي يمكن للألعاب النارية أن تبدو عليها بمجرد أن تصير "معطوبة"، والأيام التالية لذلك قد أثبتت صحة كلامه، فقد تسببت تلك الشفة المُقَطَّبة في جعل فمي كله ضعيفاً ولا يمكن الاعتماد عليه، بغض النظر عن مدى محاولاتي للنطق بحذر وبشكل دقيق.

"آه، يا أخي" قلتُ له، "أنا حقاً عزيزة على قلبك، ألسْتُ كذلك؟".

"نعم، كثيراً!" ردّ. وكان صوته مرتعشاً بمشاعر ينفطر لها القلب.

"هيا، بربكما". قالت أُمِّي، وقد أُثِرت مشاعرها هي أيضاً. "غداً ستضحى تلك الحادثة ذكرى ليس أكثر، يا بنيّ. هيا لنكافئ أنفسنا ببضع قطع من شوكولاتة "بيروجينا" من مخبز "باتيسيريا تري ماري"، فحسبما أسمع، لا يوجد ما هو أفضل من الشوكولاتة لعلاج أي شيء، خاصة الشفاه المجروحة، بغض النظر عن مدى فداحة إصابتها".

كانت العربة التي تجرها الخيول -والتي صُمِّمت لتشبه "الحافلة البيضاء" الأمريكية في العشرينيات- ممتلئة بالفعل إلى حدّ كبير عندما استقللناها، فاضطررنا إلى الجلوس باتجاه مؤخرة العربة في منطقة المقعد الخشبي، إلا إن السائق استمر في إدخال المزيد من الركاب على أية حال، ربما حتى بعدد أكبر مما تستطيع العربة تحمُّله بأمان. فور خروجنا من ساحة "بياززا

ديل مونيسيبيو“، بدأ الضباب في التكاثر على النوافذ، وأصبح الهواء داخل العربة المُكدّسة ثقيلاً، رطباً، ومُعَبَّاً بالرائحة القوية للصوف الرطب والتبغ الفاسد. جلست الخالة منى بجانبني في مقعد مُطل على الممر. أدركتُ جذعي نحو اليمين، وانزلقتُ قليلاً، مريحةً رأسي على انحناء ذراعها، مستشعرةً نعومة بُرُسها الأمازيغي. ظننتُ أنني إذا انخفضت أكثر في جلستي، وضيقُ مجال رؤيتي إلى تلك المساحة الصغيرة بين جسدها المُتشح بالعباءة وإطار النافذة الخشبي عن يميني، لربما أصبحت قادرة على تجاهل الإحساس الخانق بوجود هؤلاء الركاب المُكدّسين من حولي، فلأحاول أن أتجوّل بنظري في الشوارع بالخارج.

في تلك الأثناء، كانت النافذة قد تحوّلت إلى لوح من الزجاج المتفاوت الشفافية، مُغطّى بطبقة غير متصلة من البخار الذي شوّه وغلّف الألوان الطبيعية لمناظر الشوارع المارقة بجانبنا أثناء عبورنا ”بريكولا – نيبولاس“؛ مغيراً من أنماط النقاط والقطرات، كالعمل المحموم وغير المكتمل لرسام قليل الصبر يرسم بالرداذ. توقّف السائق عند مكتب البريد الرئيسي، ووجدت نفسي ألعب لعبة: أقوم بتضييق عيني وإمالة رأسي قليلاً، وأنصوّر ذلك المبنى الكلاسيكي الحديث، الموجود في نهاية الزقاق الطويل المرصوف بالإردواز، واحدة من اللوحات المائية المشوّشة التي يمكنني أن أرسّمها بالاستعانة، على استحياء، بمساعدة أُمي. وفي وسط خيالاتي، تحوّل المبنى إلى لوحة مُحَدّدة بِرَقّة تُظهر قلعةً رملية نخرها المطر، وتآكل برجها التوأمان حتى تحوّلوا إلى نتوءات. صار الزقاق طريقاً مصنوعاً من مربعات العرق سوس؛ وتحوّل المرح المرصّع بالنخيل والصبار

والدفلى على جانبي الطريق إلى دغل ضبابي من الخربشات واللطخات،
بظلال متداخلة من الأخضر والبني والوردي.

تشاركت أُمي المقعد الذي كان أماناً مع علي. اعتدلتُ في جلستي عندما
استدارت لتُحدث الخالة منى، وشعرتُ فجأةً بحاجتي إلى الطمأنينة التي
يبثُّها ذلك الوجه المرمري، المتوهج بإشراق من فوق الإطار المعدني
للمقعد الرث - رغبةً ملحة، حزينة ووجدانية، بأن أنفرد بها في منزلنا، أن
أدفن وجهي في ظلال معطفها ذكيِّ الرائحة، في حضن ذراعيها الحاميتين.

ولكن في تلك اللحظة، عادت أُمي إلى طبعها العملي من جديد. كانت
عينها قصيتين ومظلمتين وجامدتين، بينما جلستُ نازرةً إليها وأنا ممثلةٌ
بالخواء والحنين الغامض. أمسكتُ بمظروف أبيض مستطيل الشكل من
خلال الحلقة المرتبطة بمسند الرأس المعدني. "أريدك أن تذهبي إلى
دار توتة"، قالت للخالة منى، "وتعيدي الخطاب إلى سكرتيرة السيد
فريبورج. أخبريها أن أحمد باشا قد قرأه، وأنه كلفك بإبلاغ المدير بأنه لا
يوجد داعٍ لخطاب توصية، فكلمة السيد فريبورج هي كل ما يحتاج إليه
كضمان. سنقوم بإخلاء المبنى المُلحق بمجرد أن يعطينا السيد فريبورج
خبراً باستعداد المستأجرين للانتقال والإقامة. أريد منك أيضاً الذهاب إلى
"نيكيفوراكيس"، فقد جُهزت الصور الفوتوغرافية التي يحتاجها أحمد باشا
لتصريح السفر. ها هو الإيصال. سننتظرك عند ساحة (بيازا كاجني)".

توقفت العربة عند ميدان السوق. نهضت الخالة منى، وأخذت عنتر مكانها
في المقعد. انزلتُ قليلاً في المقعد الخشبي ومددتُ رأسي نحو النافذة،
مريحةً ذراعي اليمنى على الجزء السفلي من إطارها. مسحتُ البخار

المتكاثف براحة يدي اليسرى؛ وقفت أشجار البرتقال الكاملة الحجم، المميزة لساحة سوقنا الخارجي المرصوفة بالقرميد الأحمر، مُشرقةً كعادتها دومًا في أخصها الخشبية. كانت أوراقها النظيفة لامعة كالعادة، والبرتقال أبو سرّة متوهجًا كالمصباح في أوراقه الزرقاء - الخضراء. أما وراء تلك الأصص المترصة بدقة، فكان يقع المشهد التقليدي المتنافر لسوقنا: المصفوفات الرائعة للأزهار والورود أمام محلات باعة الزهور، وأروع الفاكهة والخضراوات مُرتبةً بفن في الأكشاك وعلى العربات، تتألق ألوانها وتلمع في الأفق كظلال التُّحف البورسلينية الغربية ذات التأثير المنوم.

رأيتُ هيئة الخالة منى المتشحة بالسواد تقفز من العربة وتمتزج في زحام المتسوّقين، المرأة الوحيدة على الرصيف التي كانت ترتدي بُرُئًا، بوجهٍ كوجه "نفرتي" مشرقًا داخل القلنسوة السوداء. تحرّكت العربة بينما ظللتُ أتبع الخالة منى بناظري، وأراقب مدبرة منزلنا وهي تشقُّ طريقها وسط الحشد باتجاه الرواق المغربي، الذي كان يأوي المجمع التجاري المعروف محليًا بين البنغازيين باسمه الغريب "البازار الهندي"؛ وهو مجموعة من المحلات التجارية المناقضة تمامًا لـ "سوق الظلام"، أصدقاء أراضيهم الأسطورية البعيدة وتجاريهم العجيبة.

كانت مؤسسة السيد فريبورج؛ دار توتة، أو موليري؛ هي أول وأبرز متجر في البازار الهندي، وفي الواقع فقد كانت أرقى متجر يبيع المنتجات الفاخرة في مدينتنا. كان مالکها -والذي كنا نعرفه فقط بـ "السيد فريبورج - سيدًا فرنسيًا يهوديًا، هاجر أبواه إلى تونس عندما كان صغيرًا جدًّا. وكان يتحدث الفرنسية، والإيطالية، والعربية باللهجة التونسية اليهودية. سُمّيَ المتجر

تيمُّناً بابنته "ديبورا" التي كانت زميلتي في الصف، وكانت تُعرف بكنيتها "توتة". كان أبي يجري كل معاملاته المصرفية مع السيد فريبورج، متجنباً البنوك التابعة لموسوليني تمامًا. في تلك الأيام، كانت جميع التعاملات التجارية في بنغازي تتطلب دفْعاً نقدياً، وكان يجب على أبي، كغيره من رجال الأعمال المهمين في المدينة، أن يمتلك سيولة نقدية على الدوام، وقد حقَّق له السيد الفرنسي ذلك بطريقة سريعة وفعَّالة، وبأسعار منافسة للتي كانت تطلبها البنوك المحلية.

قطعت الخالة منى الرواق الموجود على جانب البازار المُطل على السوق، ودخلت من باب جانبي. تابعت العربَة طريقها وسط القسم المسقوف من "فيا بريكولا"، مروراً بالمدخل الرئيسي الخلاب لدار توتة، أشكال الأرابيسك المنحوتة يدوياً والمُزخرفة لقنطرتها ذات الطابع المغربي، الوهج الكهرماني لمصباحيه الأندلسيين المكسوين بالنحاس المتدليين أمام الباب بسلاسلهما الحديدية. عما قريب سندخل إلى "فيا تورينو" - سنكون على بعد دقائق قليلة فقط من روائع ساحة "بيازا كاجني".

عن المقرون والبرّاح، وشوق سيدي رافع

حسام الشني

برّاح:

يقولوله بو العكاكيز، شايب حسّه سمح وعالي، يطوف بين نجوع الحبس، ويبرّح. نا بيدي صغيرة ونّوعى على قدامه مربّطات بخرق ذابية يكركرن ف التراب والحصى. البرّاح يقول: من عبید الله من شاف رؤيا: (فارس، وطابور أجمال. البل باركه وجوها قباله سيدي رافع، وقدامها ثلب. والفارس يلهّد من ورا على فرس سمحة تقول ايش، وهو وين يقرب ينغز الثلب، يصبيّ الثلب ويمشي في قيسه، وهو يمشي ويتبعوه البل).

بشارة:

فيه مرابط أوّل الرؤيا قال: الفارس هو سيدي المهدي، والثلب هو سيدي عبد الرحمن العلواني. وأسّاع يجي فرج من ربي بجاه سيدي المهدي، يطلع سيدي عبد الرحمن العلواني من حبس المقرون هو لولي، ونتبعوه كئنا. استبشرو الناس خير وفرحو، التمو على البرّاح اللي ساند جنحانه بالعكاكيز، يباركوله ويباركو لسيدي عبد الرحمن.. بعد العصر، ماتت أختي الصغيرة. كي جنّ الصبايا يغسلنها، لقين اللوبان مازال بين سنونها.

أمي:

تقولي عيشة الدردفية: "خرفيني على أمي".. عيشة ما توعى شي على أمها. نقوللها أمك كانت سمحة مُحلاك صباح، تكحل هديها بليل طويل طول شعرها. وبوك يا عيشة أوزباشي استشهد ف الحرب. وكي قال الطلياني عيت العلواني يمشو للمقرون مع البراعصة والدرسة، وعيت الدردفي يمشو لسوسة. وفرّقو المنفى والقطعان والحبّون والعبيدات والعرفة والسلطنة والعبيد وعقاب لسلام في مطارج بين العقيلة والبريقة وسلوق وعقاب لحبوس. أمك كانت صغيرة ومترملة وكان عمرك دوبرع أعوام. شَيَاب أمك ما رضيوش أمك تمشي لسوسة مع هل دارها، وقالو بنتنا تنحبس معانا ف المقرون، وشيا بكم ما رضيوش بنت المرحوم ولدهم (أنتِ) تنحبس بعيدا عنهم، وقالو تمشي معانا لسوسه. عقاب فرّقو بينكن، كل حد حُدُّ بنته، ومشا للشرّ في قيسه.

عطش:

نوعى ع الطريق للمقرون، طابور بقرميت على حرف الطريق، ضلوع ذايب لحمها. ذبان يزن، وسنون كلب.

جوع:

”عطوني الحشيشة ناكلها“، يقولولي موش اليوم. نقول عطوني شاهي،
يقولولي الشاهي دوب لكبار. أختي الصغيرة بكت على لوبان في فم وليّة.
كي كثرت بكا نتت فيها وطوحاته لها: خذيه انعن سمّ.

برميسّو:

أمي صغيرة وسيدي باتي شايب كبير، بعد سنين شرّ رينا هن ف المقرون،
عطوه الطليان برميسّو يطلع للسوق. سافر لبنغازي وعقبنا ف الحبس.
لاقاه حد توسطله عند مسؤول طلياني، قاله هذا سيدي عبد الرحمن
العلواني قيّم سيدي رافع، شايب كبير بالك تعفيه وتعفي عايلته. ختمله
الطلياني برميسّو يطلعنا م الحبس، أختي الكبيرة (أختي من بوي) ما بتش
تطلع، قعدت مع راجلها وضناها في المقرون. طلعنا نا وأمي وباتي، بتنا
ليلة في بنغازي عند عرب أمهم خادم، تعشنا طبيخة بطاطا، أول مرة
نذوق البطاطا ولّا نعرفّا، لمباكر شدينا الرحيل لسيدي رافع. شهرين ولّا
ثلاثة جا فرج سيدي المهدي وطلعو كلهم، أختي الكبيرة اللي اعقبت ورانا
ما لحقتش ع الفرج.. ماتت في الحبس.

حرام:

بورجة حطوه الطليان مشرف، عطوه مركوب وبيت وثوب جديد جا عليه قصير، غير ذلوه العرب، قالو: يا بورجة كيف أمسيت/ مبروك حصانك والبيت/ غير علينا ما بدّيت/ وحتّى ثوبيك ما وقّيت.. بورجة واللي معاه يوزعو في الرسيوني، حصّة تموين أسبوعية، وكانو يضربو بالسوط ف العرب اللي مطوبرين شوط وكل حد شایل ماطارته، السوط ناش كراع بنت عمتي يامنة: نتت فيهم قالت: يا كلاب الشوط! كروها الطليان للتفتيش يادبوها.. وغصّبوها ع الحرام.

مودير:

أم حميده، عاشت طول عمرها في عز، تفرح بالضيف وتكبر بيه، عمرها ما ترد اللي يجيها. في عقاب عمرها في الحبس رق حالها، لكن ما مدّت ايدها لحد، تحطّب في عزّة نفس، تطنّب ظهرها على كبر سنّها وتقول: اطنّب يا ظهري للشيل/ ما عمرك ريت كوادير/ ولا ريت حميده مودير!

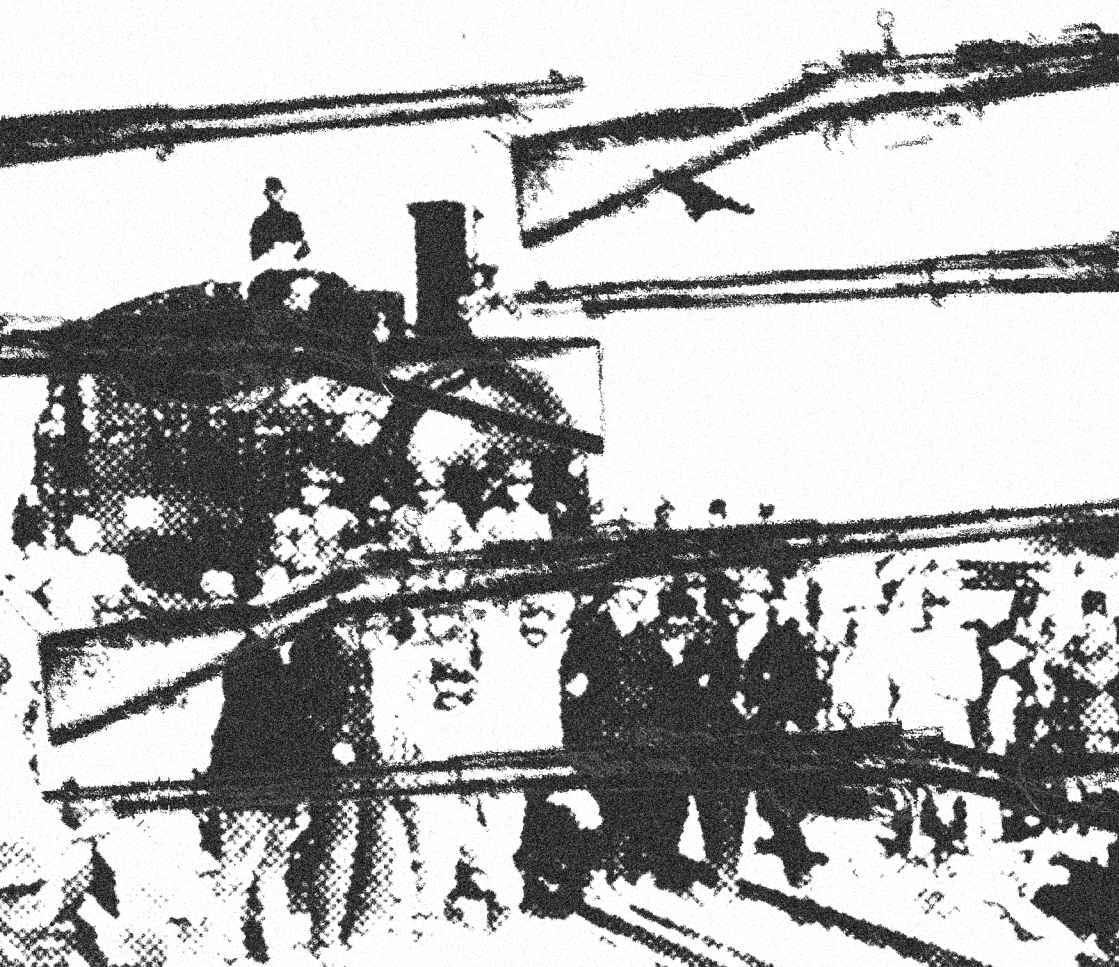
عون اللي زاره:

ف المقرون كنت نخلّم بسيدي رافع، نقول: يا سيدي رافع واكتاره/ فيك نعيش بلا ماطاره.. ف المقرون نخلّم بسيدي رافع نقول: يا سيدي رافع

لنصاري/ نورك ع القبة بعثاري.. يا سيدي رافع لنصاري/ كيف نموت
اجعّك جاري.. ياسيدي رافع لنصاري/ زينك طاري.. ف الطريق لسيدي
رافع، وقفونا التفتيش، شافني العسكري راف بحالي، غاب غاب وجا جاييلي
ثوب، مابيتش ناخذه، العسكري قرطس الثوب وحطّه في كتري، مسكت
الثوب وعزفته عليه، أمي شهقت، وهو ما تكلمش. مشينا في قيسنا، كي
تاق سيدي رافع زغرّت قدّام سيدي باتي، أمي تحشمت وباتي ضحك. هو
اللي حَقّظني نقول: سيدي يا عون اللي زاره/ فوق براره/ فوق جمل م البل
مختاره.. عون اللي زاره فوق شلوق/ حَجَلها كيف البرق يتوق/ عصرانه لا
خشّت سوق ولا لاذو بيها سمساره/ عون اللي زاره سيدي يا عون اللي زاره.

أبريل. 2021

ملف خاص



الإبادة الجماعية في ليبيا: الشَّر، تاريخ استعماري مخفي

على مدى عقد ونصف، كرّس الدكتور علي عبد اللطيف حميده خبراته البحثية الطويلة، والمنهجية؛ للتنقيب العميق في تاريخ المتعلقات الفاشية الإيطالية في ليبيا، التي أسفرت عن إبادة جماعية بين عامي 1929 و1934. ولا بد من الإشارة إلى أن مجالات خبرته النظرية تتركّز أساسًا في السياسة والسياسات المقارنة وعلم الاجتماع التاريخي، وتركّز دراساته متعددة الثقافات والتخصصات على السلطة والفاعلية والإبادة الجماعية والمقاومة ضد الاستعمار في شمال أفريقيا، وبخاصة في ليبيا الحديثة. تَقَصَّى الدكتور حميده الوقائع عبر مسلكين اثنين، كان الأول: التنقيب في وثائق أرشيف مورّع على ثلاث قارات، ومدوّن بثلاث لغات. وكان الثاني: العمل الميداني عبر التنقيب في الذاكرة المحلية والتاريخ الشفوي، بما يشتمل من شعر شعبي، ومرويات حول الوقائع والمواقع الجغرافية المتّسقة بحادثة الإبادة. ومضى بعيدًا عبر تأطير نظري يتّسم بالتحدي لوجهات النظر التاريخية الاستعمارية الإيطالية والأوروبية عن الطبيعة "الحميده" للفاشية الإيطالية.

في حصيلة بحثه، يقف الدكتور حميده في كتابه المعنون بـ "الإبادة الجماعية في ليبيا: الشَّر، تاريخ استعماري مخفي"، على الطرائق التي أحاطت تجربة الإبادة الجماعية في ليبيا بالصمت. متسائلًا عن خفايا استبعادها، حتى ثمانينيات القرن الماضي، من التفسيرات التاريخية للفاشية التي تنظر فقط

إلى أوروبا، داعيًا إلى ضرورة أن تتجاوز الدراسات النقدية الجديدة للفاشية الإيطالية؛ النظرة المتمركزة أوروبيًا للفاشية الإيطالية، عبر النظر إلى الإبادة الجماعية في المستعمرات خارج أوروبا، والإصرار على المسؤولية الأخلاقية والسياسية للدولة الإيطالية على فتح الأرشيفات ليتسنى معرفة الأسرار المخفية المحرجة وتأمين صوتٍ لمن نُسيَ ظلماً.

في كتابه عن الإبادة الجماعية في ليبيا؛ يشير الدكتور حميده، إلى "سياسة الذاكرة"، والمتمثلة في الانقسام الواقع حول تاريخ تلك الواقعة: صمت في إيطاليا، في مقابل ذكرى حيّة في ليبيا. ويدعو إلى ضرورة وضع الإبادة الجماعية في ليبيا ضمن إطار عام لتاريخ الإبادة الجماعية في العالم، مؤكدًا أمرين اثنين: أولهما- ضرورة تحديد المدارس الفكرية ومراجعة افتراضات حالات الصمت وفناتها. وثانيهما- الحاجة إلى تسليط الضوء على الأمثلة والخطاب السائد في كلٍّ من الثقافة الأكاديمية والشعبية، دون نسيان "الأعمال الشريرة التي ارتكبتها الفاشيون في أوروبا وليبيا وإثيوبيا".

في هذا العدد من الغرفة 211، نخَصّص ملفًا يسلّط الضوء على جانب من تجربته البحثية في تاريخ المتعقلات الفاشية الإيطالية في ليبيا، عبر التركيز على كتابه المعنون بـ "الإبادة الجماعية في ليبيا: الشّر، تاريخ استعماري مخفي"، والذي صدر باللغة الإنجليزية عن دار روتليدج "Routledge" سنة 2020، وحاز على جائزة الجمعية الأمريكية العلمية للدراسات المغاربية لعام 2022. وصدرت ترجمته العربية سنة 2023، عن "مَجْمَع ليبيا للدراسات المتقدمة ومؤسسة كلام للبحوث والإعلام".

ولا بدّ من الإشادة بالدور اللافت والجسيم، للمترجم، الدكتور محمد زاهي

بشير المغربي (أستاذ شرف علم السياسة بجامعة بنغازي، والمختص في السياسة المقارنة ودراسات الثقافة السياسية والمجتمع المدني والسياسة العامة)، الذي نقل الكتاب باقتدار إلى اللغة العربية، وجعله في متناول القارئ العربي. نحن نعتمد على ترجمته في ملف العدد الذي سيحتوي مقدمة الترجمة العربية، بقلم الدكتور حميده، إضافةً إلى فصل من الكتاب. في هذا الملف، تطالعون أيضًا قراءة في الكتاب، مُعَنَوَنَةً بـ "إعادة تشكيل تأريخ الإبادة الجماعية"، وهي بقلم فؤاد المغربي، وترجمة الدكتور نافع الطشاني. وفي ختام الملف، سعى فريق تحرير الغرفة 211، إلى الإحاطة بجوانب مختلفة من تجربة الكتاب، عبر محاوره الدكتور حميده.



عن الدكتور علي عبد اللطيف حميده

ولد الدكتور علي عبد اللطيف حميده في ودان، ليبيا، وتلقى تعليمه بجامعة القاهرة في مصر وجامعة واشنطن، سياتل. وهو الرئيس المؤسس (2000-2014) لقسم العلوم السياسية في جامعة نيو إنجلاند، في مدينة بيدفورد، بولاية مين، بالولايات المتحدة. ونشر مقالات رئيسية في مجلة الدراسات الإيطالية، والمجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، والمستقبل العربي، وفصلية العالم الثالث، والمجلة العربية للدراسات الدولية، كما أنه مؤلف لعدة كتب:

- "المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا: دراسة في الأصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لحركات وسياسات التواطؤ ومقاومة الاستعمار

- (1830-1932) عن دار نشر جامعة ولاية نيويورك 1994، وباللغة العربية عن مركز الوحدة العربية، بيروت، 1998 و2008 .
- "ما بعد الاستعمار والقومية في المغرب العربي: التاريخ والثقافة والسياسة". كتاب جماعي حرره د. حميده، دار نشر بالغريف، 2001، وبترجمة عربية عن مركز دراسات الوحدة العربية، 2014.
 - "أصوات مهمّشة: الخضوع والعصيان في ليبيا أثناء الاستعمار وبعده"، 2005 عن دار راوتلادج، ونُشرت طبعة عربية عام 2009، وطبعة إيطالية عام 2013.
 - "جسور عبر الصحراء: التأثير الاجتماعي والثقافي والاقتصادي لطرق تجارة القوافل عبر الصحراء"، كتاب جماعي حرره د. حميده، عن دار كمبريدج سكولارز، 2009.
 - "ما بعد الاستشراق: مراجعات نقدية في التاريخ الاجتماعي والثقافي المغربي 1990 . 2008، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2009.
 - "ليبيا التي لا نعرفها" (باللغة العربية) عن وزارة الثقافة الليبية، 2014.
 - "الإبادة الجماعية في ليبيا: الشر، تاريخ استعماري مخفي" عن دار روتلادج، 2020 وبالعربية عن مجمع ليبيا للدراسات المتقدمة، 2023.

الإبادة الجماعية في ليبيا: الشَّر، تاريخ استعماري مخفي تقديم المؤلف للطبعة العربية

علي عبد اللطيف حميده

طلب مني صديقي الدكتور زاهي المغيربي مترجم الكتاب كتابة مقدمة للطبعة العربية ووافقت، ولكنني قرّرت أن أطرح فقط بعض المفاتيح والإشارات المنهجية والمعرفية علّها تفيد القارئ العربي في فهم واستيعاب هذا الكتاب الذي استغرق البحث فيه عقدًا ونصفًا من العمل الأرشيفي والمقابلات الشفاهية والزيارات الميدانية للمعتقلات الجماعية في شرق ووسط ليبيا في الفترة ما بين أعوام 2000 و2015، ناهيك عن البحث الأرشيفي والأكاديمي بثلاث لغات وفي ثلاث قارات؛ أفريقيا وأوروبا وأمريكا الشمالية.

ما يعرفه العرب عن المقاومة الليبية للاستعمار الإيطالي يتركز على شخصية شيخ الشهداء عمر المختار، وتحديدًا طريقة إعدامه العلنية، والتي أراد الفاشيون الإيطاليون بذلك إخماد روح المقاومة بالإرهاب العلني لأحد أهم قادة المقاومة في المنطقة الشرقية.

القراء العرب يتدّكرون هذا المشهد الدموي، وبالذات بعد مشاهدة فيلم المخرج السوري الأمريكي الراحل مصطفى العقاد "أسد الصحراء". وهذا

الفيلم بلا شك عمل فني مبدع ومهم، ولكننا ننسى أو لا نعرف الأحداث الدموية الأخرى، وبالذات معسكرات الاعتقال الستة عشر وبخاصة معتقلات الموت الأربعة الجماعية، والتي لم يكن عمر المختار معتقلاً بها، وهنا أعني 110,000 طفل ورجل وامرأة اعتقلوا في الفترة ما بين 1929 وحتى عام 1934 ومات أغلبهم جوعاً ومرصاً في هذه المعتقلات، أي: ما بين 60,000 إلى 70,000، بسبب سياسة عنصرية ممنهجة أسميتها الإبادة الجماعية في ليبيا.

ولكن لماذا حدثت هذه الجريمة الجماعية في شرق ووسط ليبيا؟ لأن المقاومة فُيمتت وهُزمت عسكرياً في الغرب الليبي، واضطر معظم قادة المقاومة للهجرة إلى الجنوب الليبي أو إلى المنافي في تونس ومصر وتشاد والنيجر بعد عام 1922.

استمرت المقاومة في الشرق والجنوب الليبي حتى عام 1932، أي عشر سنوات من المقاومة، رغم عدم تكافؤ السلاح واستخدام الطائرات الحربية، ما قاد الفاشيين الطليان إلى خطة المعتقلات والإبادة الجماعية بعد ترحيل الأهالي وقبائل الشرق إلى صحراء سرت في المنطقة الوسطى ولإنهاء المقاومة وتفريغ الإقليم الخصيب من سكانه وتوطين المستوطنين الطليان، وهذا ما حدث في عام 1938 بقدوم 20,000 مستوطن إيطالي.

هذا الكتاب يطرح أسئلة جديدة عن مواضيع قديمة، وأيضاً يحقق في هذه الجريمة الجماعية التي يعرفها جل الليبيين، ولكن ليس بالعمق والتفصيل والتدقيق العلمي الصارم، كما أن هذه الجريمة الجماعية اختفت وتعرضت للتعتيم والسكوت عنها عن قصد وتعمد وبشكل مسيء في الجامعات

الإيطالية والأنكلو-أمريكية، أي أن البحث في هذه الجريمة الجماعية يتطلب التحقيق في ماذا حدث بالتفصيل، وأيضًا التحقيق في السكوت والإنكار السياسي والأكاديمي والمعرفي، وبخاصة في دراسات الإبادة الجماعية في القرن العشرين، وأيضًا التحقيق في هيمنة خرافة ومقولة إن الفاشية الإيطالية هي حميدة ومعتدلة ولم تَقم بجرائم إبادة جماعية مثل الدولة النازية الألمانية.

ما معنى التاريخ المخفي والمجهول للشر؟

يحقّق الكتاب ويقرأ، منهجيًا، أدلة وقرائن تاريخ هذه الجريمة الجماعية وتداعياتها المستمرة على الحاضر، ولكن من وجهة نظر المعتقلين والناجين اللبيين وثقافتهم وقيمهم الشفاهية والشعرية، التي تعطينا المقابل الإنساني الحيوي للسكوت والصمت، أي الذاكرة الحية والتذكر والإصرار على عدم نسيان هذه الجريمة الجماعية.

ولذا أصررت على تناول سرديات وثقافة الأحياء، وهم الذين قالوا لي إن ما حدث لهم كان النقيض للخير، أي إنه -في حقيقته- تاريخ الشر، وهذا مهم وطبيعي لأنه يعكس ثقافتهم الإنسانية العربية والإسلامية ووعيهم الحاد بما واجهوه من العنصرية والإبادة الجماعية الفاشية، وهنا تكون اللغة العربية ومحمول معانيها وتفاعلها مع الأحداث جزءًا من الطرح المنهجي للكتاب.

أصرّ الناجون على كلمة "تاريخ الشر" لتأكيد الطبيعة الشريرة للاستعمار الفاشي. كان تاريخ شرّ وجريمة مرعبة، وهو جزء أساسي من التاريخ الفعلي للفاشية الإيطالية، ولهذا من الضروري التساؤل عن مصداقية القول

والإعجاب ببعض القيادات الفاشية الإيطالية مثل الحاكم الاستعماري إتالو بالبو وخرافة بناء ليبيا التي بدأت تظهر الآن، خاصةً بعد سقوط نظام القذافي في عام 2011.

ولكن ماذا أعني بالتاريخ المخفي؟

كما هو معروف ومتاح، فإن تاريخ النازية وإبادة اليهود والغجر والاشتراكيين قد أصبح معروفًا بعد محاكمات نورمبرغ، بالإضافة إلى سياسة تعليم وإنتاج هذه المحاكمة في الكتب والمدارس والجامعات والأفلام والمتاحف كل عام في غرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

ولكن في المقابل تناست الذاكرة الرسمية جرائم الفاشية الإيطالية في الدراسات الأدبية المعاصرة، بل وعُيِّبَتْ حتى في الأفلام والثقافة والإعلام، بل أقول إن هناك، وإلى حدٍّ كبير، تجاهلاً وجهلاً في العالم العربي بهذه الجريمة وتفصيلها وتداعياتها على الحاضر، بل إن هناك أجيالاً شابة في ليبيا تعاني من عدم الفهم لهذه الجريمة الجماعية.

نجت الفاشية الإيطالية من المساءلة والمحاكمة حتى بعد سقوط هذه الدولة في عام 1943. هذا السكوت القانوني والأخلاقي عن جرائم الفاشية الإيطالية لم يكن سهواً أو خطأً، بل كان نتاجاً لسياسة العنصرية المركزية الأوروبية وظروف الحرب الباردة ومعاداة الشيوعية في إيطاليا والمجتمعات الغربية بعد سقوط الفاشية وبروز الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي الإيطالي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وهزيمة القوى النازية والفاشية. ولكن ماذا يعني هذا السكوت والصمت والإنكار؟ يعني تحديداً القول إن

ما حدث في أوروبا مهم لكون ضحاياه بشرًا أكثر رقيًا، ولكن ما حدث ويحدث خارج أوروبا ليس مهمًا لأن تلك الشعوب أقل قيمة، وبالتالي من المقبول النظر إلى هذه الجريمة وكأنها ضريبة التقدم والتمدُّن والحدّثة الاستعمارية، هذا التفكير هو دليل على العنصرية الاستعمارية وفكرها التبريري الاستشراقي.

وهنا أريد أن أنبّه القارئ العربي إلى أن هذا الكتاب ليس ثمرة تحقيق علمي وصارم ومقارن عن هذه الجريمة، ولكنه تحقيق في السكوت والصمت الغربي والعربي الرسمي، وبالذات في ليبيا بعد الاستقلال في العام 1951 وحتى الآن.

الكتاب يقدم الحالة الليبية للإبادة الاستعمارية للقارئ العربي والعالم، وهنا تكمن أهمية الطرح المنهجي والمعرفي للكتاب الذي يحقّق في الإبادة في ليبيا، ولكن عبر طرح رؤية جديدة للثقافة والتاريخ وحالات الإبادة في أوروبا نفسها. أي إن كتابة التاريخ المقارن للإبادة يتطلّب فهمًا جديدًا، فلم يعد من المقبول علميًا تجاهل التاريخ المشترك والمتشابك والمتداخل والذاكرة والنسيان والسكوت. نحن لا نستطيع فهم تاريخنا ولا هم أنفسهم في إيطاليا وأوروبا بقادرين على فهم تاريخهم من غير فهم الاثنين، وهذا يتطلّب تجاوز طرح الدولة القومية/ الوطنية الضيق في الدراسات العربية والغربية وما يصاحبه من مفاهيم دراسة التواريخ الأوروبية والأفريقية والعربية والآسيوية بمعزل بعضها عن بعض.

للأسف الشديد تجاهل المفكرون والأكاديميون العرب لفترة طويلة الاهتمام بالمرحلة اليهودية التي قام بها النازيون الألمان بحجة أن أوروبا لا تعيننا،

حيث إنهم قد قاموا بإبادة الأقليات في مجتمعاتهم، وعلينا نحن الاهتمام فقط بالاستعمار الذي تعرّضت له أوطاننا، وأيضًا -وبإعلان الاستقلال- يكون عصر الاستعمار قد انتهى، وبالتالي انتهى الجدل المعرفي والعلمي والنقدي لتلك المرحلة، وانتقل إلى مجال مرحلة ما بعد الاستعمار، ناهيك عن الفصل ما بين إنتاج المعرفة والاستعمار والحدثة. والأهم إزاء، من هذا المنطلق، هو التنمية والحدثة والتقدم، أما الباقي فتاريخ انتهى منذ فترة طويلة.

إنني أختلف مع هذا الاتجاه المهيمن في الدراسات الفكرية والأكاديمية العربية، بل أرى أنه من الضروري ربط إنتاج المعرفة بالسياق المادي والمؤسسي والحجاج ضد فكرة الحياد والموضوعية الأكاديمية بشكل ساذج ومطلق، وبالتالي أركّز على الأطروحات المعرفية والتاريخية التالية: المحرقة اليهودية ليست استثناء أو حالة خاصة وفريدة في تاريخ الإبادة داخل أوروبا، بل هي متجذّرة في الجرائم الاستعمارية في أفريقيا، أي إن المحرقة هي خلاصة الجرائم الاستعمارية للإبادة، وبالذات في الكونغو وناميبيا وليبيا.

والاكتشاف الأهم هو تقديمي دليلاً غير معروف عن إعجاب واهتمام ودراسة النازيين الألمان للحالة الإيطالية، وبالذات تفرغ المنطقة الشرقية من سكانها والقضاء عليهم، أو "النجاح" في سياسة المعتقلات الجماعية في الفترة ما بين 1929 و1934 قبل سياسة المحرقة والمعتقلات النازية في أوروبا.

هذا الكتاب يفضح سياسة السكوت والإنكار داخل إيطاليا وأوروبا، ويواجه

أيضاً صمت وإهمال الدولة الليبية الحديثة وعدم اهتمامها الجاد بهذه الجريمة. نحن بعبارة أخرى نحتاج إلى النقد المزدوج في مواجهة العنصرية الأوروبية، وبالذات في إيطاليا وتخاذل الدولة الليبية في الاهتمام بهذا الموضوع وهذه الجريمة.

هذا الكتاب يفضح هذا السكوت والتخاذل، ويكشف عن التاريخ المجهول والمخفي وإخضاع هذا التاريخ لتحقيق علمي صارم، وبالمقابل الإصرار على حق الناس العاديين في السرد والحديث عن جريمة المعتقلات والإبادة الجماعية الاستعمارية. هذا التاريخ الحيوي الإنساني للأحياء والناجين وأحفادهم يعطينا ذاكرة خصبة تحافظ وتعبر عن رؤاهم وأصواتهم رغم الصمت والإنكار والعنصرية في جلّ الكتابات والدراسات المعاصرة عن جرائم الإبادة الجماعية في القرن العشرين، ولذلك فإنه ليس تاريخ الشر في الماضي، إنه تاريخ الحاضر وتجلياته كما نراها الآن.

والله ولي التوفيق.

د. علي عبد اللطيف حميده

مدينة ساكو، ولاية مين

الولايات المتحدة الأمريكية

10 ديسمبر 2021

مقتطف من كتاب الإبادة الجماعية في ليبيا: الشر، تاريخ استعماري مخفي "لقد متنا من الشر يا بني" قصص الناجين من الموت وصدمة معاناة المعتقلات

ما داروا فينا خير الطليان، وما ربنا منهم غير
الشر.

جاء الله محمد الجالي المنفي،
معتقل العقيلة

الجمال بالنسبة للبدو الرّجل الليبيّ حيوان
مقدّس وهو الصديق الأكثر قيمة. عندما يموت
يرثون رحيله وكأنه إنسان.
إبراهيم الكوني، 2018

خرابين يا وطن ما فيك والي
وذيلك جوّالي ولخرين في المشنقة والقتالي
خرابين يا وطن ما فيك هل
.اللي ما جلا في المشانق حصل
الشاعرة فاطمة عثمان، 1929

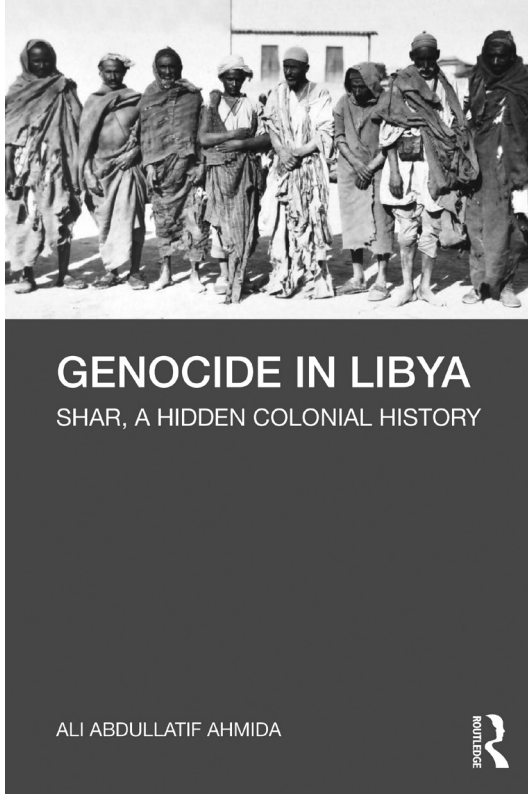
أخبرني أحد الناجين قصة مؤثرة لامرأة لديها طفلان عوقبت بالجلد ثم
قُيّدت بسارية العلم المركزية في معتقل العقيلة طوال اليوم. طلبت من
رجل مساعدتها في الليل. اقترب منها ووجد معها الطفلين، طفلاً صغيراً

متمسكًا بجسدها، وطفلاً رضيعاً كانت تحمله على الرغم من أنها كانت مربوطة بالعمود. طلبت من الرجل أن يضغط على صدرها حتى يرضع الطفل، ففعل. وفي موقف آخر مختلف، كان رجل عجوز مضطجاً في ظل خيمة، وكان هناك صف من النمل على ذراعه. وعندما حاول صبي عابر إزالة النمل، نهره الرجل العجوز قائلاً لا. وفي وقت لاحق فقط أدرك الصبي أن الرجل العجوز يريد الاحتفاظ بالنمل لأنه (أي النمل) كان يحمل الحبوب من مخزن مستلزمات المعتقل. هذه ليست حكايات مضحكة، بل قصص أناس يواجهون الموت.

تحدث الناجون من المعتقلات عن أحداث أخرى تسببت، وفق تفسيراتهم، في وفاة الكثير في المعتقلات الأربعة الكبرى. لم يزود الجيش الإيطالي المعتقلين بالأدوية والملابس. كان لدى آلاف الأشخاص طاقم واحد من الملابس، بدون أحذية، ولم يستحموا لمدة ثلاث سنوات لدرجة أن البراغيث والالتهابات أصبحت حالة منتشرة بين المعتقلين وجعلتهم عرضة للإصابة بأمراض مثل الجدري والتيفوس والعمى. كان محمد عصمان الشامي في الحادية عشرة من عمره عندما اعتُقل مع والدته في معتقل العقيلة سيئ السمعة. كان يرتدي قميصاً واحداً لمدة ثلاث سنوات ولم يكن لديه حذاء. وروى أنه بسبب عدم وجود صابون للاستحمام في تلك الفترة، انتشر القمل والبق في ملابسهم لدرجة أن والدته كانت تأخذ خرقة القميص البالية وتغليها في الماء لقتل القمل والبق.

قال الحاج محمد إدريس الشلماني (معتقل المقرون): "اللي صار للشعب الليبي ما صار لحد، ياما رينا من هم". وقال هارون عبد العزيز مصطفى

علي عبد اللطيف حميده



غلاف النسخة الإنجليزية من كتاب "الإبادة الجماعية في ليبيا: الشر، تاريخ استعماري مخفي."

(معتقل الأبيار): "الحيوانات قطعت وخداها الطليان، وخلصنا فقرا بلا شيء. ويتذكر عطية منينه الافي (معتقل العقيلة): "قطعنا الشر والمرض. كانوا يريدون موتنا. ماتت ناس واجدة من الكدر والهم". وقالت الحاجة باهية حمد العبيدي (معتقل البريقة): "كانوا يبوا يفنونا ويقضوا علينا.

العبيدات أكملوا من الحرب والموت في البريقة". وأضافت: "من الهم، كنا نتمنى الموت"، وإذا وجدت ضابط المعسكر الإيطالي باريللا Barilla أمامها مرة أخرى، كانت ستضربه بالعصا، ثم أضافت ببساطة: "الحمد لله عاد بلدنا ليبيا من جديد"، وكانت تقصد بذلك، الحمد لله، أصبحت بلادنا ليبيا خالية من الاستعمار ونحن مستقلون.¹ هذا التاريخ الجماعي الحيوي الحي هو ما اكتشفته بعد أن بدأت عملي الميداني، وسافرت في جميع أنحاء البلاد، وأجريت مقابلات مع العديد من الناجين، ويبدو الأمر كما لو أن الأصوات المخفية تتحدّى وتواجه بشكل مباشر كلاً من الدولة الإيطالية الاستعمارية والدولة الليبية بعد الاستقلال عام 1951.

كانت السياسات الموضوعة في عهد الفاشيين الإيطاليين تستهدف حركة الجهاد في شرق ليبيا، ويشمل ذلك من دعموها بالطعام، والأسلحة، والمجاهدين الذين حموها وتجسّسوا على الجيش. وصمّم هذه السياسة الاستعمارية اثنان من الجنرالات صرّحا بنيتهما في اعتقال السكان المدنيين، وهما حاكم ليبيا، الجنرال مارشال بيترو بادوليو، الذي كان رئيس أركان موسوليني، والجنرال القاسي رودولفو غراتسياني. وفي عام 1928،

1 Interviews, Muhammad 'Usman al-Shami, June 13, 2007 Agaila and October 23, 2008, Benghazi. Also, Haj Muhammad Idris al-Shilmani, May 5, 2004, Slug, Haj Sa'id Atiyya al-Lafi, November, 2008, Benghazi and Haja Bahiya Hamad al-Abaidi, August 7, 2008, al-Iziyyat.

أمرهما الدوتشي بتولي مهمة هزيمة المجاهدين باستخدام استراتيجيات تشمل الإبادة الجماعية والقتل الجماعي، ومع ذلك لم يكن الفاشيون أول المستعمرين الذين استخدموا سياسات وحشية من نفي وإعدام وسجن الشعب الليبي، فقد ارتكب المستعمرون الإيطاليون الذين يزعمون أنهم "ليبراليون"، الذين غزوا البلاد في أكتوبر 1911، مذابح ونفوا آلاف الليبيين وسجنوهم داخل ليبيا وفي جزر جنوب إيطاليا في الأعوام 1911 و1915 و1930.

باختصار: كانت سياسة الاعتقال مجرد جانب واحد من استراتيجية أكثر شمولاً لسحق حركة الجهاد من خلال استهداف قاعدتها الاجتماعية، تصاحبها سياسات وحشية مثل الإعدامات، ومصادرة الأراضي، وتسميم المحاصيل وحرقها، وقتل المواشي، وتشديد سياج من الأسلاك الشائكة على طول الحدود المصرية لجعل شرق ليبيا سجنًا أو معتقلًا فعليًا، وهكذا كان بنيتو موسوليني، ومارشال بيترو بادوليو، وإميليو دي بونو، ورودولفو غراتسياني، المصممين الرئيسيين للسجن في المعتقلات والإبادة الجماعية. وكان هؤلاء القادة الفاشيون واضحين وصريحين في نيتهم في الإبادة الجماعية عبر سحق المقاومة وقاعدتها الاجتماعية بأي وسيلة، حتى لو كان ذلك يعني القضاء على جميع سكان برقة. وكانت الإبادة الجماعية مصممة لسحق المقاومة من أجل تحقيق الهدف الفاشي الرئيس المتمثل في الاستيلاء على الأرض لصالح المستوطنين الإيطاليين، وبالتالي وبعد تفريغ الأرض من السكان الأصليين، كانت أراضيهم تُمنح للمستوطنين الإيطاليين، ووصلت الموجة الأولى البالغ عددها 20,000 مستوطن في

خريف عام 1938. كانت هذه هي الخطة الديموغرافية الأكبر. وأصبح الاستعمار الاستيطاني الفاشي في ليبيا مرتبطًا بسياسة الإبادة الجماعية، أي كان أساس سياسة الإبادة العنصرية الفاشية الاستيلاء على الأرض وتفريغها من السكان لصالح المستوطنين الطليان.

وسوف يبحث هذا الفصل في المواضيع التالية: خطة الترحيل ومسيرة الدموع، المسمّاة "الرحلان"، كما يتذكّرهما المعتقلون؛ وتدمير 600 ألف رأس من الماشية؛ وردود أفعال المعتقلين حسب طبقتهم الاجتماعية، وجندرههم، وعمرهم، وخلفيتهم الجهوية؛ وسرديات مختارة من المعتقلات الخمسة حول الثقافة، وشعر الصدمة، والحزن في المعتقلات؛ وأخيرًا ما حدث بعد هزيمة المجاهدين وإغلاق المعسكرات أواخر عام 1933 وأوائل عام 1934.

تتمثّل السمتان الرئيستان للثقافة في السردية الشفوية والتواصل الشعري. وأزعم أن الليبيين البدو تعلّموا، منذ طفولتهم، استيعاب التقاليد الشفوية والشعر. وقد وجدوا أن التذكّر والحفظ أمران ضروريان للاستمرار في نشر تاريخ اضطهادهم، حتى لا يُنسى. أتذكّر أن والدتي وجدتي كانتا تردّدان في بيتنا الشعر الشفهي طوال الوقت. بالإضافة إلى ذلك تعلّمنا الشعر من خلال المدارس والإذاعة والأخبار. وكان الشعر يُعرض ويُدرّس في المجتمع الليبي، حيث كان متأصلاً بعمق في ثقافتنا. ويلعب الأطفال لعبة تسمى "مطارحات"، أي المناظرة الشعرية، وقراءة الشعر باستخدام آخر حرف البيت الشعري للبدء ببيت شعري آخر. باختصار: كان للشعر تقدير في المنزل وفي الأماكن العامة، كما يتضح في المدارس وفي حفلات الزفاف،



معتقل العقيلة

والتجمعات المحلية، وبالتالي من الطبيعي على هذه الثقافة ممارسة الناجين تلاوة قصائد كاملة، بما في ذلك تفاصيل الأشخاص الذين اعتُقلوا وأسمائهم وأعمارهم وشخصياتهم. أما أولئك الذين سقطوا على طول الطريق "الرحلان" إلى المعتقلات، أو اقتيدوا إلى المنفى، أو جاعوا حتى الموت، فلا يزال الناجون وأطفالهم وأحفادهم يتذكرونهم جميعًا. بعبارة أخرى: هذا التاريخ ليس جزءًا من الماضي فحسب، بل هو تاريخ حاضر في الثقافة اليومية.

الترحيل القسري ومسارات الرحلان

سجلُ الأرشيف الإيطالي صامت حول موضوع الترحيل هذا، حيث لم نجد سوى تقريرٍ واحدٍ فقط كتبه المتصرف العسكري الإيطالي عن ترحيل قبيلة العواكير إلى معتقل سلوك²، مع ذلك فإن التاريخ الشفوي للمعتقلين والناجين يؤمّن لنا روايات مفصّلة ومحدّدة لهذا الاقتلاع المروّع من مناطق بعيدة بالقرب من الحدود المصرية ومنطقة البطانان في الشرق والجبل الأخضر إلى صحراء سرت القاسية (حيث تلتقي الصحراء والبحر). وتتميّز سرت بقلّة أشجارها ومياهها وندرّة المأوى الطبيعي. لم تكن المسافة طريقًا

2 The Italian Archives is silent on the topic of deportation with only one report on the deportation of *the Awagir Tribe to Slug* by The Italian colonial Mutasarif of Benghazi ASAMI, vol. v, in ventari e, supplementi, Bacco 5, commissaria to regional de Begnasi, Relazione Sloug, 28 Lunglio 1932. 4. On the nineteenth century American removal of Native American Cherokee known as The Trail of Tears see *The Cherokee Removal: A Brief History with Documents*, (Boston: Biddeford Books, 1995), 160–162, and Amy H. Sturgis, *The Trail of Tears and Indian Removal*, (Westport: Greenwood Press, 2007) 58. On the mass killing of 30 million animals, see Andrew C. Isenberg, *The Destruction of the Bison*, (Cambridge: Cambridge University Press, 2000) 12.

مستقيماً ولكن كان بها العديد من المنعطفات والتوقفات. وكانت المسافة 1100 كيلومتر تقريباً من السلوم إلى معتقلي العقيلة والبريقة. وإلى الآن، يُطلق على السكان المرحلين اسم "الرحلان". وكان غالبية الذين تعرّضوا لسياسة الترحيل والاعتقال من قبائل البدو الرُّحل وشبه الرُّحل الذين كانوا منظمين من خلال الطريقة السنوسية وقيادة عمر المختار في نظام اجتماعي واقتصادي وثقافي متكامل. ولم تستهدف السياسة الإيطالية سوى جزء صغير فقط من السكان الحضر في المدن وسكان البلدات الساحلية في برقة، ونتيجة لذلك اعتُقلت الغالبية العظمى من أقارب المجاهدين في معتقلات العقاب الأربعة، في حين أن المعسكرات الباقية لم تكن قاسية مثل معتقلات العقيلة، والبريقة، والمقرون، وسلوق سيئة السمعة، ولذلك حدثت أفزع حالات الوفاة في هذه المعتقلات العقابية الأربعة، حيث اعتُقل فيها 65% من المرحّلين، وليس من المستغرب أن يُعتقل أقارب المجاهدين في معتقلي العقيلة والبريقة. وعندما قُبض على المختار، كان هناك حداد جماعي وكآبة في المعتقلات، وقد شُنق في معتقل سلوق أمام 20,000 مدني مسجون لإرسال رسالة مرعبة إلى السكان المحليين. كان بإمكان القادة الفاشيين الإيطاليين نفي أو سجن الشيخ وقادة الجهاد، ولكن الواضح هنا أنها رسالة القتل والإبادة.

جنود المستعمرات وحراسة المعتقلات

كان الجيش الإيطالي الذي نفَّذ خطة الترحيل في عامي 1929 و1930، يتألّف من ضباط وجنود إيطاليين، بالإضافة إلى عساكر استعمار مجندين، معظمهم من إريتريا، ومجندين ليبين يُدعون باندا Banda. في ليبيا، أطلق الناس على عساكر الاستعمار الإيطالي المجندين من إريتريا اسم "مصوغة" في إشارة إلى ميناء مصوع، و"الحبش" في إشارة إلى الحبشة الاسم القديم لأثيوبيا. أما العسكري، أو في اللغة الإيطالية ascari، فهو اسم نشأ في اللغة العربية ويعني جنديًا، ولكن في أفريقيا المستعمرة، تحمل هذه الكلمة معنى محدّدًا: أحد السكان المحليين الذي أصبح مجنّدًا مع المستعمر. كان لجميع الدول المستعمرة، بما في ذلك ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وإسبانيا، عساكرها الذين لم يُجنّدوا في أفريقيا فحسب، ولكن أيضًا في أوروبا ومات الآلاف منهم خلال الحربين العظيمين.

في الجيش الإيطالي، جاء غالبية عساكر الاستعمار المجندين من إريتريا، أول مستعمرة إيطالية في أفريقيا، بينما كان بعض الليبيين الذين يخدمون في الجيش الاستعماري الإيطالي يُطلق عليهم اسم باندا باللغة العربية، وهي كلمة إيطالية تعني فرقة عسكرية. استخدم الجيش الإيطالي عساكر مجندين محليين ليبين لأسباب مختلفة، مثل حقيقة أن رواتبهم أرخص من الجنود البيض الإيطاليين، وأن الجيش يمكنه تجنّب رد فعل الرأي العام داخل إيطاليا عندما يموت الجنود في المعارك، وأن عساكر الاستعمار المحليين أكثر قابلية للتكيف مع بيئة وجغرافية المستعمرة. وتعاون عساكر الاستعمار من المجندين الليبيين، الباندا، مع الدولة الاستعمارية الإيطالية

بسبب مجموعة متنوعة من العوامل المعقدة. وقد انضم الليبيون، غير المدركين إلى مفهوم التعاون مع العدو إدراكاً كاملاً، إلى الجيش الإيطالي بسبب الاحتياجات الاقتصادية، أو للانتقام من منافسيهم إما في ظل الدولة العثمانية قبل عام 1911 أو خلال فترة الصراع على الأرض والسلطة. وجاء عساكر الاستعمار المصوغة من أول مستعمرة إيطالية في شرق أفريقيا عام 1869؛ أصبحت هذه المستعمرة مصدرًا للعمالة الرخيصة في الجيش الاستعماري الإيطالي في ليبيا بعد عام 1911. وجند الإيطاليون الآلاف من الإريتريين والصوماليين واليمنيين والليبيين في الجيش الاستعماري. ولم يكن هذا مفاجئاً، حيث جُنِّدت الجيوش الاستعمارية الألمانية والفرنسية والبريطانية عساكر استعماريين للقتال معهم في أفريقيا وآسيا وأوروبا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. وكانت الغالبية العظمى من العساكر المجندين في الجيش الإيطالي من المسيحيين وقد حُشدوا لمحاربة المسلمين في ليبيا. وقدّمت المستعمرة الإيطالية الأولى، إريتريا، ما بين 60,000 و150,000 عسكري استعماري خدموا أثناء الغزو الاستعماري الإيطالي واحتلال ليبيا وإثيوبيا بين عامي 1911 و1943.³ واستمرت هذه السياسة الاستعمارية في ثلاثينيات القرن الماضي عندما قام عساكر الاستعمار المجندون بحراسة المعتقلات وحمايتها، وجُنِّد الأطفال الأيتام

3 On Italian colonial soldiers Ascari (*Askari*) from Eritria, see Uoldelal Chelati Dirar, "Truppe Coloniale e L'individuazione dell' Africa agency: Il Caso degli ascari eritrei," *A fricche e orienti. It ritorno della memoria olonial*, 1:1 (2007) 41–56, and his earlier article "From Warriors to Urban Dwellers," *Cahiers d'etudes africaines*, 175 (2004) 533–574, Nir Arielli, "Colonial Soldiers in Italian Counter-Insurgency Operations in Libya, 1922–32," *British Journal of Military History*, 1:2 (February 2015) 47–66, and Alessandro Volterra, *Sudditi Coloniali. Ascari eritrei, 1935–1941*, (Roma: Franco Angeli, 2014).

من المعتقلين كعساكر في الجيش واستُخدموا لاحقًا في غزو إثيوبيا عام 1936. وكان عساكر الاستعمار الليبيون بقيادة عاكف أمسيك، وهو ضابط من بلدة غريان الغربية، وقبله القائد الأمازيغي "الجبالي" يوسف خريبيش. وكلاهما تعاون مع الجيش الإيطالي وخدم معه لعوامل مركبة ومعقدة تناولتها في كتابي الأول "المجتمع والدولة والاستعمار".

وظلت المرحلة الحاسمة من الترحيل القسري، على الرغم من الصمت عنها في المصادر الاستعمارية الإيطالية، حية ولا يزال يتذكرها بالتفصيل الأشخاص الذين نجوا من الاعتقال والأطفال الصغار، الذين حفظوا بعض الشعر الشعبي من المعتقلات أو استمعوا لروايات شفوية من الناجين. وهذه العوامل حاسمة في توضيح تاريخ اعتقال المدنيين وترحيلهم، وفهم سبب ترحيلهم، وتوصيف مواجهات المرَّحلين مع الجيش الاستعماري الإيطالي، وأخيرًا فهم ما حدث خلال مسيرة الدموع والخوف الطويلة للمرَّحلين من مناطق بعيدة بعد الحدود المصرية، كما كان حال قبائل البطنان وقبيلة العبيدات في الجبل الأخضر الذين ساروا لمسافة 1100 كيلومتر، وآخرون من سائر الإقليم الذين سافروا إما على الأقدام وإما على ظهور الإبل، أو في سفن قديمة، إلى صحراء سرت القاسية.

وتشير المصادر الأرشيفية الإيطالية المتاحة إلى أن موسوليني ضغط من أجل هزيمة حركة الجهاد في شرق ليبيا، ولكن وفقًا لأنجلو ديل بوكا، كان الحاكم الاستعماري لليبيا المارشال بيترو بادوليو هو الذي وضع خطة الإبادة الجماعية الفعلية لحل "مشكلة برقة". وكُلف بمهمة تنفيذ هذا الحل النهائي لسحق المقاومة، باستخدام جميع الأدوات العنيفة، الجنرال

الإيطالي الأكثر قسوة، رودولفو غراتسياني، نائب الحاكم الاستعماري في برقة. وجادل المؤرخ الإيطالي روشات بأن مصير المدنيين الليبيين حُسم لحظة تعيين غراتسياني منقّداً لخطة الإبادة الجماعية هذه.⁴ وكان المارشال بيترو بادوليو (1871-1956) رئيساً لموظفي موسوليني بين عامي 1925 و1940 وأصبح حاكماً ليبيا بين عامي 1928 و1933. كان هو ونائبه، الجنرال غراتسياني، مسؤولين عن القتل الجماعي في برقة. وعلى المرء أن يضيف اسم الجنرال الثالث إميليو دي بونو، وزير المستعمرات، أيضاً. وأصدر موسوليني تعليمات للحاكم بادوليو لسحق المقاومة بأي ثمن. وجاء بادوليو بفكرة المعتقلات، كما يستبين بوضوح شديد من أوامره في رسالته المهمة إلى نائبه غراتسياني، حاكم برقة، في 20 يونيو 1930. وتنص هذه الرسالة المتعلقة بخطة الإبادة بوضوح شديد "الآن حُدّدت المهمة، ويجب على المرء أن ينفذها حتى النهاية، حتى لو هلك جميع السكان الأصليين".⁵ أما الجنرال غراتسياني (1882-1955) فهو ضابط عسكري استعماري كبير آخر خدم في جميع المستعمرات الإيطالية بما في ذلك ليبيا. وكان قد اكتسب شهرة في وقت سابق في ليبيا بقمعه للمقاومة في فزان، ولُقّب "جزار فزان" عندما استخدم الطائرات والدبابات المتحركة وحتى الغازات السامة لهزيمة المقاومة. ويطلق عليه المؤرخون الليبيون لتلك الفترة اسم

4 On the colonial official letters see Giorgio Rochat "The Repression of Resistance in Cyrenaica (1927–1931)" Enzo Santarelli, Giorgio Rochat, Romano Rainero, and Luigi Goglia, *Omar al-Mukhtar* translated by John Gilbert (London: Darf Publishers, 1986), 78–79. This is an undated version of Rochat's 1973 seminal work where he stated that the internment was genocide.

5 The letter with a clear intention and plan for the genocide in Badoglio to Graziani June 19, 1930.

”سفاح ليبيا“. وعُيِّن حاكماً على برقة سنة 1929، ونقّذ عمليات الترحيل والقتل الجماعي في المعتقلات. بعبارة أخرى: لم يكن الجنرال غراتسياني المسؤول الوحيد، ولكنه كان منفذاً لسياسة دولة فاشية وعنصرية.

بعد ليبيا، كُلف حاكماً بالنيابة عن الملك في إثيوبيا حيث واصل السياسة الوحشية ضد المدنيين التي أتقنها في ليبيا، بما في ذلك استخدام الغازات السامة، والقتل العقابي الجماعي، والمعتقلات. واستمر كلا الجنرالين ضمن القيادة العسكرية العليا للدولة الفاشية حتى نهايتها. وتعاون بادوليو مع الحلفاء وأصبح رئيساً للوزراء في عام 1944. ولم يواجه قط اتهامات بارتكاب جرائم حرب. وكان غراتسياني مخلصاً للفاشية، حتى أنه أصبح وزيراً للدفاع في الجمهورية الاجتماعية الإيطالية، الدمية الألمانية، في سالو Salò. ولم يُحاكم من قبل لجنة جرائم الحرب التابعة للأمم المتحدة، ولكن في عام 1948، أُدين غراتسياني من قبل محكمة إيطالية، وحُكم عليه بالسجن لمدة 19 عامًا بتهمة التعاون مع النازيين، ولكن ليس لدوره في الإبادة الجماعية في ليبيا والمذابح الأخرى في إثيوبيا بعد عام 1935، ومع ذلك أُفرج عنه بعد أربعة أشهر. ودافع عن أفعاله وعن الفظائع الفاشية في ثلاثة كتب ودعم الحزب الفاشي المحدث حتى وفاته في عام 1955. ويقدم التاريخ الشفوي بعض الأفكار المثيرة للاهتمام حول من جاء بفكرة المعتقلات. وهنا تكمن المشكلة الرئيسية للدراسات والأبحاث حول الفاشية الإيطالية ”المعتدلة“: القبول غير النقدي للأرشيفات الاستعمارية. إذا قرأ المرء المحفوظات على أنها حقائق، كما فعل المؤرخ الإيطالي ذو التأثير الواسع وكاتب سيرة موسوليني رينزو دي فيليس Renzo De Felice، فإنه

سيقبل افتراضات وادعاءات الفاشية والاستعمار بوصفهما مرحلة إيجابية وتحديثية من التاريخ. الأرشييف مهم، ولكن الأهم كيفية قراءته وفهمه، وهذا بيت القصيد من التفكير الواعي والناقد.

ويكشف التاريخ الشفوي الذي جُمع في تلك الفترة باللغة العربية عن بعض المعلومات الجديدة، مع الأخذ في الاعتبار أن السلطات الفاشية حجبت العملية عن وسائل الإعلام الغربية، وبدلاً من ذلك قامت بحملة دعائية ضخمة حول تأديب البدو الرحل، ورجال القبائل في شرق ليبيا، والمقاومة المتعصبة، والخارجين عن القانون. وأشار بعض الناجين إلى أنهم عوقبوا لأن أحد المتعاونين الليبيين، الشارف الغرياني الذي كان مستشاراً للدولة الإيطالية في ليبيا، نصح الإيطاليين بأن الطريقة الوحيدة لهزيمة المجاهدين هي أن "قطع الجذور يميم الشجرة". وترمز الشجرة هنا إلى المجاهدين ضد الاستعمار، وتشير الجذور إلى المدنيين الذين يوفرون القاعدة الاجتماعية. لم أجد أي دليل يدعم الادّعاء بأن الشارف الغرياني كان وراء فكرة الاعتقال. قد يفسّر المرء مثل هذه الفكرة على أنها تعبير عن الغضب أو رد فعل السكان المقاومين ضد المتعاونين مع الجيش الإيطالي، وبخاصة عند الاستماع إلى التاريخ الشفوي السردى حول وحدة الناجين القوية والعضوية مع المجاهدين ضد الاستعمار.⁶

وقال مفتاح الشلماني، أحد الناجين من معتقل المقرن، إنهم قد قبضوا علينا وسجنونا لأن المجاهدين بقيادة عمر المختار كانوا "يأكلوا منا، نعطيهم في الأوكال (الأكل) والسلاح ورجال". وقال يوسف سعيد البلعزي،

6 Rochat, "The Repression," 78–79.

أحد الناجين من معتقل سلوق: "عطيناهم الأوكال والشاهي والسكر والبَلْغ واللباس، يأكلوا من تبرعنا". أما علي مجيد العقوري من معتقل سلوق فقد قال: "أحنا اللي وكلنا سيدي عمر المختار والمحافظية (الاسم الذي يطلقه الليبيون على المجاهدين)".⁷

كما قام السكان بتوفير المجاهدين والمعلومات الاستخباراتية للمقاومة، وكانت هذه الوحدة العضوية بين المقاومة المسلحة والسكان المدنيين تستند إلى مقاومة حرة وطوعية، حيث كانت إيطاليا النظام الفاشي الوحيد الذي له مستعمرات في أوروبا. هنا لدينا مزيج من الفاشية والاستعمار، ما أدّى إلى فرض جرعة مضاعفة من العنصرية على ليبيا. وتمثل الهدف الفاشي الأكبر في الاستيطان الديموغرافي للإيطاليين في ليبيا، والذي استمر بعد الإبادة الجماعية في عام 1934 تحت حكم الحاكم الاستعماري الجديد، إتالو بالبو Italo Balbo، الذي جلب 20,000 مستوطن إلى ليبيا في عام 1938 وخطط لجلب 500,000 مستوطن بحلول عام 1950.⁸ بدأت خطة الترحيل المبدئية باعتقال الليبيين ونقلهم قسراً إلى المعتقلات الساحلية. أما المرحلة الثانية فقد صُمِّمت لإجبار السكان المدنيين على

7 Interviews with survivors, Muftah al-Shilmani, May 23, 2009, al-Magrun, Yusuf

Sa'id al-Bal'azi, December 15, 2008, Agaila, and Ali Mijdal al-'Aquri, December 15, 2008, Slug.

8 On the Italian fascist plan to settle to two million Italian peasants and farmers in Libya, see Denis Mack Smith, *Mussolini's Roman Empire*, (New York: Penguin Books, 1976), 37, "Libya is Safe for White Settlers," *The New York Times*, (November 1, 1938), and John Patric, "Imperial Rome Reborn," *National Geographic Magazine*, 71:3 (1937) 269–325.

السير على الأقدام والجمال والسفن إلى صحراء سرت، بينما استوعبت معتقلات سلوق والمقرون والبريقة والعقيلة 65% إلى 70% من جميع المعتقلين. وسُجِن رؤساء القبائل في بنينا بالقرب من بنغازي، ونُفي آخرون إلى سجون بجزر جنوب إيطاليا، لا سيما سجن جزيرة أوستيكا. العدد الإجمالي للمنفيين ليس صغيرًا، حوالي 10,000 منذ بداية الغزو الاستعماري وحتى نهاية الثلاثينيات. ومن المهم الإشادة بمركز الجهاد للدراسات التاريخية الليبية على جهوده في توثيق عمليات النفي وحصوله على قوائم بعض أسماء المنفيين، كذلك من الضروري الإشارة إلى الدور الشجاع لبعض المؤرخين الإيطاليين الذين شاركوا في الكشف عن تاريخ النفي.

بدأت المرحلة الأولى بمرسوم يحذّر السكان ويدعوهم للاستسلام ووقف دعمهم للمجاهدين، ثم بعد ثلاثة أيام وصل الجيش ومعه عساكر الاستعمار المجنّدين المصوغة والباندا الليبية، واعتقلوا السكان ومواشيهم. وتشير الأدلة الأرشيفية إلى أن التاريخ الأول للاعتقال هو 25 يونيو 1930، لكن معظم التاريخ الشفوي للمعتقلين يتفق على أنه بدأ في وقت سابق في خريف عام 1929. قال الحاج عبد النبي عبد الشافي الرفادي إن الجيش الإيطالي جاء:

وأخبروا شيوخنا، لديكم خياران: إما أن تقاتلوا معنا ضد المجاهدين وسوف تقوم الدولة بتسليحكم، أو ترفضون وعندئذٍ سوف تُرحّلون إلى المعتقلات. طلب الشيوخ وقتًا للتداول والتحدّث مع ناسهم، ثم أخبروا الجيش الإيطالي أنه

لا يمكننا محاربة المجاهدين، وهكذا أرسلنا إلى بنينا ثم جاء الجيش وقام بترحيلنا إلى المعتقلات.⁹

سارت قبيلة العبيدات في فصل الشتاء لمسافة طويلة بلغت 1100 كيلومتر إلى معتقل البريقة في منطقة صحراء سرت. وصدرت أوامر للجيش الإيطالي بإطلاق النار على أي شخص أو حيوان لم يسرع ويتبع الأوامر بالسير نحو المعتقلات. ويروي الناجون قصص العقوبة الوحشية التي ارتكبتها عساكر الاستعمار المصوغة المجندين، الذين قاموا، خلال مسيرة الرحلان التي استغرقت أسابيع عديدة، بجلد وإطلاق النار على الحيوانات والأشخاص الذين توقفوا أو فقدوا الوعي بسبب الشخوخة أو الإرهاق. وفي حالة قبيلة العبيدات وقبائل البطنان، استغرقت الرحلة شهوًا. باختصار: جمع الترحيل القسري للجيش الإيطالي بين سياستين: السير الإجباري على طول الطريق إلى صحراء سرت، وأيضًا السير لمجموعات أخرى الذي أعقبه النقل بالسفن من سوسة وبنغازي إلى الموقع النهائي على بعد 400 كيلومتر جنوبًا في السجون الصحراوية في وسط الصحراء القاحلة البعيدة عن العمران.

وروى إبراهيم العربي الغماري الميموني من معتقل العقيلة، وهو من القلائل الذين كتبوا مذكراتهم عن المعتقلات، حيث كانت أسوأ العقوبات مصممة لأقارب المجاهدين، قصته عن الترحيل سيرًا على الأقدام ثم بالسفن: رُحِّلنا من معتقل دريانة إلى بنغازي دون طعام وماء. وفي اليوم التالي، وضعونا في قارب صغير وأمرونا بالجلوس في الخلف

9 Interview, Haj 'Abdalnabi 'Abdalshafi al-Rifadi, interviewed by Muhammad Mukhtar al-Sa'di, January 23, 2008.

وفي الطابق السفلي من القارب. كان القارب متسخًا، وكنا مرهقين، وكان الأطفال يبكون تحت أشعة الشمس الحارقة والليالي الباردة. وعندما وصلنا إلى معتقل العقيلة كانت الرياح قوية، ولم يتمكن القارب من الرسو. كان يومًا فظيعةً.¹⁰

اعتُقل محمد عصمان الشامي في معتقل العقيلة، وهو نجل المجاهد عصمان الشامي أحد نواب عمر المختار الذي تخرج ضابطًا في أكاديمية إسطنبول العسكرية في عهد الدولة العثمانية. اعتُقل محمد مع والدته وجده. كان محمد يبلغ من العمر 11 عامًا وقت القبض عليه. وطلب الجيش من الجد التعرف على ابنته وحفيده. وعندما رفض، جلدوه 50 جلدة ثم وضعوه في بئر وأغلقوه عليه. ورضخ الرجل العجوز وقال إنها ابنته، وبالتالي أمر هو وأمه بالسير مع الآخرين نحو المعتقل. وسُجن جده، معيوف سعيد الدرسي، في بنينا، ثم نُفي إلى جزيرة أوستيكا. كان معه 40 شخصًا، وبعد ثلاث سنوات بقي 16 فقط على قيد الحياة؛ مات الباقون في الجزيرة بسبب المرض والمعاملة القاسية والاكتئاب.

أُمر محمد ووالدته، مكتوبة، بالسير لمدة 15 يومًا إلى طلميثة. تسلَّل والده في الليل وأخبرهم أنهم سوف ينقلونهم إلى العقيلة وسألهم عما إذا كانوا يريدون الذهاب معه، ولكن والدته رفضت، ثم وُضعوا على متن سفينة لمدة ثلاثة أيام. مات بعض الناس على متن السفينة، وألقى الإيطاليون الجثث في البحر. وفي العقيلة، يتذكَّر محمد:

10 Ibrahim al-Ghmari-al-Maimmuni, *Dhikriyat Mu'taqal al-Agaila* [Memoirs of the Agaila Concentration Camp] second edition, (Tripoli: Libyan Studies Center 2006), 91–98.

عاملونا كالحيوانات، وحشرونا في شباك واستخدموا ذراع الشحن لرفعنا ثم أسقطونا على الشاطئ. في معسكر العقيلة، وزعونا على عدة مربعات وأقسام وصفوف، وكنا في الصف رقم 11، خيمة رقم 19. ولكن لأن والدي كان قائداً مع عمر المختار، فقد نفانا الجيش الإيطالي إلى باليرمو، إيطاليا، وعندما أرادوا فصلي عن أمي، نكزت أمي في البحر وهددت بقتل نفسها. وقام مسؤول الجيش الإيطالي بتغيير الأمر وبعد ستة أشهر، أعادونا إلى معتقل العقيلة حيث سُجننا لمدة ثلاث سنوات.¹¹

وروى الحاج محمد إدريس الشلmani، من معتقل المقرون، قصة ترحيل عائلته:

رَحَّلونا من غير ما يقولونا وين واخدينا. وجوا العساكر المصوعة الذين خدونا أنا وخوتي وخواتي وأمي في الأول من الترية وبعدها إلى طلميثة ثم إلى معتقلي العقيلة والبريقة. مشينا من بيتنا إلى المعتقل تسعة أيام سيراً على الأقدام وعلى ظهور الجمال. والزايلة اللي تبرك يحرقوها، ماتوا وقطعوا واجد من الناس للتدافع بوادي الكوف. كيف ما وصلنا وقت شتي وصقع ومطر وحنا عطاشا وجوا ما عطونا شيء ناكله.¹²

وتؤكد الحاجة باهية حمد العبيدي السردية. لقد اعتُقلت في معتقل

11 Interview, al-Shami, October 23, 2008, Benghazi.

12 Interview, Haj Idris al-Shilmani, December 15, 2008, Slug.

البريقة الذي اختير لسجن 30 ألف فرد من قبيلة العبيدات:
خدونا الأول إلى معتقل عين الغزالة على الأبل والمشى على
كرعينا. وحبسونا لمدة أربعة أيام في بنغازي دون اوكال،
وقعدنا حيين فقط عشان أُمي عندها زميتة (حبوب تُحمَّص
ثم تُطحن وتُخلط بالماء أو التمر)، والتمور، وكنتنا في الليل.
وباتي غطانا بعباته. والطلبان والمصوغة يضربوا بالسوط
اللي يبطا من العرب والحيوان، وكانوا يتركون خلفهم أي
شخص أو حيوان (يموت). وبعدها شالونا لبابور مليون بالناس
واللي يموت يلوحوه في البحر. وصلنا معتقل البريقة، كانت
الصحراء ما فيها شيء بالنسبة لنا وحنا واخدين على وطننا في
الجبَل الأخضر الخصب والعليل. صحراء سرت في البريقة ما
فيها شيء لا نبات ولا حيوان ولا مية، قعدنا في الحبس ثلاث
سنين وما عمرنا رينا مطر.¹³

ويحكي محمد عبد القادر العبدلي من قبيلة العبادلة البيض عن حالة
محددة من العقاب الجماعي وأسباب اعتقال الأشخاص في معتقل العقيلة
القاسي. يقول:

خمسة من قبيلتنا عدوا للمجاهدين. وغراتساني انتقم منا
كلنا ورَحَّل قبيلتنا جملة، 1000 شخص، للعقيلة، وبعد ثلاث
سنوات ما قعد حي إلا 83 بس.¹⁴

13 Interview, Haji Bahiya Hamad al-Abaidi, August 24, 2008.

14 Muhammad Abdalqadir al-' Abdali, interview, in Saad Muhammad Abu Sha'ala, *Min Dakhil al-Mu'taqalat [From inside the Concentration Camps]*, (Tripoli: Al-Munshaa al-'Aamma Lilnshar, 1984), 42–48.

وكان مطول عطية العبيدي يبلغ من العمر 13 عامًا عندما رُحِّل مع عائلته إلى معتقل سلوق. ويتذكر:

رحلونا نحنا قبيلة العبيد من وطننا في جردس العبيد، ومشينا بالسيف لشهر إلى المرج، وبعدها توكرة مع حيواناتنا، وبعدها لسلوق لمدة ثلاث سنوات. كان يحرسنا الجيش، والحبش، والمصوعة، والزبطية والباندا الليبيون. استغرقت المسيرة 15 يومًا. وجاء المخاض لامرأة ووضعت طفلًا أثناء المسيرة، وقصّبت أمني قطعة من سوريتي للـف المولود وقماطه على عادتنا.¹⁵

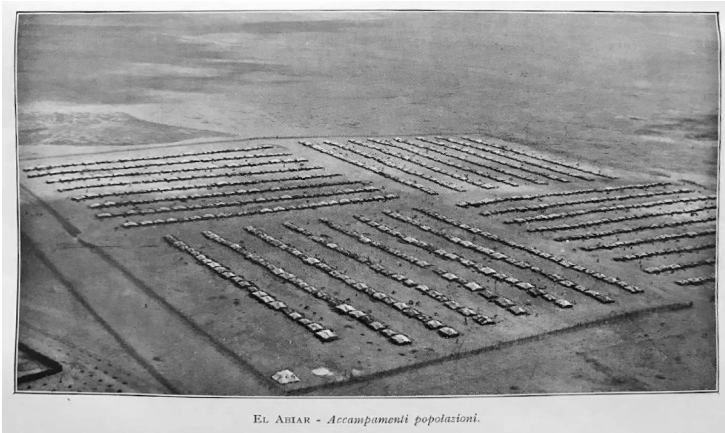
ويتذكر سعد سالم العمروني، وهو من مواليد 1924:

جوننا الطليان وأمرونا بالرحيل من جالو من غير اوكال وعاملونا كيف الحيوان وبعدها وصلنا لمعتقل الأبيار. ومثل الآخرين، عومل المرّحلون بقسوة وأي واحد يبطا يجلدوه أو يطلقوا عليه الرصاص. ماتت ناس واجدة من الشيايب والعويل في الرحلان. وخذوا حيواناتنا، واحنا عائلتنا كان عندنا سبعين جمل وخلوا لنا خمسة بس.¹⁶

ومن الواضح أن الجيش الإيطالي سار ببعضهم إلى موانئ درنة وتوكرة وسوسة وبنغازي، ثم نقلهم عن طريق البحر إلى البريقة والعقيلة، بينما أُجبر آخرون على المشي سيرًا على الأقدام أو على ظهور الإبل إلى المعتقلات.

15 Mtawal 'Atiyya al-'Abaidi, interview, December 15, 2008, Slug.

16 Interview, Sa'ad Salim al-'Amruni, November 5, 2008, Al-Abyar.



معتقل الأبيار - من كتاب "إيطاليا ما وراء البحار الجديدة" لأنجيلو بيتشولي 1932

ويؤكد التاريخ الشفوي للناجين وقائع الوحشية والمعاملة القاسية وعدم توفير الطعام أو الماء أو العلاج الطبي في مسيرة الرحلان كما يطلق عليها، ما تسبَّب في مقتل العديد من الأشخاص وإرهاب من بقوا على قيد الحياة. ليس لدينا حتى الآن عدد دقيق لإجمالي الوفيات. قام الجيش الاستعماري بحجب سجلات أهوال مسيرة الرحلان ودموعها ورعبها. من الواضح أن هذا من شأنه أن يفضح النظام الفاشي، لذلك ينبغي فهم صمت أرشيفات الدولة الاستعمارية الإيطالية حول هذا الموضوع على أنه تغطية وتسوُّر

على خطة الإبادة الجماعية هذه لمعاقبة السكان المدنيين المقاومين في شرق ليبيا بشكل جماعي. وأُجبرت الغالبية العظمى من المرحّلين أثناء الرحلان على مغادرة المناطق الشرقية إلى صحراء سرت؛ وقد رُحِّل بضعة آلاف فقط من الواحات الجنوبية الداخلية وغرب برقة المعروفة ببرقة البيضاء مثل قبائل المغاربة، والزوية، والفواخر، والفرجان، والحسون التي كانت تعيش بالقرب من إجدابيا غربي بنغازي.

شملت الجغرافيا السياسية للترحيل المنطقة الشرقية بأكملها، والداخل الجنوبي من الدواخل، ومنطقة صحراء سرت، موطن أكثر المعتقلات وحشية. وكانت السياسة الإيطالية عازمة منذ البداية على إبادة السكان. عندما زرت المعتقلات ومنطقة الجبل الأخضر، أدركت سبب اختيار الفاشيين لصحراء سرت لاحتجاز السكان المقاومين في شرق ليبيا، فهي صحراء بلا شجر ولا ماء، وهي أرض بعيدة جدًا عن موطن الناس في الجبال، والوديان، والغابات، ونجوع شمال برقة. إنه أيضًا مكان يمكن فيه بسهولة حبس الأشخاص المعتقلين وسجنهم وكان الهروب منه مستحيلًا.

كانت المسافة طويلة، واضطر الناس إلى المضي سيرًا على الأقدام والسفر في سفن قديمة متهالكة ولم يحصلوا على الماء أو الطعام أو الدواء، والأسوأ من ذلك أنه في كثير من الحالات حُرقت حبوبهم وأطعمتهم أو صودرت. وكانت الضربة الأكثر تدميرًا للناس هي خسارة ماشيتهم التي بلغ عددها 600,000 في عام 1929. إن تدمير الماشية هو عامل رئيس وراء الإبادة الجماعية وموت ما لا يقل عن 60,000 في المعتقلات في عام 1934. أنا لست الباحث الأول الذي أدرك أهمية هذا الدمار، فقد لفت إيفانز-بريتشارد وديل بوكا الانتباه إلى جريمة القتل اللإنسانية هذه، والتي أسميها إبادة جماعية. ما أخطط للقيام به هو ربط النظام الإيكولوجي والبيئي والعضوي الذي دمج البشر مع حيواناتهم في التجارة الاقتصادية شبه البدوية والحياة الثقافية في شرق ليبيا. وإنني أقترح أن تدمير قطعان الماشية هو عامل رئيس وراء وفاة الآلاف من المسجونين في المعتقلات، وتشكل الأدلة الأرشيفية وسرديات الناجين نظرة متماسكة حول هذا القتل الجماعي لقطعان الماشية.

هلاك الماشية: مصادرة ومجازر وتجويع

لم تستهدف السياسة الاستعمارية الفاشية السكان المدنيين المقاومين بسياسة الإبادة الجماعية فحسب، بل استهدفت أيضًا قطعانهم بوصفها جزءًا لا يتجزأ من حياتهم. أظهرت الأدلة الأرشيفية والشفوية لهذه السياسة العنيفة نية تدمير كلٍّ من الحيوانات والأشخاص الذين اعتمدوا عليها. استند النظام البيئي والاقتصادي في شرق ليبيا إلى توازن الرعي والاستيطان

والزراعة الموسمية التي جعلت من الحيوانات واستخداماتها البشرية مفتاحًا للبقاء والترابط الطبيعي بين الناس وحيواناتهم. وتتفق المصادر العثمانية والعربية والإيطالية على أن المنطقة تتمتع باقتصاد غني وثروة حيوانية مزدهرة. وذكر المؤرخ المصري محمود الشنيطي الذي ألف كتابًا مهمًا عن ليبيا، المسألة الليبية *The Libyan Question*، أنه قبل الغزو الاستعماري الإيطالي، كانت الولاية العثمانية، المعروفة باسم طرابلس الغرب تضم، في عام 1910، مليونًا و104 آلاف رأس من الماشية.¹⁷ وذكر عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية إيفانز-بريتشارد، الذي خدم في الجيش الاستعماري البريطاني وزار برقة، أن الثروة الحيوانية في شرق ليبيا كانت 600 ألف في عام 1928، وأكد المؤرخ الإيطالي روشات نفس الإحصائيات التي قدمها إيفانز-بريتشارد لمنطقة برقة¹⁸، ومع ذلك إذا قارنا عدد الماشية بين عامي 1910 و1926، وفي نهاية المعتقلات عام 1933، تبرز نتيجة مروعة تثبت جريمة قتل وهلاك الماشية في المنطقة، مصدر رزق الناس وبقائهم¹⁹، وأسهم هذا التدمير والهلاك في ارتفاع معدل الوفيات بين المعتقلين في نهاية المطاف من الإبادة الجماعية في المعتقلات الأربعة. بالنسبة للناس، تُعدُّ الحيوانات ذات أهمية رمزية لأسلوب حياتهم وتماسكهم، بالإضافة إلى كونها خسارة لحيوانات عالية الجودة، وهي أيضًا مصدر للدخل والبقاء والمعنى من خلال الضيافة وحفلات الزفاف

17 Mahmud al-Shinaty, *Qa'diyat Libya [The Libyan Question]*, (Cairo: Maktabat al-Nahda al-Masriyya, 1951)

18 E.E. Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica*, (Oxford: Oxford University Press, 1949), 189–190.

19 See the study by Rochat "The Repression."

والهوية²⁰. وتوضح السجلات التالية (الجدول 1.3) درجة هلاك القطعان بين عام 1910، قبل عام واحد من الغزو الإيطالي، وعام 1933.

الجدول 1.3 هلاك الثروة الحيوانية المحلية في شرق ليبيا 1910-1933

1933	1926	1910	
22,000	80,000	126,000	الأغنام
2,600	75,000	83,000	الإبل
1,000	14,000	27,000	الخيول
2,000	10,000	23,000	الماشية

بحلول عام 1933، هلك 85% من الأغنام والماعز و60% من الأبقار والإبل. ولم يكن هذا التدمير من قبيل الصدفة في زمن الحرب، فقد وجد إريك ساليرنو Eric Salerno رسائل في الأرشيف الإيطالي تشير إلى نية فاشية محددة لتدمير كل من الناس وحيواناتهم. كتب الجنرال مومبيلي Mombelli رسالة إلى القوات جاء فيها: "يجب أن نقضي على الرجال المسلحين ومعسكراتهم وقطعانهم". وكتب الجنرال دي بونو، الحاكم الاستعماري لليبيا، في تقرير آخر، "صادرنا 20,000 رأس من الأغنام و8,000 من الإبل، وقتلنا 5,000 أخرى". وصادرت 1,500 أخرى من الإبل لاستخدامها في غزو واحة الكفرة.²¹ وقدر إيفانز-بريتشارد إجمالي

20 On the material and symbolic values of animals for nomads and seminomads in eastern Libyan culture see Emrys Peters, *The Bedouin of Cyrenaica*, edited by Jack Goody and Emanuel Marx, (Cambridge: Cambridge University Press, 1990).

21 Eric Salerno, *Genocide in Libya*, second edition, (Roma: Manifesto Libro, 2009) bo, 79–81.

نفوق الحيوانات في الفترة ما بين 1923 و1928، واستنتج أن الجيش الإيطالي قتل 170 ألف رأس من الماشية. وتفاخر الجنرال غراتسياني، المتهم بارتكاب الإبادة الجماعية، بهذا التدمير في شرق ليبيا. واعترف بأن مواشي برقة تقلّصت إلى نقطة حرجة تطلّبت استيراد 160 ألف رأس من غرب ليبيا في 1933-1934²²، وكان هذا الفعل إضافة لافتة إلى هلاك ماشية إقليم معروف بصادراته الغنية من الحيوانات، والصوف، والجبنة المحلي، المسمى الكشك، إلى الأسواق الحضرية في غرب مصر وداخلياً لسكان الواحات في دواخل برقة والجفرة وفزان مقابل التمر. ويقدم الناجون الليبيون من المعتقلات سردية تاريخية وعاطفية محددة عن هذا الدمار الذي لحق بحيواناتهم المحببة، والتي كانت مصدر كينونتهم وثروتهم والأساس المادي لثقافتهم وهويتهم.

قتل الجيش الإيطالي بعض القطعان أثناء الترحيل، خاصة في وادي الكوف، لحرمان المجاهدين من استخدامها ولتجويعهم في الجبل الأخضر. وقال الحاج إدريس حمد الشلماني من معتقل المقرون: "صودرت ماشيتنا، وأخذ عساكر المصوغة 100 رأس من الأغنام و6 من الإبل". وأضاف: "كان لعمي 600 خروف و15 بقرة وثلاثة من الإبل، وكان لدى قريب آخر، الطيب، 500 خروف، ومحمد يوسف الشلماني كان لديه 200 رأس. وقد أخذت كلها". وقال يوسف حمد البلعزي إنه "خسر 90 جملاً وبقي خمسة فقط". قال الحاج عطية منينه الحافي (معتقل العقيلة): "فقدت عائلتي 500 رأس من الأغنام و50 رأساً من الماعز، وفقدنا جميع جمالنا أثناء ترحيلنا القسري

22 Rochat, "The Repression," 99.

إلى المعتقلات". وقال الحاج محمد إدريس الشلماني: "قُتل 700 من الإبل أثناء الترحيل بوادي الكوف عندما حدث تدافع دفع الناس وحيواناتهم إلى مجرى الوادي وماتوا نتيجة ذلك". وأضاف: "فقدت عائلتي قطعانها؛ وصودرت 40 شاة ومات البقية بسبب الجوع والعطش. قال الحاج مراد عبد الحميد العبار: "صادر الجيش الإيطالي حبوبنا وحيواناتنا". وقال الحاج إدريس رزق المريمي العبيدي من معتقل البريقة: "اضطررنا إلى السير مع حيواناتنا التي لم تنجُ حيث فقدت أسرتي 20 رأسًا من الأغنام و5 جمال قبل أن نصل إلى المعتقل"²³.

قال الحاج يوسف سعيد البلعزي من معتقل العقيلة: "لو تركنا الإيطاليون وشأننا لكننا قادرين على إطعام ورعاية أنفسنا بالرعي والحرث والغرس والحصاد، لكن ماشيتنا ماتت مثلنا بسبب الجوع والعطش"، ثم وأضاف: صادر الجيش الإيطالي مؤننا وحيواناتنا. كان لدينا 1,200 رأس غنم و90 جملاً. وعندما غادر رعائنا، وتُركت الحيوانات دون طعام وماء، وحرموننا من ذبح ماشيتنا، جُعنا نحن أيضًا.

يتذكّر السنوسي صالح العبدلي (معتقل سلوق) أنه كان لدى عائلته 300 رأس من الأغنام و500 من الماعز، نفقت جميعها بسبب الجوع. قال الحاج جبريل علي العمراني (معتقل العقيلة): "رُحِّلنا لمدة ثمانية أيام إلى معتقل العقيلة. صادر الجيش حبوبنا، ونفقت 14 من الإبل و200 رأس من الأغنام و50 رأسًا من الماعز خارج المعتقل بسبب نقص المياه والطعام". وقال

23 A common trend is a deep trauma among the survivors for losing their animals and hands as in the cases of my interviews with Haj Muhammad Idris al-Shilmani, Yusuf Sa'ad al-Bal'azi, Haj Murad Abdalhamid al-'Abar, Idris al-Marimi, and Jibril al-'Amruni (interview dates for last three December 5, 2008).

الحاج حمد عبد الصادق العوامي (معتقل سلوك):

كنا في طريقنا إلى الهجرة، للجوء إلى مصر، عندما اعتقلنا الجيش وأجبرنا على السير مع حيواناتنا من معتقل عين الغزالة لمدة 19 يومًا إلى سلوك. كان لدينا 30 جملًا ولكن لم يتبق لنا سوى واحد. كانت لدينا خيامنا الخاصة، لذلك لم يزودنا الجيش الإيطالي بأيٍّ منها.

النقطة المهمة هنا هي أن الجيش الإيطالي لم يوفر حتى البنية التحتية للمعتقلات واستغل الناس وأموالهم وقطعانهم وطعامهم، وأخيرًا عندما فقدوا حيواناتهم ونفدت إمداداتهم القليلة من الطعام، تركوهم يموتون جوعًا. بعبارة أخرى: من الضروري ربط الموت الجماعي للمعتقلين بإهلاك وإفناء ومصادرة الحيوانات والقطعان، فقد تعرّض الإنسان والحيوان للإبادة الجماعية.

ويسد التاريخ الشفوي للناجين الثغرات الموجودة في الأرشيف الرسمي لما حدث أثناء الرحلان، والترحيل إلى المعتقلات، والاقتلاع والإرهاب، وقتل وسرقة مصدر بقائهم على قيد الحياة، حيواناتهم. ويلقي السرد الضوء على العامل المهم؛ إفقار الناس عبر حرمانهم من ثروتهم ومصدر غذائهم وبقائهم الاقتصادي. علاوة على ذلك، فقد أسهمت في صدماتهم العاطفية والثقافية، حيث كانوا ينظرون إلى حيواناتهم، وبخاصة الإبل، كبشر وليس مجرد حيوانات يستخدمها الإنسان كسلعة رأسمالية. التاريخ الشفوي للناجين مليء بالتعبيرات الحية عن هذه الخسارة الثقافية والصدمة، ويعطي الشعر الشعبي المحفوظ تأبينًا مؤثرًا لألم فقدان

حيواناتهم المحبوبة.

باختصار: ازداد القتل الجماعي للناس سوءًا عندما هلكت حيواناتهم. بدونها لم يستطيعوا الحصول على الطعام وحُرموا ثقافيًا من رموز مهمة لطريقة حياتهم. ويتخلّل الحداد والحزن على فقدان القطعان كل التاريخ الشفوي، والشهادات، والشعر. وتحكي كل قصيدة قصة حياة طيبة، وارتباطًا ماديًا وثقافيًا مع الحيوانات المحبوبة قبل المعتقلات. قال أحد الشعراء في معتقل سلوق: "نحن مسجونون في سلوق، محبطون ومكتئبون، ولا مكان نذهب إليه، ولا أغنام من حولنا لإسعادنا". حدث هذا التدمير تدريجيًا. هلكت الحيوانات وأصبحت أولى ضحايا الإبادة الجماعية الاستعمارية، وسرعان ما تبعها أصحابها. مات الآلاف من الحيوانات والبشر بين عامي 1928 و1934. لذلك مثّلت الإبادة الجماعية الإيطالية موتًا جسديًا وثقافيًا لضحاياها. كانت السياسة الاستعمارية الإيطالية رائدة في أول استخدام، في عام 1911، للقصف بالطائرات في الحرب. وكانت أول مرة تُستخدم فيها الطائرات للاستطلاع وإلقاء القنابل على المقاتلين والحيوانات. كان الجيش الفاشي رائدًا في مفهوم الحرب الشاملة التي تضمّنت العقاب الجماعي، والنفي، وتدمير المحاصيل والحيوانات، والشنق العام، واستخدام الغازات السامة في عام 1928، والترحيل الجماعي والمعتقلات في ليبيا.

إعادة تشكيل تاريخ الإبادة الجماعية

قراءة لكتاب

“الإبادة الجماعية في ليبيا: الشر، تاريخ استعماري مخفي”

للباحث: علي عبداللطيف حميده

فؤاد المغربي

ترجمة: نافع الطشاني

يمثل كتاب “الإبادة الجماعية في ليبيا” إضافةً مهمةً إلى دراسات الاستعمار الاستيطاني، والإبادة الجماعية، والتاريخ الليبي، والفاشية، حيث يتمحور الكتاب حول الاستعمار الإيطالي لليبيا منذ بدايته في عام 1911. فعندما وصل الفاشيست إلى السلطة في عام 1922 لم تزد وتيرة الاستيطان إلا حدةً، ساعيةً إلى توطين الإيطاليين في هذا البلد شمال الأفريقي. وبطبيعة الحال، انطلقت المقاومة المحلية لهذا الاستعمار الاستيطاني على الفور تقريباً، واشتد أوارها بشكل عام في الجزء الشرقي من البلاد تحت قيادة الحركة السنوسية. كان قائد المقاومة هو الزعيم ذو الشخصية الآسرة عمر المختار الذي اشتهر بـ “أسد الصحراء”. ردًا على هذه المقاومة الشرسة، بدأ الإيطاليون في عام 1929 في ترحيل السكان قسراً من الشرق لحرمان المقاومة من الدعم المادي. تتراوح التقديرات لأعداد المعتقلين، لكن ما يقرب من 110,000 ليبي، أي حوالي ثلثي عدد سكان برقة، تم ترحيلهم

إلى 16 معسكر اعتقال، أو ما يجدر وصفها بمعسكرات الموت. لم ينجُ منهم في النهاية سوى 40,000. بلغة اليوم كان هذا إبادةً جماعيةً.

من باب العلم بالشيء علينا أولاً أن نبدأ بالنظر في تعريف مصطلح الإبادة الجماعية. يقتبس المؤلف من أبي دراسات الإبادة الجماعية الحقوقي البولندي رافائيل لمكين، الذي خُلِّدَت مساهمته في المادة الثانية من اتفاقية الإبادة الجماعية، حيث يُعرَّف لمكين عنصرين أساسيين لها، أولهما: "قصدُ القتل، وثانيًا سياسة تدمير أنماط الحياة المادية والثقافية والبيولوجية" (ص3).

عمل المؤلف علي حميده ما يقرب من عشر سنوات على تأليف هذا الكتاب، قضاها في الترحال بين ليبيا وإيطاليا ومصر وتونس لدراسة الأدلة الأرشيفية، حيث اكتشف أن الإيطاليين إما أخفوا أو أتلفوا الكثير من السجلات الأرشيفية التي تؤثِّق ما فعلوا في معسكرات الاعتقال كما قاموا بوضع العقبات في طريقه. لو أن أي باحث آخر واجه نفس المشاكل التي واجهها حميده كان سيتوقَّف في مرحلة ما، ولكن ليس مؤلفنا، فقد شَقَّ بهمة طرقًا أخرى ليستمر في بحثه عن الإبادة الجماعية في المعتقلات.

مما أثار حيرتي عند قراءتي هذا العمل هو لماذا لم يرد ذكر الإبادة الجماعية الاستعمارية الإيطالية في ليبيا وأثيوبيا في أعمال الفيلسوف الإيطالي الكبير جورجيو أغامبين. فأطره المفاهيمية كالحياة العارية والحالات الاستثنائية حَقَّقها بشكل صارخ الاستعمار الإيطالي لليبيا ونَقَّذها فيها، ومع هذا تكاد تغيب هذه الحقيقة الخسيسة تمامًا عن المشهد الأكاديمي الإيطالي وثقافته الشعبية. يرينا حميده كيف ساعد الموظفون الإيطاليون باستخدامهم نمطًا

منظمًا من إخفاء وإتلاف الملفات التي تدينهم والتلاعب بها، ساعدوا في النهاية على ترويض أسطورة "الشعب الإيطالي المحترم" المعروفة باللغة الإيطالية بعبارة "إيتالياني برافا جينتي"، أو ما معناه أن الإيطاليين كانوا مستعمرين "طيبين" و"محترمين" (ص 167).

كما بيّن حميده أيضًا كيف أن الجنرالات النازيين الذين زاروا ليبيا في مناسبات عدة انتهى بهم الأمر إلى استخدام نفس التقنيات في بناء معسكرات الاعتقال في أوروبا، أو بعبارة أخرى: صارت الإبادة الجماعية في أفريقيا مختبرًا للهولوكوست الأوروبي.

من الأعمال التي ألهمت بحث حميده الراقى هذا كتابات حنا آرنت ومايك دايفيز ومحمود مامداني وجيمس سي سكوت، كما يمكن للمرء أن يرى أفكار فرانز فانون وإدوارد سعيد ترفرف على النص، وكذلك رؤى جورجيو آغامبين وميشيل فوكو وغيرهم.

الكتاب رحلة اكتشاف: اكتشاف للنفس، لليبيا وتاريخها؛ واكتشاف للفاشية الإيطالية وقسوتها الاستعمارية الخفية، فهو مكتوبٌ من منظور الضحايا الذين صارت أصواتهم مسموعة الآن. تحطّم منهجية البحث الحدود، المصطنعة دومًا، بين فروع العلوم الإنسانية وتغوص في التاريخ الشفوي والنقد الأدبي، بالإضافة إلى العلوم الاجتماعية. ويُمكنني أن أقولَ بكلِّ جُرأة، وبدون أي مبالغة، أن هذا العمل تتردّد فيه أصداء أعمال عالم شمال أفريقي آخر، ألا وهو ابن خلدون.

في القرن التاسع عشر، ومع صعود القوة الأوروبية، وضع تصنيف سكان العالم البيض "طبيعيًا" في القمة. وكانت جميع الأعراق الأخرى أقل قيمة،

وبالتالي يمكن الاستغناء عنها أو التضحية بها. فاعتُبر السكان الأصليون مُتوحشين ورُحلاً لا جذور لهم، وبالتالي يمكن ترحيلهم بسهولة أو القضاء عليهم لإفساح المجال أمام المستوطنين البيض. ينطبق هذا بشكل كبير على أمريكا المعاصرة، حيث يجب أن يُدَّكر الناس بأن حياة السود فعلاً مهمة [في إشارة إلى حركة "بلاك لايف ماترز" المدنية الأفريقية-الأمريكية]. وفي فلسطين، تعدُّ حياة يهودي واحد أهم من حياة العديد من الفلسطينيين. يمكننا أن نستمر في ضرب أمثلة كهذه واحداً وراء الآخر. لهذا لم يكن مفاجئاً أن الإيطاليين من كل الأطياف الأيديولوجية لم يعتبروا حياة القبائل شبه الرُّحَل في شرق ليبيا ذات قيمة تُذكر. لم يتوقَّع الصهاينة ولا الفاشيست الإيطاليون صلابة مقاومة السكان الأصليين لمشاريعهم الاستعمارية الاستيطانية. لكن يبقى السؤال: من أين جاءت هذه الصلابة؟ كيف يمكننا تفسير مستوى التضامن العالي بين السُّكَّان شبه الرُّحَل المتناثرين في جميع أنحاء هذه الصحراء القَطَّة القاسية؟

في الحالة الليبية، يفحص حميده دور الحركة السنوسية الفريد، العمود الفقري الاجتماعي لمقاومة الاستعمار الإيطالي. ارتبطت الحركة التي أسَّسها الجزائري محمد بن علي السنوسي في عام 1837م في مكة، في المملكة العربية السعودية، ارتبطت بالصوفية وأفلقها تدهور الفكر الإسلامي، وكذلك التهديد المتزايد للغرب المادي. كان الإمام السنوسي قد درس في الجامع الأزهر بالقاهرة، وأسس بعدها زاويته الأولى في جبل أبي قبيس قرب مكة. ويبدو أنه قد واجه مشاكل مع الوهابيين الذين أجبروه في النهاية على المغادرة لينتقل إلى برقة في ليبيا في عام 1843م حيث

أسس الزاوية البيضاء. قاتل السنوسيون بين عامي 1902م و1913م التوسع الاستعماري الفرنسي في شمال أفريقيا، كما قاتلوا الاستعمار الإيطالي الذي بدأ في عام 1911م. وبحلول عام 1923م تمكّن السكان الأصليون المتمردون المرتبطون بالطريقة السنوسية من استخدام هذه الحركة الاجتماعية التجديدية لتنظيم المقاومة الليبية ضد المستوطنات الإيطالية.

يبدو أن مقاومة الليبيين كانت شديدة لدرجة أن القادة العسكريين الإيطاليين قاموا، بالإضافة إلى حشر الناس في 16 معسكر اعتقال (موت)، بردم آبار المياه ومصادرة قطعان الماشية وإغلاق الحدود مع مصر وإلقاء المتمردين من الطائرات. في النهاية أُسر عمر المختار وشنق في 11 سبتمبر عام 1931م في معسكر اعتقال سلوق أمام 20,000 من المعتقلين الذين أجبرهم الإيطاليون على حضور عملية الإعدام. حوُصر أربعة من قادته عند الحدود المصرية؛ مات أحدهم، وأُسر اثنان، بينما تمكّن الرابع من الهرب إلى مصر، وبهذا انتهت المقاومة.

يقول حميده إنه أجرى الجزء الأكبر من بحثه في ليبيا حيث اكتشف مادة أصلية عن الليبيين المعتقلين، في الأرشيف الوطني والعائلي الخاص، فقد تمكّن من إجراء مقابلات مع 30 من الناجين من المعتقلات والقيام بعدة زيارات حقليّة لمواقع معسكرات الاعتقال بين الأعوام 2000م و2015م، حيث أشار إلى أهمية المركز الليبي للدراسات [المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية] في طرابلس، موقع أحد أبرز مشاريع التاريخ الشفوي في العالم، فقد اكتشف المؤلف أن لدى المركز تسجيلات لمقابلات مع

220 ناجيًا من المعتقلات، غير أنه يؤكد بحزن أن الدولة الليبية الحديثة فشلت في المحافظة على مواقع معسكرات الاعتقال وصيانتها، وبذلك تكون قد أسهمت في تهميش تاريخهم.

نتيجة عدم تمكنه من إيجاد مادة كافية في السجلات الرسمية، لجأ الباحث إلى تحليل الإرث الشفوي ودور الشعر في الإبقاء على التاريخ حيًا، فعلى ما يبدو كان هناك المئات من الشعراء والشاعرات في برقة، إلى درجة أننا يمكننا أن نتحدث عن مجتمع كامل من الشعراء. خَلَّدَتْ إحدى هذه القصائد الملحمية معاناة الشعب في معسكرات الاعتقال وهي قصيدة "ما بي مرض غير دار العقيلة" للشاعر رجب بوحويش التي ذاع صيتها بين الليبيين ويقرأها طلبة المدارس. كان الشاعر قد اعتقل في معسكر العقيلة، الذي خصص بشكل عام لأقارب مقاتلي المقاومة. وقد نقلها الشاعر الليبي خالد مطاوع إلى اللغة الإنجليزية في ترجمة رائعة (ص xiii). يقول مطلع القصيدة التي يحفظها أطفال المدارس الليبيين:

ما بي مرض غير دار العقيلة
وحبس القبيلة

وبعد الجبا من بلاد الوصيلة (ص 186)

يصف الشاعر في هذه القصيدة الفظائع والآلام والحنين للأوطان، ويصف كل هذا بكرامة وشرف، كما نظّم شاعرٌ ليبيٌّ آخر؛ أحمد رفيق المهدي، قصيدة كبرى أخرى عنوانها "غيث الصغير" يتحدث فيها عن أثر معسكرات الاعتقال على الأطفال، كما يجدر بنا ذكر وجود عدة شاعرات مهمات بما فيهن أم الخير عبد الدايم وفاطمة عثمان صاحبة قصيدة "خرايين يا وطن"

التي تقول في مطلعها:

خرابين يا وطن ما فيك والي

وذيلك جوّالي

ولخرين في المشنقة والقتالي

خرابين يا وطن ما فيك هل

ركبك الذل

اللي ما جلا، في المشانق حصل (ص98)

كان على حميده التغلب على التوجس الطبيعي لدى الناس من الباحثين الذين يمكن أن يكونوا على علاقة بالحكومة، وأنهم يقومون بجمع معلومات قد تستخدم ضدهم. وهذا هو حال جميع دول العالم العربي وغيرها حيث تسيطر الأنظمة القمعية، إلا إن حميده لحسن الحظ نجح في الامتحان عندما اكتشف الناس أنه ينحدر من عائلة عريقة عرفت بمشاركتها في المقاومة ففتحت له الأبواب واستقبله الناس.

ذكر حميده في كتابه أنه نتيجة للموت والنفي، انخفض عدد سكان ليبيا من 1.5 مليون عام 1911م إلى ما يقرب من 779,072 في عام 1934م. تم إطلاق سراح الناجين من معسكرات الاعتقال في أوائل 1934، لكنهم بعد ذلك وضعوا تحت الرقابة لمدة عامين، كما لم يُسمح لهم بالعودة إلى أوطانهم لأن أراضيهم كانت قد منحت للمستوطنين الإيطاليين. المقابلات مع الناجين من المعسكرات تقطع أوصال القلوب. فعلى سبيل المثال: "رأيت عائلتي تموت أمام عيني. لم يبقَ على قيد الحياة بعد الاعتقال إلا أنا وأمي وإخوتي. صرت يتيماً وتم تجنيدي في الجيش الإيطالي في حرب

الحبشة. كان عمري 15 عامًا“.

يقدم لنا المؤلف وصفاً مفيداً لنشوء الدولة الليبية الحديثة، أولاً تحت الحكم الملكي ثم الجمهورية التي أسسها ضباط الجيش في عام 1969م بقيادة القذافي، ثم يؤرخ حميده بعد ذلك للثورة التي أطاحت بالقذافي والتفكك الذي تبعها.

ينقح كتاب “الإبادة الجماعية في ليبيا” بشكل دراماتيكي تاريخ الاستعمار الاستيطاني، والفاشية، والإبادة الجماعية، بما فيها دراسات الهولوكوست. يجب أن يقرأه كل من يريد أن يعرف عن ليبيا وتاريخها. لا يمكن أن يفهم المرء ما يحدث في البلاد في عام 2021 ما لم يقدر الندوب العميقة التي أصابت الشعب الليبي. ولا يمكن أن نقوم بهذا عن طريق النظر إلى المنطقة عبر عدسات علم الاجتماع الغربي التقليدي. لا يتحدّى هذا العمل الفريد الذي صُنع بمحبة علي عبد اللطيف حميده الأنماط الفكرية الغربية فحسب، بل يرينا أيضاً كيف يمكن القيام بمنهجية نزع الاستعمار، وأخيراً قام شخص ما بكتابة عملٍ رائعٍ يكرّم به ذكرى أولئك الذين فقدوا حياتهم خلال تلك السنوات المأساوية.

في نقد المعرفة الاستعمارية والنخبوية: عن التاريخ الاستعماري في ليبيا، وما بعد الاستعمار حوار مع الدكتور "علي عبد اللطيف حميده"



الدكتور علي عبد اللطيف حميده

يسعى فريق الغرفة (211) إلى الاقتراب أكثر من زاوية نظر الدكتور علي عبد اللطيف حميده، عبر محاورته عن تجربته البحثية المتعلقة بالمعتقلات الفاشية في ليبيا، وكتابه "الإبادة الجماعية في ليبيا، الشر، تاريخ استعماري مخفي"، وجوانب مختلفة، منها الخلفيات النظرية المصاحبة لعملية التحقيق الميداني. أجرى الحوار رئيس تحرير الغرفة (211)، الشاعر والأكاديمي خالد المطاوع، في أبريل 2023.

الغرفة 211: لنبدأ بسؤال يتعلّق بالاختصاصات، فأنت أستاذ العلوم السياسية وتحصّلت على دكتوراه في هذا المجال، وأسست قسم العلوم السياسية في جامعة نيو إنغلاند، وتدرّس دورات في النظريات السياسية هناك، لكننا نجد عنصرًا تاريخيًا قويًا في عملك بداية من أول دراسة لك، "المجتمع والدولة.. الاستعمار في ليبيا"؛ هل لك أن تخبرنا عن مصدر هذا المكوّن التاريخي القوي في عملك؟

حميده: هذا صحيح، وغالبًا ما أفكر في اختياري الأكاديمية وبحوثي ودراساتي على أنها خارجة عن سائد العلوم الاجتماعية وخاصة العلوم السياسية. بالنسبة لي، لم تكن كتابة التاريخ مأخذًا تجريبيًا في العلوم السياسية، بل كانت عبارة عن فحص نقدي أكبر لمعرفة فاعلية الأفراد في تقاليدهم المناهضة للاستعمار، في نضالهم وتخيلهم المستقبلي للحكم الذاتي. ويعود ذلك أولاً- إلى المشاركة المباشرة للعديد من أفراد أسرتي في المقاومة الليبية ضد الاستعمار، والتي كان لها تأثير كبير في تربيتي، حيث كان أجدادي من المقاتلين من أجل الحرية وأحدهم، الجد علي السنوسي، روى لي قصته عدة مرات. أصبحت مفتونًا ومهتمًا بقراءة التاريخ الاجتماعي الاستعماري منذ سن مبكرة في وسط وجنوب ليبيا. عندما غادرت للدراسة الجامعية بالقاهرة ثم إلى سياتل، واشنطن، بالولايات المتحدة، حملت هذا الاهتمام الشخصي معي. ثانيًا- اخترت دراسة مجالات أخرى بالإضافة إلى العلوم السياسية في جامعة واشنطن فدرست التاريخ الأفريقي وعلم الاجتماع التاريخي والأنثروبولوجيا، ووجدت نفسي منجذبًا نحو التقاليد

النقدية التاريخية المتعددة التخصصات، وما بعد الاستعمار، والممارسات النقدية للمهمّشين (Subaltern Studies). ولم يكن مفاجئاً إذن أنني كتبت أطروحة حول تاريخ المقاومة ضد الاستعمار في ليبيا وجذورها الاجتماعية.

الغرفة 211: إلى أي مدى كان التركيز على التاريخ له علاقة بأنك تعمل بالولايات المتحدة حيث إن البحوث المتخصصة بليبيا نادرة؟ هل كنت ترغب في إعادة تعريف المصطلحات التي ينظر بها إلى ليبيا في مجال العلوم السياسية؟ إذا كان الأمر كذلك، فما المصطلحات/ النماذج التي تريد تغييرها؟

حميده: لقد كانت ليبيا للعديد من العوامل التاريخية والسياسية موضوعاً هامشياً تم تجاهله في الدراسات والبحوث المتوافرة في الغرب. أولاً- أوافق على أن هناك ندرة في الدراسات المخصصة لليبيا، فباستثناء عدد قليل من الباحثين، فالدراسات المتاحة إشكالية ومنمطية عموماً. حتى اليوم، ينصب التركيز على القذافي، والقبلية، والجهوية، والإرهاب، والتشرد، والتحديث. ولا يتم فحص الثقافة والتاريخ اللبيين من خلال ديناميكياتها وفعاليتها الخاصة، بل يتم اختزالها من خلال وجهات النظر الاستشراقية والاستعمارية للقبيلة التي ترى أنها ذات جوهر وطبيعة راکدة لا تتغيّر مع الزمن، أو يتم النظر إلى ليبيا ما إذا كانت تشبه تونس المتحضرة غربياً والناطقة بالفرنسية، وكذلك لا بد أن أضيف أن أعمال النخب العربية حول ليبيا مقصورة أيضاً مثلها مثل الدراسات الغربية. حفّزني هذا الوضع

المتردّي للدراسات الليبية على تأليف كتاب في عام 2013، والذي أسميته "ليبيا التي لا نعرفها". فيما يلي بعض الأمثلة عن المواضيع التي أفرزتها أيديولوجية القبلية في ليبيا في حقل الدراسات الليبية: ليبيا كمجتمع قبلي أبدي لا يتأثر بالتاريخ، دور زعماء القبائل، والسياسة القبلية، والهوية القبلية، الخ... هذا التمثيل الاستعماري للمجتمع والثقافة والسياسة تغفل الإبادة الجماعية الاستعمارية، والتحول الرأسمالي لاقتصاد ليبيا، والتحضر، والتعليم، ومحو الأمية، والهجرة، والتكوينات الطبقية والجنسانية. للأسف، تبني العديد من الأكاديميين والمفكرين العرب والليبيين هذه التصورات الاستعمارية والاستشراقية على أنها حقائق معطاة.

الغرفة 211: في مجال الدراسات الليبية، توجد فجوة بين البحوث والدراسات التي تتم في الخارج وما يحدث في ليبيا ومنطقة اللغة العربية، عمومًا. نظرًا إلى أن الكثير من عملك عن ليبيا تضمّن العمل على أرض الواقع، لا سيما في أحدث دراسة لك عن الإبادة الجماعية، ما التحديات التي واجهتها نظرًا إلى صعوبات البحث الأكاديمي في ليبيا؟

حميدة: في عهد القذافي، كان إجراء البحث داخل ليبيا صعبًا، ولم يُسمح إلا لعدد قليل من العلماء الغربيين بإجراء أبحاث، مثل ليسا أندرسون من الولايات المتحدة والهولندي ديريك فاندريوال. كان يُسمح بإجراء بعض البحوث عن الفترة الاستعمارية والجهاد المناهض للاستعمار. كان الدكتور محمد الجراري، مدير مركز البحوث والدراسات، داهية حكيماً. أعطى النظام الدعاية التي يحتاجها، لكنه تمكّن من بناء مركز أكاديمي من الدرجة

الأولى لمشروع التاريخ الشفوي. كان موضوع رسالتي للدكتوراة آمناً لأنه تعلّق بتاريخ المقاومة ضد الاستعمار، لكن النظام منع استمرار بحثي عندما تمّت ترجمة كتابي "المجتمع والدولة.. الاستعمار في ليبيا" إلى اللغة العربية عام 1994، وتم حظره، كما تم حظر كتابي الثاني "الأصوات المهمّشة: الخضوع والعصيان في ليبيا أثناء الاستعمار وبعده". بالنسبة لنظام القذافي كان التاريخ سلاحاً ومورداً احتكره، إذ كان التاريخ الذي ساند النظام في جوهر شرعيته، وأي وجهة نظر تتحداه، كما فعلت أنا منذ أكثر من 30 عامًا، يتم التشكيك فيها أو تجاهلها أو حظرها. فقط بعد عام 1988 والإفراج عن سجناء سياسيين بينهم العديد من أصدقائي؛ مثل محمد الفقيه، صالح وأحمد الفيتوري، وعمر الككلي، وجمعة بوكليب، وإدريس المسماري، وإدريس بن الطيب، سُمح لي بالزيارة وإلقاء محاضرات في المركز الليبي للمحفوظات والدراسات الليبية. بالنسبة للوضع الحالي، فهناك تحديات جديدة معقدة للباحثين الليبيين عمومًا اليوم، وهي لا تشمل فقط صعوبات إجراء البحوث في زمن الحرب والصراع، ولكن أيضًا تسييس الصراع بين المناطق والمدن والأيدولوجيات المتطاحنة في البلاد، أضف إلى ذلك البحوث التي تصدر في الغرب، والتي تركّز على الجانب الأمني وما يتبع ذلك من قناعات سياسية وحسابات استراتيجية وهي دراسات تموّلها الدول الغربية والعربية أيضًا.

الغرفة 211: بالإضافة إلى اهتمامك بالتاريخ، فقد شرعت بالعمل بطريقة متعدّدة الاختصاصات، حيث يغطّي عملك الأدب والثقافة والمجتمع

المدني بالإضافة إلى التطورات السياسية والتاريخ، وليس فقط في ليبيا، بل وأيضًا في منطقة المغرب الكبير والساحل. كيف اندمجت هذه التخصصات والاهتمامات، وكيف أثبتت أنها مركزية في عملك عن ليبيا؟

حميده: أولًا- تأثرت طفولتي في جنوب ليبيا باستقلال ليبيا، وثقافة الأسرة العربية والإسلامية، ولكن خارج الأسرة في الفضاء العام، أساتذتي، وحملات المقاطعة، وفرقة الموسيقى في المدرسة الإعدادية والثانوية، والراديو، وسينما الاتحاد في مدينتي سبها كلها أثرت في طفولتي وعرفتني على حرب الجزائر من أجل الاستقلال والقضية الفلسطينية. كنت لبييًا عربيًا ومسلمًا، ولذا كانت هويتي متجددة ومتجانسة في الستينيات والسبعينيات. ثانيًا- كوني ترعرعت في فزان، جنوب ليبيا، جعلني مدرّكًا للصلات والروابط مع أفريقيا من خلال الهجرة والتجارة والحدود المفتوحة والمنفى. لجأ جدي علي إلى تشاد بعد هزيمة المقاومة عام 1930، هرب مع جدي. والدتي ولدت في تشاد، كانت لغتها العربية لكنها اكتسبت من الثقافة المحيطة بها، حتى أنها كانت تجيد الطبخ الليبي والتشادي أيضًا. لطالما شعرت أننا -الليبيين- مرتبطون بأفريقيا وشعرنا بأننا في وطننا مع الأفارقة الآخرين. يمكن لهذه الخلفية الإقليمية والعائلية أن تفسّر قراري لدراسة التاريخ الأفريقي وليس الشرق الأوسطي وتعميق معرفتي بأفريقيا لدرجة أنني قمت بتحرير كتاب ينتقد وجهة النظر الاستعمارية للصحراء باعتبارها فاصلًا ومساحة فارغة قبلها علماء الغرب والشمال الأفريقيين كذلك. ثالثًا- جئت لدراسة العلوم السياسية عن طريق الأدب لأنني في المدرسة الثانوية بدأت في كتابة ونشر القصص القصيرة والشعر، منها في مجلة "آفاق

ثقافية“ التي أسهمت في تكوين جيل الكتابة الإبداعية في السبعينيات. لقد كنت دائماً منغمساً بعمق في العلوم الاجتماعية الغربية والتقاليد المحلية التي مكنتني من أن أكون ناقداً وقادراً على المشاركة والتحاور. أجلب هذا التراث الشخصي ووجهات النظر المتعددة التخصصات لدراسة ليبيا الحديثة والمغرب، ولجمع التنظير السياسي والتاريخ والأنثروبولوجيا في أسلوب نقدي واحد. أعتقد أن العلوم الاجتماعية لا يمكنها التقاط بعض الجوانب العاطفية والفردية لمجتمع ما إلا من خلال فحص الشعر والروايات والأدب. في حالة المجتمع الليبي، فأسلوبه في الاتصال والتعبير يعتمد على الشعر والشفهية. ومع ظهور الرواية الحديثة بعد عام 1960، يمكننا الآن أن نفهم كيف حلل الشعراء والأدباء الليبيون مجتمعهم وتخيّلوا مستقبلاً أكثر مساواة وشمولية بشكل يتعدى القومية وتأثير الاستعمار.

الغرفة 211: في بحوثك في التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية في ليبيا وشمال أفريقيا استعنت بالتنظير ما بعد الاستعماري، وكذلك في بحثك حول الإبادة الجماعية في ليبيا. كيف ساعدك هذا الطيف النقدي على إلقاء ضوء مختلف للتحقيق في التطورات السياسية والثقافية في ليبيا والمنطقة بشكل مختلف؟

حميده: كانت خبرتي هي الفترة الاستعمارية في أفريقيا والمغرب الكبير، وفي العقدين الماضيين ركزت على دراسات الإبادة الجماعية. سمحت لي هذه المعرفة برؤية الاستمرارية والتغيير بعد استقلال دول آسيا وأفريقيا، وأني كنت قادماً من مجال الدراسات الأفريقية كنت منفتحاً على دراسات

نقد المهّمّشين القادمة من الهند، حتى أنني نشرت ردّاً على مقال غاياتري سبيفاك الكلاسيكي "هل يستطيع المهّمّش أن يتكلم؟"، والذي أسميته "عندما يتكلم المهّمّش"، وتم نشره في مجلة الدراسات الإيطالية. أشارك مع هذا النهج في نقد المعرفة الاستعمارية والنخبوية والميكانيزمات التي تعيد بها النخب الوطنية تدوير الافتراضات والتصنيفات الاستعمارية وترسيخها في أوطانها. ليس من المستغرب أن المراجعات العربية لدراساتي ما تزال سطحية إذا ما قورنت بالتقييمات الأخرى من قبل الزملاء الأفارقة وغيرهم من الدول التي كانت مستعمرة. داخل ليبيا، المؤرخون وعلماء السياسة لا يستسيغون تقييم أعمالي لأن معظمهم يعتبرون أحادية التخصصات الأكاديمية والفصل فيما بينها أمراً مفروغاً منه. كتابي الجديد عن الإبادة الجماعية في ليبيا يبني على أعمالي السابقة، ولكنه سمح لي بالتحقيق في صراع التذكر والصمت عندما ننظر إلى حقبة ما بعد الاستعمار، وهذه حرّرتني لكي أرى بعض الترابط المباشر وغير المباشر بين عناصر متعدّدة. القومية الليبية بناء حديث مثل كل القوميات بما في ذلك القوميات الغربية، وكلها تكوّنت نظراً إلى عاملين رئيسيين: الاستعمار والرأسمالية المدعومة بوسائل طباعة ونشر المعلومات (print capitalism). وهذان العاملان ينطبقان على ليبيا، أولاً- الغزو والاستعمار الإيطالي الغاشم بين 1911-1943، الذي اخترع اسم ليبيا نفسها، ثم الرأسمالية المدعومة بوسائل طباعة ونشر المعلومات عبر القصص القصيرة والروايات والصحف مثل اللواء الطرابلسي والمنار والأهرام في ليبيا وبين المنفيين الليبيين في مصر وتونس وسوريا، وكذلك الشعر الحديث مثل أحمد رفيق وأحمد الشريف، بالإضافة إلى القصص القصيرة والروايات مثل "مبروكة" لظافر بن موسى،

وكتاب صادق النيهوم "من مكة إلى هنا". ساعدت كلتا القوتين الحديثتين في اختراع القومية الليبية، ومع ذلك فإن الدولة الليبية الحديثة التي تم اختراعها في عام 1951 كملكية دستورية فيدرالية، واستبدلت بجمهورية في عام 1969 عن طريق الانقلاب العسكري، كانت مليئة بالتناقضات بسبب الإمبريالية وفشل دولة ما بعد الاستعمار في بناء مؤسسات جامعة شاملة يعتمد عليها، والتي تفجّرت بالكامل في عام 2011. لقد جادلت لفترة من الوقت أن القومية الليبية لا تزال قوة ثابتة ضمن الليبيين على الرغم من فشل دولة ما بعد الاستعمار.

الغرفة 211: في أمريكا وفي العالم العربي، هناك نقص معرفي عام بشأن الإبادة الجماعية التي حدثت في شرق ليبيا. وحتى في ليبيا تبدو الإبادة الجماعية وكأنها حقيقة لم تسجّل تمامًا في وعينا. ما الذي دفعك إلى القيام بهذا المشروع؟ خاصة أنه كان فصلًا آخر من تاريخنا يتجه نحو النسيان.

حميدة: كنت ساذجًا في البداية حين اعتقدت أن هذا الفصل العنيف من التاريخ الاستعماري والفاشي معروف بطريقة ما. كنت مخطئًا واكتشفت كذلك أن الأمر كان غامضًا في معظم أنحاء ليبيا، وقد تم استبعاده من الدراسات العربية والغربية الحديثة. أدركت فقدان الذاكرة الجماعي هذا عندما دُعيت لأحاضر في أفضل الجامعات الأمريكية بعد نشر كتابي "أصوات منسية" في عام 2005، ثم بدأت في التحقيق فيما حدث ولماذا أخرجت هذه الحالة من الدراسات الحديثة. استغرق الأمر عقدين من الزمن.

الغرفة 211: من المفترض أن تكون فكرة معسكرات الاعتقال قد نشأت

في حرب البور في جنوب أفريقيا، حيث تشير السجلات إلى مقتل 154000 من البور والأفارقة. تشير الأدلة التاريخية أيضًا إلى أن إسبانيا اخترعت هذه الممارسة في كوبا حيث احتجز الإسبان مئات الآلاف من سكان الريف في المدن التي يسيطرون عليها خلف الأسلاك الشائكة، وهي استراتيجية سميت بالـ (reconcentración) أو إعادة التكتيف. يبدو أن هذا وثيق الصلة مباشرةً بالسياسة الإيطالية في شرق ليبيا. تقوم في كتابك بتوسيع هذا التعقب التاريخي مقررًا بأن ما حدث في ليبيا يمكن مقارنته بمسار الدموع والتهجير القاسي لهنود الشيروكي في أمريكا إلى أوكلاهوما، فضلًا عن أن ما جرى في ليبيا كان نذيرًا للهلوكوست. هل لك أن تحدثنا عن إعادة تمركز دراسات الإبادة الجماعية التي تريد أن تحدثها في هذا الحقل ودور تاريخ ليبيا المؤلم في إعادة تشكيل هذه السردية المأساوية.

حميده: يعكس صعود الفاشية في إيطاليا عام 1922 أيديولوجية عنصرية وعنيفة خاصة في ليبيا، المستعمرة التي تم تصورها على أنها امتداد لإيطاليا نفسها كشاطئ رابع، ومكان لتوطين الفلاحين الإيطاليين الفقراء بعد إفراغ الأرض من سكانها الأصليين. يجب أن نتذكر أن إيطاليا الفاشية كانت الدولة الفاشية الوحيدة التي كانت لديها مستعمرات بعد أن فقدت ألمانيا مستعمراتها في أفريقيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى. لقد درست حالات أخرى في أفريقيا وأوروبا والأميركتين، ووجدت أن الترحيل الجماعي القسري لأمة الشيروكي في القرن التاسع عشر وأمة الهيريرو في جنوب غرب أفريقيا في 1904-8 يشبه الحالة الليبية في عامي 1928 و1929. رغبت أن أعرف ما حدث، وأن أكتب هذه السردية لبقية العالم.

الغرفة 211: أيضًا، كما في حروب البور والإبادة الجماعية في ليبيا، اعتبرت القوى الاستعمارية دائمًا الأشخاص الذين ماتوا في المعتقلات أضرارًا جانبية للقتال مع المتمردين. يقودنا هذا إلى التساؤل عن ديناميكيات الاستعمار الاستيطاني في مقابل الاستعمار الكلاسيكي الذي لا يهدف إلى إزاحة السكان الأصليين. هل يمكنك تحديد كيفية تطور سياسة معسكرات الاعتقال في الحكومة الفاشية الإيطالية؟

حميدة: إن أيديولوجية النفي والقسوة الجماعية واجتثاث السكان الأصليين متجذرة في الاستعمار الإيطالي في عام 1912، حتى قبل صعود الفاشية. تم نفي المقاتلين الليبيين إلى المستعمرات العقابية لجزر جنوب إيطاليا، وكان البناء الضخم للمعتقلات الإيطالية في عام 1929 تويجًا لهذه السياسة. لهذا السبب، على الرغم من أسر الزعيم الأسطوري للمقاومة عمر المختار وشنقه في 16 سبتمبر 1931، استمر الاعتقال ليس من أجل العقاب، ولكن لتفريغ الأرض وتمهيد الطريق لأول مستوطنات ضخمة للإيطاليين، 20000 منهم في عام 1938، إذ يعود دعاة الإمبراطورية في إيطاليا إلى أواخر القرن التاسع عشر. برزت هذه الرغبة الاستعمارية لاستعادة مكانة الإيطاليين وسعيًا لمجد الدولة، لكن هزيمة الجيش الإيطالي على يد إثيوبيا في معركة عدوة عام 1896، وهجرة الكثير من الإيطاليين إلى الأمريكتين، كانت مهينة لهم. والحل الذي تم اقتراحه هو أن يكون لإيطاليا مستعمرات خاصة بها. دفع الفاشيون بعد عام 1922 بهذا المشروع إلى نهايته، وردّدوا: "إننا سوف نسحق المقاومة ونفرغ الأرض من أجل الاستيطان".

نعم، الإبادة الجماعية في ليبيا لم تكن مصادفة ولكنها جزء لا يتجزأ من الاستعمار الاستيطاني العنصري والفاشية عامة. علينا أن نذكر أن إيطاليا كانت الدولة الفاشية الوحيدة التي لديها مستعمرة، وأن الخطة هي توطين حوالي نصف مليون إيطالي في ليبيا. بالإضافة إلى ذلك، كان يُنظر إلى ليبيا من الناحية القانونية على أنها جزء من إيطاليا، حيث كانت فرنسا تنظر إلى الجزائر كجزء من فرنسا وليست مجرد مستعمرة. نفَّذ الإيطاليون خطتهم في عهد بالبو الذي جلب 20000 مستوطن في عام 1938، لكن هزيمة الجيوش الفاشية والنازية في عام 1943 أوقفت الخطة.

الغرفة 211: أحد العوامل التي ربما مكَّنت الإيطاليين من الإبادة الجماعية هو أن معسكرات الاعتقال وعمليات النقل القسري للسكان كانت تعتبر تصوُّفات إدارية حدائية مقبولة، ثم كان هناك الرأي البارز بأن الفاشية الإيطالية قوة حميدة، ولذا لم يتم إيلاء اهتمام كبير لفظائع إيطاليا في ليبيا، ولا يزال الصمت قائمًا بشأن وحشية إيطاليا الاستعمارية. ترى ما سبب ذلك؟

حميده: استمرار الصمت في إيطاليا اليوم هو عواقب مباشرة للتكثُّم الذي جرى خلال وبعد الحرب العالمية الثانية. قرَّر الحلفاء عدم محاكمة جرائم الحرب لأنهم قرَّروا التعاون مع الفاشيين الإيطاليين، وكذلك فشل النخبة الإيطالية بعد الحرب في منع الفاشيين من الرجوع للعملية السياسية الإيطالية، فحتى اليوم يتم تطبيع رئيسة وزراء فاشية. ما لا يعرفه معظم الناس أن التعليم الإيطالي لا يعترف بالفظائع الاستعمارية والإبادة الجماعية، كما أن الآثار

الفاشية، لا تزال موجودة في كل مكان في إيطاليا. بالإضافة إلى ذلك، فإن أسطورة الفاشية الإيطالية بأنها كانت مختلفة وإنسانية ما زالت مقبولة ضمن النخبة الإيطالية. كتابي عن الإبادة الجماعية في ليبيا يوضح هذه الأسطورة، وهو يعد محاكمة مؤجلة لمرتكبي جرائم الحرب الفاشية الإيطالية.

الغرفة 211: كيف تمكّن الإيطاليون من البقاء هادئين بشأن ممارسات الإبادة الجماعية، بينما كانت الدول الأخرى، ألمانيا، وإلى حدّ ما الولايات المتحدة وكندا، أكثر استعدادًا للاعتراف بماضيها العنيف؟ أيضًا، في المعاهدة التي وقّعها إيطاليا مع ليبيا، يبدو أنهم يعترفون بـماضي مليء بالذنوب - هل تعتقد أن هذا كافٍ، بالنسبة لنا كليبين ولهم؟

حميده: لم تكن هناك أبدًا محاكم جرائم حرب ضد الفاشيين الإيطاليين الذين كانوا وراء الفضائع والإبادة الجماعية في ليبيا، وأخرى في إثيوبيا ويوغوسلافيا. الحلفاء الغربيون الذين استغرقوا عامين لاحتلال إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية (1943-45) احتاجوا إلى الفاشيين الإيطاليين في الحرب ضد ألمانيا النازية، وكانوا أيضًا بحاجة إلى تعاون الفاشيين ولمواجهة شعبية الحزب الشيوعي الإيطالي بعد الحرب. وقبل كل شيء، العنصرية الأوروبية التي تنظر إلى الآخرين بأنهم بشر أقل.

الغرفة 211: بما أننا نتحدّث عن العنصرية، يكتب الناقد والشاعر الأنيتلي إيمي سيزير، بأن الحلفاء لم يروا جريمة هتلر في الهولوكوست بأنها جريمة

ضد الإنسان، بل لأن هتلر طبّق الإجراءات الاستعمارية التي حتى ذلك الحين كانت مقتصرة على شعوب أفريقيا وآسيا. هل تتفق مع وجهة نظر سيزير؟

حميده: نعم، بل وقد اقتبست من سيزير أيضًا، فسيزير وفانون وممداني محقون تمامًا في مواجهة العنصرية الاستعمارية المقبولة والمطبّعة بعمق في أوروبا منذ القرن التاسع عشر. علينا أن نتذكّر الأصوات النقدية التي فحصت هذه الأيديولوجية عميقة الجذور لتبرير الإمبراطورية والقهر في أعمال جوزيف كونراد، وحنة أرندت، وخاصة المتطرفين منهم، وأن ندرس الدراسات المهمة مثل كتاب السويدي سفين لوندكفيست "أعدمو كل المتوحشين" الذي تتبّع صعود الأيديولوجية الإبادية في أوروبا بين العلماء والباحثين في أوروبا قبل الفترة الاستعمارية في أفريقيا، لهذا السبب أجد الدراسة والتعليقات على الحداثة والتحديث بدون الحديث عن الإمبراطورية والإبادة الجماعية هي إعادة إنتاج للصمت وتكرار للمعرفة الاستعمارية. لنأخذ ليبيا كمثال، إذ كيف يمكننا الحديث عن ليبيا الحديثة دون أخذ الإبادة الجماعية على محمل الجد؟ تحقّق في صمت معظم الدراسات والخليات الفكرية عن ليبيا اليوم وستجد مجتمعًا بلا تاريخ أو فاعلية أو صوت!

الغرفة 211: رأي إيمي سيزير يعيد إلى الأذهان مفهومك عن إعادة تمركز دراسات الإبادة الجماعية. هل لك أن تصف للقراء في منطقتنا، حيث لا توجد دراسات ميدانية للإبادة الجماعية، هذا الحقل العلمي وتاريخه

وتطوره، وكيف يمكن لقصة الإبادة الجماعية في ليبيا أن تحدث تغييرًا جذريًا في الرواية الراسخة للإبادة الجماعية الحديثة؟

حميده: آمل أن يؤدي الكتاب إلى نقاشات وحوارات جديدة ليس فقط في ليبيا ولكن في إيطاليا وأوروبا، فهو لا يخص ليبيا فقط كحالة حزينة من ضباب الحرب! كما أننا عندما نتحدث عن إعادة التمرکز، فإننا نتحدث عن مواجهة افتراضات المركزية الأوروبية وتأصيلها لتفوق أوروبا وإضفاء الشرعية على الهيمنة والاستعمار ودونية للآخر غير الأوروبي. قدم كل من سيزير وفانون وغرامشي وسعيد وإريك وولف وممداني وأستاذي بيتر جران والراحل رفعت أبو الحاج انتقادات للمعرفة الاستعمارية. ما أدعي أنني قمت به هو تجاوز نقد سعيد للاستشراق والطبقية من أجل إلغاء المركزية الأوروبية. لقد نظرت بأن الآخر الذي ينظر إليه دونيًا من خلال عدسة الاستشراق والاستعمار اتخذ فاعليته وصوته كنقطة انطلاق، والأهم من ذلك، ربطت دراسة أوروبا بأفريقيا، ونظرت لضرورة دراسة كليهما معًا، وأن النضال يجب أن يكون ضد كلٍّ من الفاشية والعنصرية، فالهولوكوست لها جذور أفريقية، وأن الفاشية الإيطالية مصدر أساسي لإبادة جماعية تضاهي الألمانية، وأن هناك ثمنًا لتطبيعها.

الغرفة 211: تقترح في كتابك أن الحكومات الليبية التي تولّت السلطة بعد الحرب العالمية الثانية كانت مسؤولة عن دفن تاريخ الإبادة الجماعية في شرق ليبيا، ربما عن طريق الإغفال. لماذا كان هذا هو الحال؟

حميده: ليس بعد، ما لدينا في معظم مجتمعات ما بعد الاستعمار هو

بعض الكتب النقدية وطلبات الاعتذار والتعويضات، ولكن ليس سرّدًا جديدًا للمجتمعات غير الغربية من منظور ديناميكياتها الخاصة. لم يفحص الراحل إدوارد سعيد أو محمود منداني المجتمعات الأصلية والمحلية التي تم تطويقها تحت المنظور الاستشراقي والاستعمار. الاستثناءات الوحيدة في هذا الدمج التنظيري نجدها في رواية ما بعد الاستعمار، على سبيل المثال لا الحصر، أعمال الطيب صالح وأحمد إبراهيم الفقيه. كتابي الجديد هو محاولة لتنظير وإعادة بناء ثقافة ومجتمع السكان الأصليين. اختار العاهل إدريس تجنّب فتح هذه القضية الشائكة وركّز على التطوير والتحديث. تحدّث نظام القذافي بصوت عالٍ للغاية، لكن في الواقع تم تجاهل تاريخ معسكرات الاعتقال.

الغرفة 211: قدّرت أنت وباحثون آخرون أن ما يقرب من 60.000 ماتوا من الاغتيال والجوع والمرض في معتقلات الاستعمار الإيطالي في ليبيا. هل تعلم بأي محاولات لمعرفة أسمائهم؟ هل نعرف عدد الضحايا الذين تم تسجيلهم؟ أيضًا، عدد الناجين؟ ولماذا كان ذلك صعبًا جدًّا؟

حميده: لقد خضت معركة للعثور على أسمائهم منذ عام 2000. وجدت البعض منهم لكن الدولة الإيطالية ومسؤولي الأرشيف هناك ما زالوا يحجبونها. وجدنا قائمة لمعسكر واحد فقط، وأسماء بعض 10000 من المرحّلين إلى إيطاليا. ما زلت أعمل على هذا الموضوع!

الغرفة 211: لا يمكننا مناقشة معسكرات الاعتقال والإبادة الجماعية دون الإشارة إلى المصاعب الأكبر التي تواجهها النساء بشكل أساسي في جميع معسكرات الاعتقال تقريبًا، منذ شعوب الأمريكيتين حتى معتقلات اليزيديين تحت حكم داعش، وهكذا دواليك. بالنسبة لليبيا، هل أثرت رغبتنا لكتف الفضائح التي مرت بها سلفاتنا في إرادتنا لحفظ هذه الذاكرة المؤلمة؟

حميده: هذا صحيح، لأنها ما تزال من المحرمات في المجتمع الليبي. سألت عن حالات الاغتصاب والزواج القسري، لكنني وجدت القليل من الناس يتحدثون عنها. اكتشفت أن الدعارة وبيوت الدعارة انتشرت في بعض المدن الليبية في أربعينيات القرن الماضي نتيجة العنف الجنسي الذي مورس على النساء الليبيات، ووجدت كتابًا إيطاليًا واحدًا فقط حول هذا الموضوع، أرى أنه يجب أن يتم فحصه.

الغرفة 211: هل يمكن بناء الهوية الوطنية على الإبادة الجماعية؟ بأي طريقة يمكن أن تصبح تجربة الإبادة الجماعية الفاشية في ليبيا مساهمًا أساسيًا في ذاكرتنا وهويتنا الوطنية؟ ضع في اعتبارك أن المعتقلات كانت في جزء واحد من ليبيا، وكما يشير بحثك، فإن معظم الشباب الليبيين ليسوا على دراية بها.

حميده: نعم، لكنها ليست القضية العنيفة الوحيدة. لقد جادلت بأن التاريخ الليبي البطولي المناهض للاستعمار هو الذي شحذ تشكيل هويتهم والنضال من أجل الوحدة والاستقلال. أشك في أن يكون لهذا التراث نفس

التأثير الآن، حيث يقاتل القادة الليبيون في يومنا هذا بعضهم البعض على طول مدن ومناطق ليبيا وينهبونها. يؤلمني أن أرى ردود الفعل على الإبادة الجماعية من خلال وجهات النظر القاصرة هذه والمشبطة للذات الليبية عموماً، لكن ربما في المستقبل. آمل أن يمنح كتابي القراء الليبيين شيئاً ما ليكتشفوه عن أنفسهم جميعاً، ليس لمنطقة واحدة فقط أو لأجندات أنانية.

الغرفة 211: بعد سنوات قليلة من الآن، سنصل إلى الذكرى المئوية لمعسكرات الاعتقال في حين أننا بدأنا نفقد ذاكرتنا لها، مثل ما جرى مع مذبحة بو سليم وعمليات القتل الجماعي في الانتفاضة الراهنة. لماذا نحن كشعب ودولة غير قادرين أو غير راغبين في توثيق وإيجاد الحقائق حول مذبحة بو سليم، على سبيل المثال؟

حميده: نحن في حالة حروب أهلية ساخنة وباردة. نحتاج إلى رؤية جديدة وقادة جدد ومثقفين قادرين على الارتقاء بنا فوق الوضع الراهن واستعادة رؤية ليبيا الشاملة التي تحتضن الجميع. لا أرى هذا يحدث الآن، لكنني أعتقد أن ليبيا ستنهض مرة أخرى على المدى الطويل، ولن تتمكن من النهوض إلا إذا نجحنا في تحقيق السلام مع تاريخنا وثقافتنا. النضال العاجل لنا الآن هو أن يكون هناك سلام وأمن للمجتمع ككل، ثم المعركة المؤجلة الأكبر هي صنع السلام مع التاريخ ومع العنف الذي جرى. لقد اقترحت تشكيل مفوضية للحقيقة والمصالحة لكن مختلفة تماماً عما يتم الحديث عنه الآن.

الغرفة 211: ربما أكثر من أي وقت آخر، نجد صلة بين التاريخ والهوية،

وشعورًا بأن عدم الدقة والصمت والفجوات في معرفتنا التاريخية لبلدنا وشعبنا تسبّب تآكلًا في الهوية الليبية. إلى أي مدى ترى تاريخنا مرتبطًا بتشكيل الهوية الليبية؟

حميدة: ما يعطيني الأمل هو المقابلات مع الناجين وأطفالهم وأحفادهم الذين أبقوا ذكرى الإبادة الجماعية حية. يجب أن يكون هذا مصدر إلهام لجميع الليبيين اليوم. ربما تكون الأزمة اليوم من صنع نخبة أنانية فاسدة ومستعمرين جدد أجنب. لا يستطيع المرء الهروب من ثقافتنا وتاريخنا، لكن هذا لن يكون كافيًا. يحتاج المجتمع الليبي إلى سياسات تدعم البحوث المنهجية والدراسات والندوات، وكذلك النصب التذكارية والمتاحف الجادة لحفظ التاريخ، وبالنسبة للإبادة الجماعية، نحتاج إلى ترميم آثار المعتقلات، وأن تكون هناك مناقشات لا تستبعد أو تكتّم الأصوات المتنوعة حول هذا الموضوع. وقبل كل شيء على الليبيين الانفتاح على العالم الخارجي والبدء في التحدث مع أشخاص آخرين خاصة المجتمعات التي مرت بعمليات إبادة جماعية مماثلة أيضًا. كون كتابي عن الإبادة الجماعية قد تمّت قراءته دوليًا، أمل أن يكون هذا محفزًا لمزيد من الحديث وليس لنهايته عن المحرّمات في التاريخ الليبي الاستعماري وما بعد الاستعمار.

توثيق



أمي حين تسرد التاريخ

أحمد يوسف عقيلة

كثيرًا ما أطلب من أمي أن تحدّثني عن المعتقلات، فتغمض عينيها وتهزّ رأسها:

- سريب طويل، الله لا يعيده عَلَيَّ مسلم. كلينا الزنباع والزّينش، أصبح الواحد جلدًا عَلَيَّ عظم. كنا نلْمُوا بَعْر البِل؛ ناخذو حَبّات الشعير المَمْصُوصَة اللي في البعر نَحْمَصُوهن وناكلوهن، اسنين جُوع، حتّى الدّيب في الوديان جاع. في المَقْرُون كان عمري حَمَسَطاش وَلَا ستطاشّر سنة، لا أب لا أم. بوي مات في الحرب، أمي ماتت ونا في ظهرها، كنت نبكي علي سَدَادَة القِدر، قطعة عجينة سودا من الدخان. كل صبح يورّعوا علينا (الرّسّيون)، كل بيت قدح دقيق، الشبردق فيه أربع أفواه، كل فم تقابل فيه جَبَّانة، الدفن ليل نهار، اللي ما يموت من المشنقة يموت من الجوع، حتى في الليل يدفنوا على ضَيّ الفنار. وَينما يَخْطُم طَيْر حَمَام نبقوا نقولوا:

يا طَيْرًا ما شي لجبَلْنَا

قُول لَهَلْنَا

رانا في المَقْرُون نَزَلْنَا.

يقولوا لنا الكبار: ما عد عندكم شي هَل في الجبل؛ هَلْكُمْ كُلّهم في المَقْرُون. حدّثني أيضًا كيف كان الناس يُعَلِّمون أطفالهم القراءة والكتابة مستخدمين

فحم التُّور أَقْلَامًا! قبل أن تسمح لهم السلطات الإيطالية بالقراءة في مدرستها (السُّكُولا).

تقول ضاحكة:

- طائرتان إيطاليتان تحومان فوق الرحيل المُتَّجِه جنوبًا في منطقة (الحليقيمة)، هذا ما لا تملُّ روايته. في المقدمة محمد الهُنْكَري يرتجز وهو يُصَوِّب ناحية الطائرة:
حَوِّد يا طَيْر ... على أم الخير.

ومسعودة التي تفزع إلى الغناوة في أحلك الظروف، فتُحَرِّض الرجال على القتال:

هذول هم اللي يا عين ... يحاموك والنار والعة.

تقول أمِّي:

- طيحوا الرِّجَال طير أَفْرَنُوا فيه بالبنادق، الطير لآخر حام، توطًا ورَدَّ علينا البِل، طَيِّح بمبة قتلت عمَّك محمد عقيلة الهُنْكَري، قسماته نصَّين، رَدُّوا عليه في الليل ولَمَّوه ودفنوه.

تقول في حكاية أخرى وهي تشير إلى أثر الشظية في رقبتها تحت الذقن مباشرة:

- طَيِّح الطير بمبة عَلَيَّ نجعنا قتلت أمِّي مبروكة القندوليَّة، صادتني منها شَرِيكة في رقبتِي. رَدَّت عَلَيَّ عَمَّتْكَ أم الخير ربطت راسي بالحرمة وجلينا. رَدُّوا الرِّجَال على النجع، لقيوا وليَّة مقتولة راسًا مقطوع وعيَّلهَا عَلَيَّ صدرها ويرضع!

بعد رحيل الألمان في انسحابهم الشهير من العَلَمين إلى تونس مرورًا بليبيا؛ كانوا يتركون وراءهم الكثير من آلياتهم، قهرتها الصحراء قبل أن تعطبها الحرب، نشف وقودها، انثقت إطاراتها بفعل الحصى المُدَبَّب والصخور المُسَنَّنة، أو كانت أبطأ من آليات الإنجليز المُطاردة فتركوها، لم يتسع لهم الوقت لتدميرها.

يَمُرُّ رحيل البدو من أمام مراوّة، يقفز أحدهم فوق درّاجة نارية ذات ثلاثة إطارات، يحركُ فيها شيئًا فتنتطلق الآلة، يمسك بالمِقْوَد بكل حرصه على الحياة، تعلو صرخات النساء، يُذهل الرجال، تنفر الإبل، تجفل الحمير، تختفي الآلة الجهنمية خلف المرتفع، يبدأ صوتها في التلاشي. تعود مرةً أخرى، يصرخون له بأن يقذف بنفسه لكنّ الدّراجة تسير بسرعة مخيفة؛ فتختفي في الجهة الأخرى. تظهر ثانيةً، يتفتّق ذهن أحدهم عن حيلة فيصرخ:

- نزلوا الرّواق، نزلوا الرّواق من فوق النّافّة.

أنزلوا الرّواق، فكوا طيّاته، مدّدوه، نصبوه بينهم. يصرخ صاحب الحيلة مرةً أخرى لقائد الدّراجة الذي لم يكن يعرف أكثر من أن يُدير المقود فيتّجه ناحيتهم، نطحت تلك الآلة الشيطانية الرّواق، انقلبت، أطلقت أنينًا، دارت عجالاتها قليلًا في الهواء ثم سكنت.

- مالك ومال مخروبة النصارى، اللي مَي فرس بوك تَوْقَعَك.

بعض الآليات كالدبابات والعربات كانت مادة جيدة لصناعة المزامير، فعلى الرغم من كل القسوة التي يعيشها البدو فقد كانوا يجدون في أنفسهم القدرة على أن يزمروا فوق الخراب.



السيدة رجعة بنت يونس، والدة الكاتب أحمد يوسف عقيلة

ما تيسّر من سيرة نساء المقاومة والنضال الوطني

فاطمة غندور

”كثيرون كتبوا عن الحرب، لكنهم رجال كتبوا عن رجال... كل ما نعرفه عن الحرب نعرفه من خلال صوت الرجل، ونحن جميعًا أسرى تصوّرات الرجال وكلماتهم وأحاسيسهم عن الحرب، أما النساء فيلذن بالصمت، حتى النساء اللواتي كنّ في الجبهة يلذن بالصمت، وإذا بدأن الحديث فهن يتذكّرن حرب (الرجال) لا حرب (النساء)“.

(مقدمة سفيتلانا أليكسييفيتش في كتابها ”ليس للحرب وجه أنثوي“- ترجمة نزار عيون السود- دار ممدوح عدوان للنشر 2016).

مدخل لازم

عند أرشفة المرويات المُسجلة (صوتيًا) والمدوّنة لحركة المقاومة الوطنية، ومعارك الجهاد ضد الاستعمار الإيطالي، غُيِّبَت أدوار النساء فيها، واستُبعد طرح السؤال حولهن، جمعًا توثيقيًا، وبحثًا في سجل الذاكرة النضالية عبر ما صدر من سجلات الروايات الشفوية الميدانية، التي اختصّت بها مؤسسة حكومية وحيدة، حين منع النشاط المدني، وتم الحجر على مبادرات المؤسسات المستقلة، ظل تاريخهن في هذا المحك مهمشًا مقصيًا، ما عدا إشارات اضطلعت بعض عائلاتهن بتبيانها، سيرةً وصورًا مع خروج الوسائط التقنية، وذلك رغم تعدّد جبهات مفاعيلهن، إذ قاسين ظروف العيش

المضني في كل مسارات الحياة اليومية، فمع خروج الرجال المقاتلين إلى ساحات حرب قريبة وبعيدة ضد الغزو الفاشي الإيطالي أكتوبر 1911م، تحمّلن مسؤولية اقتصاد بيوتهن في زمن البؤس حيث الفقر المدقع، والمرض، والحصار، ورغم كل تلك العوامل المجحفة القاسية برزت منهن مقاتلات اخترن مواجهة المعتدي دفاعًا عن حياضهن، وصاحبات مواقف فيها إعلاء للصوت، ومفاعيل رافضة للهيمنة الاستعمارية، اعتمدت الرواية الشعرية، الوثيقة إلى يومنا هذا.

والنماذج التي تَرِد لاحقًا، لمن عاصرن واختبرن أقسى مرحلة فاشية، ممارسة للعنف، مع أول عقد الغزو الإيطالي ونهج الإبادة الجماعية، وحتى في عقد لاحق مع بروباقندا التعمير والتحديث، ما ظل مسكوتًا عنه، استخدمت فيه النساء في أوضاع زينة وبهجة أمام مصورين إيطاليين للترويج الدعائي، لمواجهة شعارها للعالم، التحديث وعصرنة البدو الليبيين! ما يراد بها إنتاج سردية تاريخية ناعمة، تمحو سيرة وحشية نحتت في النفوس وصم ممارسات القهر والضميم.

مقاومات وسط الميدان

ومما تواتر عن التاريخ الشفاهي، أسماء نماذج منهن ظلّت تتوارثها الذاكرة الجمعية، كالذي روي عن المُقاومة الشجاعة مبروكة العلاقية من مدينة صبراته غرب طرابلس، والتي عزّز والدها فيها قيم الفروسية والشجاعة، وقد ركبت الفرس، وللتمويه خلقت شعرها، ودخلت مع جمع المقاتلين، شاركت في معركة "جادو"، ومعركة "طويلة السوق" عام 1917. كانت

مبروكة تقاتل منفردة كامرأة، وتنصب الكمائن لعدوّها، أما الشاعرة والمجاهدة مبروكة الوكواك من المرج (شرق ليبيا)، فقد تواصلت وزوجها مع شيخ المجاهدين الليبيين عمر المختار، في قلب ملاحم الجهاد الوطني، فاعتُقلت وُجِّ بها وعائلتها في معتقل سلوق سيئ الصيت، ثم سُجنت لتحريضها المقاومين، وقيامها بمهام جهادية، كُلفت بها أثناء المعارك اعتمادًا على حيلها في التنقل بين المناطق المشتعلة.

وتجدر الإشارة أن في زمنهن امتلكت المرأة -وتحديداً في مجتمع البداوة والريف (وفيها الواحات)- روحاً معافرة وثقة بالنفس، وذلك لما حظيت به من وضعية مستقلة مكّنتها من ممارسة دورها في الفضاء العام، ووفق الأعراف السائدة، من منحى أدوارهن المعنوية في شحذ الهمم، وربط الدفاع عن الوطن بالدفاع عن العرض والشرف، وبتأثير موقعها الاجتماعي كمديرة بيت المعيشة، نماذج ذلك أن بعضاً من قبائل الشرق الليبي ينسب فيها الابن إلى أمه، وعند أعراف مجتمع الطوارق تتم وراثة السلطة في القبيلة عن طريق الأم، وفيهما تستقبل المرأة ضيفها في مناخ من الثقة تعزّزه أعراف الجماعة التوافقية، ومما عُرف من تقاليد يتأكّد لنا تمكين المرأة باختيار شريك حياتها، وذلك في ممارسة عُرفية، تسمى "مقاعد أصحاب الصوب"، حيث تجتمع الفتاة بشباب من قبيلتها، تجالسهم وتختبر معارفهم وحضور بديهتهم، سواء عبر نص شعري أو قول مأثور متبادل، وغالباً ما تطرح الفتاة لغزها، الذي يمنح فكه صك الفوز بقلبها لزوج المستقبل، والحضور شهود.

عين على الجبهة

وعن أدوارهن ضمن خطط المعارك وتسلم المهمات، ما رُوي عن حادثة معركة "أعليم الشيخ"، نسبة لكهف أعليم عام 1928، فمع اشتداد سعيير الحرب، وبه قصف الطيران الإيطالي على قرى الجبل الأخضر، وفي الأنحاء التي ضُمَّت مجموعات للمقاومين، وفيها عائلات قرَّرت المواجهة مع جنود العدو على الأرض، والعمل على تشتيت جهوده وإنهاكه، تفرَّقت العائلات مضطرة، وعلى رأسهم عائلة يونس بوقيقه، إذ شاركت زوجته مكاتب، وابنته مبروكة، في مهمة خطيرة، بجبهة متقدِّمة، فيها رصد ومعاينة لاتجاه سقوط القنابل، والإشارة فيها تتَّم للمقاومين لأجل التقدُّم لإبعادها قبل الانفجار، وقد أصيبت الزوجة برصاصات في ذراعها، فيما واصلت عائلات المقاومين وفيهن نساء، مسلك المواجهة رغم الخسائر في الأرواح بحكم تفوُّق جاهزية وعتاد العدو أرضًا وجوًّا، وكان أن وصل مدد المجاهدين ليحيط الأعداد القليلة من الجنود الإيطاليين التي تبنَّت تحاصر الكهف ومحيطه. (توثيق الرواية للباحث عبد العالي بوعجيلة، مقابلة مع المجاهد محمد فضيل العوكلي)

نصوصهن المُقاومة

النصوص هنا ما يجعلنا نعيد تفكيك وسبر ما مضى بأعينهن، وتعرِّفنا عن تاريخهن في محكِّ المواجهة، ما جرى نسيانه، تعابيرهن المعلنة مضمَّنة تمردهن ضد الاضطهاد، عن زمن ملكن فيه شجاعة البوح الغاضب، وبكون الشعر الشفاهي الوسيلة التراثية المتاحة للتعبير في محيطهن، أرَّخت

الشاعرات الشعبيات بأكثر من جغرافية ليبية، أدبيات ونصوصاً ملحمة، ما مثّلت شعر المقاومة الغاضب ضد الفاشية الإيطالية، وكشهادة حية بأصواتهن لكل تفاصيل الوجد والألم وممارسات القهر التي عايشنها، لشعرهن ارتباط وثيق بالقضية الوطنية حتى وحسيلة ما وثق منه ظل متناثراً، وإن ردّته الأفواه في مناطقهن إلى يومنا هذا، وقتها عزّز بين الناس معاني الإقدام والبطولة وقوّاه، كما مثّل دافعاً لالتحاق الرجال بصفوف المقاومة، ورفض المساومة مع العدو، نلمس دلالات ذلك فيما نظّمته الشاعرتان مريم الحجلا ورفيقتها بمعقل سلوق فاطمة الثقيبة (المصدر ديوان الشعر الشعبي- علي الساحلي، سالم الكبتي- منشورات جامعة بنغازي- 1993م)، ففي معاصرتهم مشهد القبض على شيخ الشهداء عمر المختار، لم تكن محاورتهما الشعرية التي عاينت الحادثة المفصلية في تاريخ الجهاد الليبي، حمالة لدلالات المهادنة أو الاستسلام، بقدر ما صعدتا في نصوصهما من قيم التضحية والمصابرة لأجل تخليص الوطن، رغم وضعية الإذلال التي عنونت ممارسات المستعمر تجاههما، وقد قضى رجالا من عائلتيهما في معتقلات الموت.

قالوا له يا شايب سلم	راك خسارة في العدمان
قال اللهم راه تقولوها	توجع بوسالف ريان
كملته عمري وفخاري	وايش عليا في العدمان

وهنا فاطمة في متخيّلها الشعري الحواري تتمثّل موقف عمر المختار، ردّاً واثقاً ومواجهة شجاعة، لشيخ طاعن في السن (شايب)، قدّم له العدو كل المغريات من ثراء ونعم رفاهية، فيقذف بكل ذلك، ويختار مواجهة مصيره

بشجاعة المنتصر (كملته عمري وفخاري).

شاعرة المعتقل

في المكان المعبر عن القيد الموحش والعزل المमित، بمعسكرات الإبادة المزرية: سلوق، والمقرون، والأبيار، والعقيلة، ما سجن بها الآلاف من العائلات، برزت شاعرة بمعتقل البريقة، هي أم الخير عبد الدايم العوكلي (1885- 1965م)، وفي سجلها الشعري نصوص تتناول أكثر من موضوع لحقبة المقاومة والنضال الليبي، تصف هنا وقائع التغريبة من وإلى المعتقلات، لحظة واقعة من تلقوا أوامر الترحيل إلى المعتقل الذي تم عبر البحر، ومن اللافت أن نظمها يتمركز على وضعية النساء، وهن يُسقن إلى معتقلات التعذيب والموت، إذ السلطة الإيطالية تعاقب العائلات بتهمة تقديم العون للمقاومين:

فياطنا نوضن من جبلهن، أوطايب هللهن، اوخشن الدزاير،
وفاتن ارحلهن فياتنا فالبحر راحلات أو متباعدات أو من خيط
خط الجبل باتلات النسا والعويله، نايضات في الموج مده
طويلة ايسمر جنين الرضاعة عللهن

ثم نصها، حين تقرّر القوة الإيطالية بعد سنة ونصف، مغادرة الأهالي للمعتقل، بعد أن فاضت حولهم أعداد الجثث بالمكان، وخارت قوى من تبقوا:

رادات عجالا اللي مارجا البابور عزالا
وان جن للجبل تخطر عليهن حاله

فقد الغوالي والرحال الشاوي

وفي نصوصها ما يقارب في تجلياته التوثيقية لأوضاع معتقلات الإبادة، النص الشهير "ما بي مرض غير دار العقيلة"، للشاعر رجب بوحويش وإن حصر بمدخله شكواه الذاتية وفقده رفاقه، ووصفه أحوال المكمودين داخل المعتقل، فيما تميّزت عنه أم الخير بتوثيقها حال رحلة الاعتقال الما قبل والما بعد، وما يحسب لها كشجاعة مواجهة، غضبها الذي أطلقته فعلاً وقولاً في وجه مسؤول المعتقل الضابط باريلا، وقولتها الشهيرة: حكمك جاير يا باريلا، والذي وجه أوامره ضدها بأغلظ العقوبات، والتي لم تنهها أيضاً عن الصدع بوجهه:

يا العفن نوريك هلنا زينين ما هم معاره

ان عاركوا ما يذلوا وان ميعدوا أهل دباره

خرايين يا وطن

الشاعرة فاطمة بن عثمان مواليد هون (1900 - 2007)، المعمرة التي عاشت قصيدتها الوحيدة إلى يومنا هذا، تفتّقت قريحتها الشعرية البكر، صبية في ربيعها العشريني، ما أنطقها مشهد صادم، حين ثبتت عينها من كوة بيتها على المشنقة التي تدلّت منها رؤوس الأبطال من رجال واحاتها في تنفيذ حكم جائر، بعد يوم معركة حامية (قارة العافية 1928)، ذقت فيها قوة الكولونيل "لويجي أباتو" شر هزيمة، فبعد نداءها الاستهلالي الموجه: خرايين يا وطن، تعرض توثيقاً لما أعمله الاستعمار من آليات الإبادة لأصحاب الأرض، تصف حالهم محاصرين فأى خيار؟ المشنقة أو

القتال، هم في أتون سياسة الأرض المحروقة، الإعدام بالمحاكم السورية، وسياجات الأسلاك المكهربة، كما بالنفي والتهجير إلى جزر الموت الإيطالية، ومُعتقلات الإبادة التي كانت سجنًا تحاصر فيها وتعاقب العائلات دون ذنب، ويجوس فيها المرض والموت الجماعي.

ورغم فجيرة اللحظة، وهي تصف الفظائع المرتكبة من موقع حدث الإعدام، إلا إنها تناجي الله مشفوعة بأمل النصر القادم، والغلبة التي سيحققها المجاهدون:

دهت يا رب الهاشمية، جيب الغوالي، في يوم مبروك يخلص سوالي
يباتن مطاويح رووس الكفر تحت النعالي هانك يزهي ويظمان بالي

مقاومات بالموقف الوطني

ردّد عنها مجايلوها شجاعتها المفارقة، فمع صغر سنّها تلميذة، وجّهت خديجة الجهمي (1921-1996) رسالتها إلى زعيم إيطاليا الفاشية "موسيليني"، أرسلتها إلى مجلة ليبيا المصورة، كتبت له قائلة: "احتلالك لبلادي غير صحيح، ولا بد لك أن تفكر لتترك ليبيا لأهلها، وإلا سيأتي يوم سيكون تراب بلدي جحيماً على إيطاليا"، وقد تعرض والدها، عامل المطبعة لجريدة "بريد برقّة"، الشاعر الشعبي عبدالله الجهمي من سيورثها نظم الشعر الغنائي، للمساءلة الأمنية من قبل مكتب الاستعلامات الإيطالي، وغادر إلى مصر على عجل إثر تلك المضايقات. عاشت خديجة في صباها تجارب مريّة قوّتها، وألقت بأثرها في نهجها الحمال روح المغامرة وشغف المبادرة، إذ عاصرت صبية عشرينية في مدينتها بنغازي أجواء الحرب

العالمية الثانية، مهددة وفي الخطر بين وابل الغارات وفعل المتفجرات، وفي محاولة النجاة نزحت وأهلها مع من التحفوا الخيام بأطراف المدينة معتقدين أنهم في مأمن، فعملت ممرضة متطوعة تتنقل بين بيوت فئات هشة تداوي مرضاها بما تعلمته من مبادئ طبية، ومعارف تشربتها بعين المحبة للتعلم، من ممرضة الحي الأرمنية جيغا. كما خاطت الأثواب من مظلات الطائرات الحربية لتوفر المال لعيشها وأسرتها، تقول في سيرتها: "أنا خديجة الجهمي" التي دوّنتها عنها الأدبية أسماء الأسطى:

"لم يكن هناك قماش، لكن المظلات التي تسقطها الطائرات في الحرب الدائرة، وهي من نسج الحرير الطبيعي وتخاط بشكل دائري، أوحت بالحل، فلم يكن من الصعب فتح الخياطة الأصلية وإعدادها قطعاً من القماش، كما كنت أصبغها بالألوان... فصار لديّ الكثير من المال الذي لا يحقق أي شيء، ففي السابق الألف فرانك يمكن للمرء بها شراء منزل، إلا إنه في زمن الحرب لا يأتي برغيف خبز!".

أما أصيلة المدينة القديمة (زنقة الدروج) طرابلس، زكية شعنان (1896-1977)، خريجة المدرسة الرشيدية المربية ورائدة التعليم أول القرن العشرين، فحين ضربت طائرات الإنجليز بقنابلها بيتها، لم تتوقف عن انشغالها بتعليم البنات وهي معلمة اللغة العربية، كن تلميذات وأعدادهن قليلة من غالبن الظروف وسياقات المرحلة، زكية واجهت أجواء تلك الحرب، في سنّها الأربعيني، حتى ومنزلها كومة من الأنقاض، حسب شهادتها في مقابلة صحفية معها (مع الصحفي محمود أبوظهير- جريدة الشعب- 8 ربيع الأول 1392هـ / 1972م).

فيما واجهت زعيمة النهضة النسوية، حميدة العنيزي (1892-1982) صلف المستعمر الإيطالي بتدخلاته الملزمة في مناهج المدارس، وفرضه اللغة الإيطالية، وبعون مجايلتها بديعة فليفلة، قامت بتسريب المنهج المصري، وجعلت من أول مدرسة خاصة أسستها ببيتها عام 1917، والتي غالبيتها بنات عائلات قريبة، وبنات الجارات، مركزًا لتلقي العلوم، والتربية الإسلامية باللغة العربية، حميدة من ستتعهد برعايتها وجهدها الأهلي المدني الفئات الهشة من الفتيات وتقيهن ذل الحاجة والعوز.

قبل وبعد

واصلت الليبيات نهج المقاومة والنضال، هن حواريات أم الخير، وفاطمة بن عثمان، ومبروكة العلاقية، وغيرهن ممن عُيِّن عن توثيق حكاياهن، من طالتهن أحكام الإعدام، وفجّرتهن الألغام، ومُتن كمدًا جرّاء التحرش والعنف الجنسي، ومن جرى نفيهن رفقة عائلاتهن. مناضلات اليوم، يناهضن الاستبداد والطغيان بكل أشكاله، طالبات جامعتي بنغازي وطرابلس، منهن أول سجينة سياسية ثمانينيات القرن المنصرم فاطمة التايب. لم يهبن مواجهة قوى التطرف، وقوى الهيمنة والإقصاء للفعل النسوي الحر، البرلمانية فريحة البركاوي، والحقوقية سلوى بوقعقيص، والناشطة المدنية انتصار الحسايري، والإذاعية نصيب كرنافة.

وقبل وبعد يُدرس تاريخ النضال بتغيُّب طرف أصيل فيه، وتكتب سرديّة المقاومة دونهن، سننتلّع إلى عملة ليبية تحمل صورة مناضلات مقاومات، وإلى سير تعريفية بهن في قائمة مفردات مناهجنا تطالعها الأجيال،

أسماءهن تزين بفخر أعلى جدران شوارعنا، وواجهات مؤسسات، أم سنظل
نطالع سردية تاريخ وطني أبطالها من الذكور، وبلا عدالة وإنصاف تبقى
فيها مدونة النساء المناضلات في مدار الصمت والتغيب عن مؤسسات
حفظ الذاكرة الوطنية!

مُرايف عليهم خاطري ولهان

حسام الشني

”يا خوي يا مَشكاي“، بهذه الجملة الرقيقة، من خلف قضبان زنزانة موحشة في حضيض المنفى، يناجي ”الشلماني“ أخاه الطائر، وهو طائر اختار أن يشكو إليه قسوة السجّان، ومرارة شوقه إلى الأهل، ويجعله مرسلاً يخبر عمّن مات من رفاقه في السجن.

كانت المحكمة الإيطالية عام 1914، قد أدانت ”فضيل حسين الشلماني“ (1877 – 1952)، ومجموعة من رفاقه في قضية تواصل مع المقاومين الليبيين ضد الاحتلال الإيطالي، حُكِم عليه بالسجن مدة 30 سنة، قضى منها سبعاً مع رفاق محنته المنسيّة، في سجن سيئ السمعة في المنفى الإيطالي بجزيرة ”فافينيانا“، قبل أن يشملهم عفو عام صدر من ملك إيطاليا، في 1921.

في السجن الإيطالي كتب الشلماني بعاطفة بالغة الرقة، قصائد مشحونة بالشوق والإحساس العميق بالألم والظلم القاتم، قصائد ما زلتُ أحسبها لم تُكشَف بعد:

يا طير يا طيَّار يا حايم السَّما
يا اللَّي خَلَقَ لك رَبَّنَا جنحان
تعال هَنا نَشْكي لك عليّ حال ما جرى
راني غُرَّيب وانت م الحَبَّان

يا حُوي يا مَشكاي راخ لوطُننا
بَلِّغ سلامي والسلام أمان.

كثيرًا ما تحضر ثيمة "الرياف" في نص الشلماني، وهي واحدة من أكثر عبارات الحنين في الشرق الليبي دِفْئًا؛ يعني "الرياف" الاشتياق الممزوج بفرط الرقة، "مُرايف عليهم خاطري ولهان". يبت الشلماني "ريافه" إلى الوطن، والأهل، والحِبان، والجيران، يبتُ رِيافه إلى "جيران الجيران"، وكلاهم، وحتى "الذيب في الوديان"، يبتُّه إلى الذي "يلحظ النار من بعيد"، وإلى تفاصيل الحياة في موطن مولده وصباه "البطنان"، وأغلب الظن أنه قد اعتُقِل وهو أبٌ لطفل حديث الولادة، أو أنه قد ترك خلفه زوجةً حُبلى، وهو ما يمكن تحسُّسه في بيت يحلم فيه بلحظة عودته إلى أهله:

وَنَقْلَع رِياف وَلَيْد

شَوْقه بِيَّ

وَنُخَبِّر على ما دِير فيَّ وصار.

الثابت أن الشلماني كان قد تزوّج بنواحي بلدة "قمينس" سنة 1914، وهو ما ثَبَّتته لجنة جمع التراث في "ديوان الشعر الشعبي"، الصادر عن منشورات جامعة قاريونس 1989. كان الشاعر قد هاجر إلى "قمينس" نزوحًا من الجفاف الذي أصاب موطنه في "المرصص" (أو في رواية أخرى قصد قمينس لاسترجاع إبله التي صادرتها السلطات الإيطالية). والمرصص قرية تقع على ضواحي طبرق، وكان الشلماني قد ولد بها، وتعلم القراءة والكتابة وعلوم الفقه وحَفِظَ القرآن في زاويتها، وعمل في الرعي، والفلاحة،

التي نجدها في عذب شعره:

ويا هل فُلاحه

في وظا السّماحه

لَيْش في علاوي

ولَيْش في وديان

في وسط برقه

حاملين الطّرقه

سّماح الوتا

بَرّه وفي الحيشان.

خَبَر الشلماني محنتين من عظام محن جيله (المعتقلات في المنفى الإيطالي)، و(المعتقلات الجماعية في بَرقة)؛ إذ كان قد عاش التجربتين المريرتين، فبعد إطلاق سراحه من سجنه الأول، وعودته من المنفى إلى ليبيا، وبعد سبع سنوات أو ثمان، أنشأت السلطات الإيطالية معتقلاتها الشهيرة 1929 تقريبًا، وشرعت في سَوق الأهالي قَسْرًا إلى معسكرات اعتقال جماعي في الصحراء، كان الشلماني من بين أولئك الذين اعتقلوا مع عائلاتهم في (حَبس المَقرون)، حيث قضى فيه ثلاث سنوات، في ظروف إنسانية سيئة جدًّا، بعيدًا عن زوجته "العبيديّة" التي سُجِنَتْ في (حَبس العقيلة)، والتي لقيت فيه حتفها رميًا بالرصاص مع أخيها، إثر محاولة هرب فاشلة.

أما عن قصة اعتقاله الأول، ونفيه إلى السجن الإيطالي، فيحكي فترة تقهقر الجيش الإيطالي أمام "الأدوار" الليبية، وارتفاع معنويات المقاومة

وحماس الشعراء، أخذ الناس يتبادلون الرسائل الشعرية التي تحمل أخبار انتصاراتهم، مع أقاربهم وأصدقائهم في المناطق المحتلة، وأتفق أن كانت "قمينس" يومها تحت السيطرة الإيطالية، وأن أحد أبناء عمومة الشاعر، وهو أحد رفاقه في المقاومة أيضًا، ويعرف باسم "نويجي"؛ كان قد أرسل رسالة إلى ابن عمه الشلماني، مع رجل لقبه "العرفي"، وكان "العرفي" أحد الذين يترددون على قمينس لغرض التجارة، ولم يكن يعرف "الشلماني" شخصيًا، ولا فحوى الرسالة، ولسوء حظ المرسال والمرسل إليه، فقد ضببت دورية تفتيش إيطالية تلك الرسالة، وقُبِضَ ظُلْمًا على حاملها الذي كان يجهل محتواها، وعلى الشلماني أيضًا، وأودع السجن في بنغازي، في زنزانة واحدة، وقُيِّدَ في قيد حديدي واحد، وكانت هذه المحنة فرصة ليعرف كلُّ منهما الآخر، قبل أن يُرَحَّلَا إلى الجزر الإيطالية:

يَا نَا اللي طابُنْ اليوم يَدَيَّ
وراحن تقول مُحَرَّقات بُنار
بَابُورهم عَيِّط
يحذَّر فيَّ
نَوَى شَيْلَنَا من وطننا العَقَار.

ولعلَّ حادثة أسر المرسال المظلوم "العرفي"؛ قد حَزَّت في نفس الشلماني، وأشعرته بتأنيب ضمير، إذ إنه قد تسبَّب دون قصد في كربه العظيم، وربما كانت قصيدته "والقلوب شفاقه" بمثابة اعتذار شفيف وتعزية لرفيقه، وهي قصيدة يُقَرُّ فيها لـ "قرينه" العرفي بعظيم حضوره ومواساته، وأنه يراه رفيقه الوحيد في كربتته:

مُفِيتَ رَوْلٍ وَاحِدٌ
ما مُعَايَ رِفَاقِهِ
مَقْرُونٍ فِي
وَيَحْنَنُ ثَقُولَ عَدِيدٍ
فِي حَجَفٍ ضَيِّقٍ
زَارْتَنِي طَاقِهِ
وم العَصْرُ يَاتُونِي بِقِفْلٍ حَدِيدٍ
وَنَبْقَى مُطَوِّحٍ
شِبْهُهُ السَّلْفَاقِهِ
لَا عِنْدَ لَمْبَاكِرٍ
وَهُوَ فِي لَيْدٍ.

وهي القصيدة التي على ما فيها من رقة ولين، يعود فيها ويصب جام
سخطه على الطليان وأعوانهم، آملاً في زوال حكمهم:
نَيْنُ يَقْطَعُ الطَّلِيانَ وَاللَّفَّاقَهُ
اللي كَمَلُوا لِسَلامٍ بِالتَّحْشِيدِ
يَكْمَلُ كَلَامِي رَبَّنَا بِاصْداقِهِ
وَيَحِيدُ حُكْمَهُمَ مِنْ وَطَنُنَا تَخْيِيداً.

لقد كتب الشلماني بحرارة دمه شعراً صافياً عن الشوق والحنو والمودة،
كتب عن الدماثة والتعاطف، والصبر في مكابدة المشقة، فيما ناهض
الظلم والإهانة والجوع والعري والإذلال رافضاً الانكسار، وحين تجلّت في
شعره مرارة العجز والضعف؛ نطق نبوءته على طريقة عَرَافٍ:

بُجَاه من قَرَوَا في الحزب
وَأَنْ عَشِيَّه
وقاموا صلاةً بوضو في لَفْجَار
سَلَّط عليهم جيش بَرَّانِيَّه
بِقُوَّة وَتَا ما يعرفوا له كار.
تُوقِّي في "الأبيار"، ودفن بها. إنه الشلماني، الإنسان المظلوم الذي يفيض
شعره رقة وعذوبة، من كتب ذات يوم، قبل مئة عام:
يا عزَّ ضيف الله
في الكرب والرخا
يا بُو فريئًا يشبع الجيعان.
من غير ربِّنا
ما لي كريماً نطلبه
صاحب العطا والجود
ع الإنسان
يأتي بَعْفو غُموم
يطلق سَجُننا
ويفرِّج على اللي خاطره مَلِيان²¹

1 كلية الآداب، لجنة جمع التراث، ديوان الشعر الشعبي، ط2، منشورات جامعة قارونس، بنغازي 1989.
2 بونس فنوش، الهامالي شعيب، ديوان الشاعر المجاهد فضيل حسين الشلماني- شاعر معتقل فافنيانا،
ط1، مكتبة التراث الشعبي، سلسلة الدواوين، بنغازي 2001.

ميثاق الحرّابي

خلال حقبة تجاوزت ثلاثين عامًا، استعمرت فيها إيطاليا ليبيا، نكّلت القوة الاستعمارية بأبناء الشعب الليبي، ومارست فظائع قتل وترويع ونصب مشانق لمعارضيه، وأنشأت معتقلات الإبادة الجماعية التي أودت، حسب تقديرات بحثية، بحياة ثلث سكان إقليم برقة تقريبًا. طوال تلك الفترة التي واجه فيها الليبيون القوة الغازية، أُجبر العديد من الليبيين على الانضمام إلى عسكر إيطاليا، وانضم آخرون بحماس كبير، فاقتتل الليبيون فيما بينهم، وأعلنت قطاعات من بعض القبائل، وأحيانًا قبائل بأكملها ولاءها للفاشية، وتكوّنت كتائب ليبية تابعة لإيطاليا لسحق المقاومة الليبية، وتورّط العديد منهم في جرائم إعدام إخوانهم الليبيين، فيما استولى بعضهم على ممتلكات مواطنيهم بالباطل. انتهى الاستعمار الإيطالي بدخول قوات الحلفاء التي كان من ضمنها قوات محلية قاتلت تحت لواء الجيش السنوسي.

بعد رحيل الاستعمار الإيطالي، بدا الوضع مرتبكًا في ليبيا، وبات على الليبيين التعامل مع تركة ثقيلة من الأحقاد والرغبة في الانتقام، في غياب دولة مؤسسات، أو حتى حكومة موحّدة تجيد التعامل مع تلك التحديات بالغة الصعوبة. وبينما كانت البلاد على مشارف حرب أهلية طاحنة، سعى بعض حكمائها ذوو الخبرة الاجتماعية الطويلة في حل النزاعات، إلى توحيد الكلمة باتجاه المصالحة ونبذ الصراع، والتكاتف نحو مطلب (الاستقلال)، بوصفه القضية الأولى التي تقتضيها المصلحة الوطنية، رافضين أية تصرّفات فردية أو جماعية من شأنها التشويش على المصلحة الوطنية.

فكّل المسعى بالميثاق الوطني الذي أبرمته الهيئة التأسيسية بمدينة بنغازي بموافقة الوفد الدردناوي بالنيابة عن المنطقة الشرقية، والذي تمخّض عنه (ميثاق الحرابي) الشهير تلبيةً لنداء الأمير إدريس السنوسي، والذي نقدم نصه هنا:

نص ميثاق الحرابي

”بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

أما بعد فإننا نحن عُمد ومشايخ قبائل الحرابي وأعيان مدينة درنة المجتمعين في المؤتمر الوطني المنعقد بمركز جمعية عمر المختار بدرنة، يوم الخميس 15 جمادى الأولى 1365 هجري، الموافق 18 أبريل 1946 م لدرس الموقف الحاضر قد قرّرنا ما يأتي:

أولاً: إقرار الميثاق الوطني الذي أبرمته الهيئة التأسيسية بمدينة بنغازي بموافقة الوفد الدردناوي بالنيابة عن منطقة ليبيا الشرقية.

ثانياً: عملاً بنداء سمو الأمير المعظم السيد محمد إدريس المهدي السنوسي نتعهد جميعنا بإيقاف كل خصومة وكل نزاع مهما كان نوعه فيما بيننا، فلا نسمح بإثارة فتنة قديمة أو جديدة، ولا نسمح بالمطالبة بحق قديم، سواء كان ثأراً أو دية قتل أو دية جرح أو حقاً عقارياً أو غير ذلك، رغبةً منا في جمع الكلمة وتأليف القلوب وتوحيد الجهود وتوجيهها متظافرة متحدة إلى قضية البلاد السياسية وحدها حتى يتقرّر مصير البلاد وتؤسس

فيها حكومة وطنية وتنظم أمورها وتستقر أحوالها.

ثالثاً: عندئذٍ فقط يجوز لكل صاحب حق مشروع أن يطالب بحقه بالوسائل المشروعة وبواسطة حكومة البلاد الشرعية.

رابعاً: ليس معنى هذا التعهد أننا ندعو أصحاب الحقوق إلى التنازل عن حقوقهم ولكننا نطالبهم بإيقاف المطالبة بها مؤقتاً ليتفرغوا للمطالبة بحق الأمة العام الذي له من الأهمية الكبرى ما يجعله أحق بالتقديم على حقوق الأفراد والعائلات والقبائل.

خامساً: كل من يخالف هذا التعهد يعدُّ معرقلًا لمساعي الأمة ومثبطًا لجهادها الذي نرجو أن يكمل بالنجاح التام في إحراز الحرية والاستقلال إن شاء الله.



مثل ميثاق الحرابي وثيقة ملهمة للعديد من المثقفين الليبيين، واستُحضِرَ خلال فترة الصراع المسلح الذي جرى بين أطراف متعددة في ليبيا في السنوات الأخيرة، حيث بدا مصدراً ملهماً للعمل السياسي الجماعي الذي يحكم العقل ويرسّخ المصلحة العامة فوق المصالح الجهوية والقبلية والشخصية. كتبت المحللة زهراء لنقي:

كان جوهر ميثاق (الحرابي) إرجاء تسوية المنازعات المحلية على مستوى العلاقة بين الأفراد والقبائل والمدن حتى قيام الدولة، وقد تضمّن ذلك تأكيد عدم سقوط حقوق الأفراد موضوع تلك المنازعات. ويعدُّ الميثاق تجسيداً لفكرة إعطاء الأولوية للمصلحة العامة ولعدم بناء المجتمع والدولة على

المصلحة الخاصة، الجهوية والفردية. وقد كان الميثاق حجر الزاوية الذي ارتكزت عليه جهود صياغة دستور دائم للبلاد بعد ذلك ببضعة أعوام.

هذا التوافق هو الذي جعل المجتمع الدولي يدرك أنه لا يمكنه المضي قدماً في جحد حق ليبيا في تأسيس دولتها، فصدر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 289 في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1949 الذي تضمّن الاعتراف باستقلال ليبيا، والذي جاء تنويجاً لتفاوض دبلوماسي وضغوطات وإقناع. وفي 1951، انطلقت أول عملية دستورية باشرتها جمعية وطنية (هيئة تأسيسية)، لينتظم الليبيون كمجتمع وطني تُسَيَّر شؤونه دولة تدار وفق نظام ملكي اتحادي، واستند اجتماعها السياسي إلى "عقد اجتماعي" (دستور) تمخّضت عنه عملية توافقية. وقد ضمّت الجمعية الوطنية التي باشرت العملية الدستورية ممثلين عن قوى المجتمع، وعقدت اجتماعاتها بحرية وصاغت مسودة للدستور. وجرى إقرار الدستور في بنغازي في 7 تشرين الأول/أكتوبر 1951 وتقديمه للملك قبل نشره بالجريدة الرسمية، كما أعلن الاستقلال الرسمي في 24 كانون الأول/ديسمبر 1951.¹

ويضيف الشاعر سالم العوكلي في مقال عن ميثاق الحرابي أن "ورقة واحدة كانت كفيلة بأن توقف نهراً من الدماء، وأن تجعل هذا الشعب ينال استقلاله الذي كان شبه مستحيل، وأن يبني دولته التي اعتبرها الكثير من المحللين في ذاك الوقت معجزة، والمفارقة أن أغلب الموقّعين على هذه الورقة وقّعوا ببصمة إبهامهم (كانوا أميين).. وكانت الحكمة هبة العقل وحصيلة التجربة،

1 الزهراء لنقي، "تجاهل الموروث الدستوري في ليبيا"، السفير العربي، بيروت، 2018/4/26.

<https://assafirarabi.com/ar/21044>

/تجاهل-الموروث-الدستوري-في-ليبيا/2018/04/26/

وروحاً سامية تنبذ العنف والحقد والإقصاء كطريق إلى المستقبل.

بعد هذا الميثاق لم تسجل حالة اعتداء أو اغتصاب للحق باليد، رغم أن الجراح كانت ما زالت مفتوحة. احترم الجميع الميثاق، على أن تؤجّل المطالبة بالحقوق حتى يتقرّر مصير البلاد وتستقر أحوالها، ولأن الصلح والمسامحة كانا من ضمن كوامن الشخصية الليبية، لم تكتظ المحاكم بعد قيام الدولة، فكان النسيان وصفة التقدم، وكان الشعار الذي رفعه الميثاق (حتحات علي ما فات) هو حكمة الليبيين آنذاك ليمضوا قدماً.

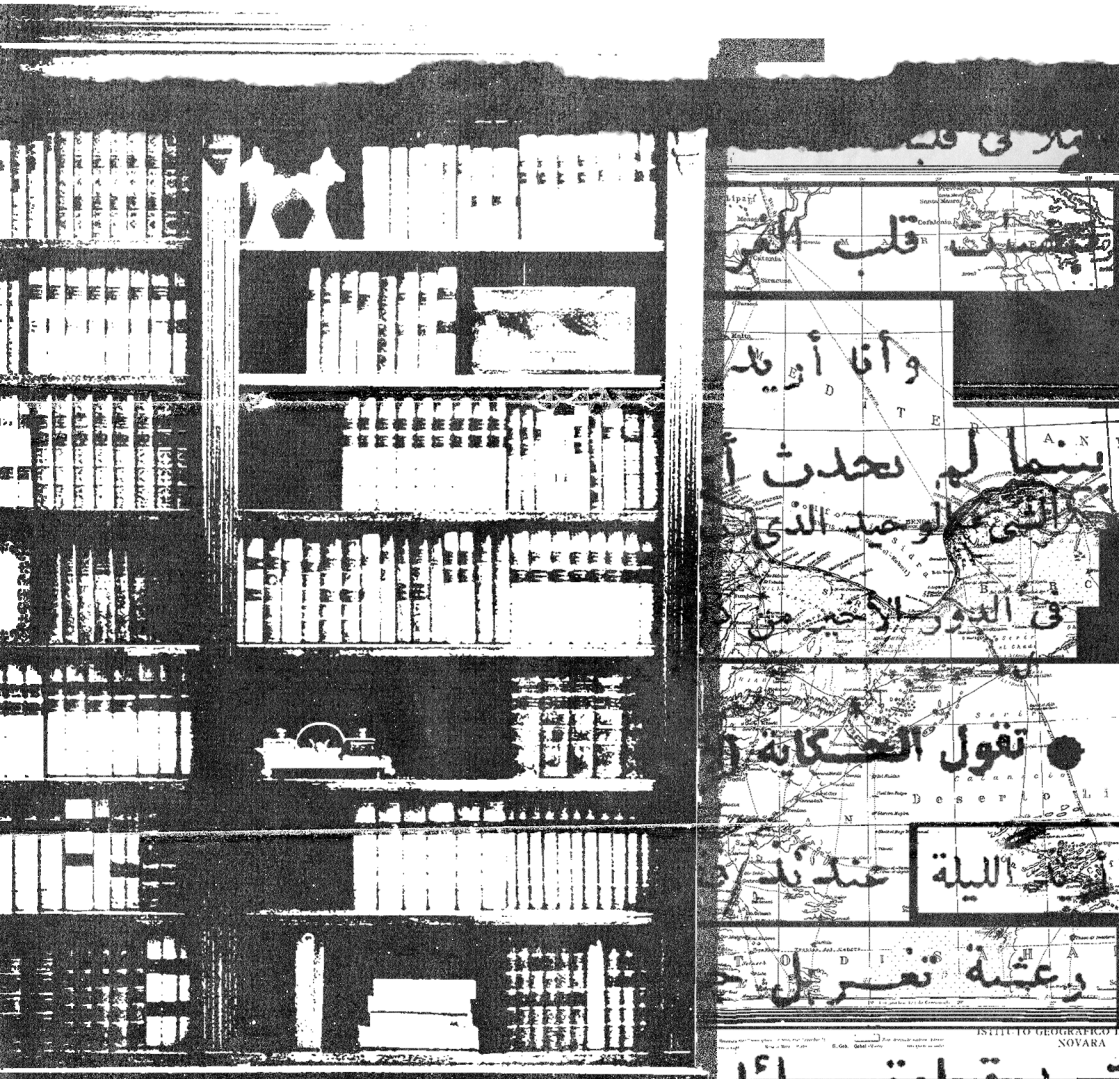
طوّيت الصفحة المظلمة، ونظر الليبيون إلى الأمام، فنالوا أول استقلال دولة تقره منظمة الأمم المتحدة، والوطنيون الذين كافحوا من أجل نيل الاستقلال عمل معظمهم ضمن كادر الإدارة الإيطالية وتعلّموا في مدارسها، لأن الوطنية والنزاهة لا تقيسها لجنة، ولا يحددها محرّرون أقيمت دولة ليبيا، ورغم كل الارتباك، فإنها حقّقت في زمن قياسي إنجازات مهمة، تصلح كدروس لمفاهيم مثل النهضة والتنمية والمواطنة ودولة القانون، ولو فكر أجدادنا، كما نفكر الآن، في تصفية الحسابات الماضية، لما استقلت ليبيا، ولا قامت دولتها.

كم نحن الآن في حاجة إلى ميثاق ليبي شامل، كميثاق الحرابي، الممهور ببصمات أنامل أجدادنا، التي تظهر كزهور أنبأت في ذلك الوقت العصيب عن بزوغ ربيع ليبي.²

2 سالم العوكلي، "كم نحن أحفاد بؤساء لأجداد عظام!!" بوابة الوسط، 2014/8/23.

<https://alwasat.ly/news/opinions/30065?author=1>

قراءات



العساكر وذاكرتهم: مساران للحياة بين ليبيا وإيطاليا¹

أنطونيو إم مورون
ترجمة: خالد المطاوع

Antonio M. Morone. "Gli ascari e la loro memoria: due traiettorie di vita tra Libia e Italia." *Meridiana*, 2022, No. 104 (2022), pp. 219-240.

1. مقدمة

في عام 1911، وجد سكان المقاطعات العثمانية في طرابلس وفزان وبرقة أنفسهم يواجهون غزوًا عسكريًا من قبل مملكة إيطاليا، من خلال حرب أعلنتها على الباب العالي. أرادت إيطاليا من هذا الغزو إعادة إطلاق مشروعها الاستعماري بنحت مستعمرة في البحر الأبيض المتوسط بعد هزيمتها في معركة "عدوة"، عام 1896 في شرق أفريقيا التي نتج عنها تجميد أولى مبادراتها الاستعمارية بين البحر الأحمر والمحيط الهندي. بعد عام من غزو ليبيا، أي في 1912، تفاوضت إيطاليا مع العثمانيين على معاهدة سلام أدت إلى تنازلهم عن مقاطعاتهم في شمال أفريقيا، ولكن

1 ملاحظة المترجم: صدر هذا المقال بمطبوعة "ميريديانا" في عددها رقم 104، عام 2022.
Antonio M. Morone. "Gli ascari e la loro memoria: due traiettorie di vita tra Libia e Italia."

Meridiana, 2022, No. 104 (2022), pp. 219-240.

الحرب لم تنتهِ بالفعل، وسرعان ما تحوّلت من صراع بين دولتين إلى صراع بين المجاهدين الليبيين والجنود الإيطاليين. بين عامي 1931 و1932 تمكّنت القوات الإيطالية من إخماد الجهاد الليبي ولكن بتكلفة عالية جدًّا، قدرها عشرين عامًا من الحرب والعنف وجرائم الحرب وآلاف القتلى، لم يتردّد الإيطاليون فيها باستخدام القصف الجوي والأسلحة الكيماوية، مثل الغازات الاختناق، ضد المدنيين والمقاومة الليبية، وكذلك حجز عشرات الآلاف من الرجال والنساء وكبار السن والأطفال في معسكرات الاعتقال. استخدمت حكومة إيطاليا الاعتقال والقمع في "جميع مستعمراتها" منذ نهاية القرن التاسع عشر، ولكن النظام الفاشي الذي أخذ زمام الحكم عام 1922 "حول الحبس إلى اعتقال جماعي شامل"، مدرّكًا أن ذلك قد يؤدّي إلى مقتل الرعايا المسجونين². أما من وجهة نظر الذين حاربوا الاستعمار، فقد كانت المقاومة ضد إيطاليا جهادًا قبل كل شيء، أي صراعًا ذا دلالة دينية واضحة، لأن الاحتلال الإيطالي عرّض أولوية الإسلام للخطر، وجعل مجتمع المؤمنين المسلمين عرضة لأن يكون تحت سلطة سياسية وحكومية غير مسلمة.

إن إعادة بناء تاريخ حرب الفترة الاستعمارية في ليبيا، كما حدّدها نيكولا لابانكا،³ في إشارة إلى التسلسل الزمني من 1911 إلى 1931، كانت بلا شك موضوعًا للمحو وإعادة الصياغة، من قبل الجانبين الإيطالي والليبي. في الجانب الإيطالي، بدءًا من فترة ما بعد الحرب الثانية، فقد رافقت

2 N. Labanca, Italian colonial Internment, in Italian Colonialism, eds. R. Ben-Ghiat and M. Fuller, Palgrave MacMillan, New York 2005, p. 30.

3 N. Labanca, La guerra italiana per la Libia 1911-1931, il Mulino, Bologna 2012.

جهود كتابة تاريخ إيطاليا الاستعماري أطروحة تسعى لمحو الذاكرة العامة عموماً، وحتى اليوم نجد أنه من الصعب استرداد هذه الذاكرة وزعزعة النسيان الذي صاحبها، على الرغم من البحوث العديدة التي تم نشرها بزخم متزايد منذ السبعينيات. كانت كتابة التاريخ الاستعماري الإيطالي انتقائية، حيث تم توجيه المنهج المَحَوِّي بشكل خاص نحو جرائم الحرب والعنف الذي ارتكبه جيش الاستعمار، كما صاحب ذلك تحوير تدريجي وترسيب ممنهج لرواية تقدم تاريخ الاستعمار الإيطالي على أنه إيجابي ونزيه.⁴ أما على الجانب الليبي فقد كان العنف وجرائم الحرب التي ارتكبتها الجيش الإيطالي هي ركيزة البحث التاريخي المنهجي، لا سيما بدءاً من السبعينيات، وصاحبه هذا الجهد اتهام سياسي لم يستبعد طلب التعويضات الاقتصادية، وفي الوقت نفسه صبغت صياغة تاريخ المقاومة ضد إيطاليا نبرة قومية عالية تم توظيفها أيديولوجياً في بناء دولة ليبيا القومية المستقلة. رافق التركيز الذي وُضِعَ على تسجيل تاريخ المقاومة الليبيين محاولة محو الدور الذي لعبه العساكر⁵، أي المجندين الليبيين، الذين خدموا في القوات الاستعمارية الإيطالية ضد الليبيين الآخرين.

4 A.M. Morone, La fine del colonialismo italiano. Politica, societe memorie, Le Monnier, Firenze 2018.

5 ملاحظة المترجم: كلمة عسكري: Ascari/Askari استخدمت القوى الاستعمارية الأوروبية في أفريقيا (الإنجليزية والفرنسية والإيطالية وحتى الألمانية) كلمة "عسكري" (عربية الأصل ولكنها تستخدم أيضاً في الصومالية والسواحيلية) للإشارة إلى الجنود المحليين الذين يخدمون في الوحدات العسكرية الاستعمارية في بلدانهم الأصلية، وأيضاً مع الجيوش الاستعمارية في حروبها في مستعمرات أخرى وكذلك حروب أخرى، كما جرى في استعمال فرنسا للعساكر السنغاليين والجزائريين، وكذلك بريطانيا للجنود الهنود في الحرب العالمية الثانية. في هذا المقال نستعمل مصطلح "عسكري" و"عساكر" بهذا التصنيف بالذات لوصف الجنود غير الأوروبيين من أبناء المستعمرات الذين جُندوا في الخدمة العسكرية الإيطالية.

السبب الواضح جدًّا الذي يفسّر مثل هذه الإزالة يكمن على وجه التحديد في التفسير القومي لتلك الرواية، فإذا كانت الحرب ضد إيطاليا وُحّدت الشعب الليبي ضد الاستعمار، فإن قصة العساكر لا يمكن إزاحتها لكونها مجرد انشقاق أو خيانة، وتبقى في النهاية، ذاكرة مقلقة.

في الآونة الأخيرة يبدو أن السنوات المربكة التي أعقبت سقوط الجماهيرية في عام 2011 قد أتاحَت فرصًا لمُساءلة سبل التأريخ السابقة، وجعلت من الممكن تخيُّل تاريخ ليبيا الاستعماري بشكل أكثر تركيبيًا، يحتوي تعدُّدية مفاهيمية لها أبعاد جغرافية واجتماعية، إذ إن الدراسات الحديثة المخصَّصة للفترة الملكية في ليبيا وللأقليات اللغوية تشهد على ذلك.⁶ حتى تاريخ المتعاونين مع السلطة الاستعمارية، أي تاريخ أولئك الذين شاركوا عضوياً في المشروع الاستعماري، يمكن اعتباره مساهمة مفيدة لجس النموذج القومي المتجانس؛ القصد هنا هو استعادة تاريخ اجتماعي مركب، والتغلب على التبسيط القطعي الذي يحتوي فقط معتدين إيطاليين ومقاومين ليبيين، وبالتالي تعتمز هذه المقالة التركيز على علاقة المتعاونين⁷ الليبيين مع القوة الاستعمارية، دون ادّعاء استنفاد كل جوانبها، ولكن من خلال تقديم دراسة لحالتين من المتعاونين السابقين تم لقاءهما في طرابلس في عام 2009، في إطار التعاون العلمي مع المركز الليبي

6 للحصول على ملخصات دقيقة لأحدث المنشورات، راجع:

A. Baldinetti, "Shifting Perceptions of Shared History in Post-Independence Libya," in *Afriche e Orienti*, 3, 2018, pp. 31-7.

7 لوصف علاقة العساكر الليبيين بالاستعمار الإيطالي يستعمل المؤلف كلمتي: intermediari وكذلك intermediazione الكلمتان تعنيان "الوسيط" و"الوساطة"، ولكننا وجدناهما غير معبرتين حقيقةً عن هذا الدور الذي لعبه العساكر في المرحلة الاستعمارية، ولذا فضلنا مصطلحي المتعاونين والتعاون بدلاً من الوسطاء والوساطة.

للمحفوظات والدراسات التاريخية، والذي سألغ المزيد عنه فيما بعد، علمًا أن ما نستنتجه من هذين الحالتين، اللتين احتفظنا بسرية هويتهم، أضيف إليهما مصادر أرشيفية إيطالية أخرى. الحالتان اللتان التقيتهما هما عسكريان قدّما خدمتهما في أفريقيا وإيطاليا، ويؤكد اختلاف مسار حياتهما أن ظاهرة التعاون مع المستعمر كانت مركبة ومتعددة الجوانب. يمثل الشخص الأول الذي التقيته نموذجًا من المتعاون الذي أعاد تدوير مهاراته كعسكري في إيطاليا في خدمة المحتل الإنجليزي الجديد في أعقاب هزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية، ويمثل الشخص الثاني استراتيجية مختلفة تهدف إلى التعاون مع الإيطاليين في موطنهم، أي في إيطاليا، حتى استقلال بلده الأصلي، ليبيا.

2. أسباب المحو

ظهرت أسباب المحو التاريخي في السياقات الما-بعد-استعمارية الجديدة، في ليبيا كما في أماكن أخرى في أفريقيا، مع الحاجة إلى بناء تاريخ وطني جديد يضع التاريخ "الشفوي" جانبًا، ولو أنه كان يضمن بقاء معرفة الماضي ونقله من جيل إلى جيل قبل الاحتلال الاستعماري، كما أن فكرة الأمة، باعتبارها بناءً اجتماعيًا حديثًا مصدره أوروبا (والاستعمار)، استلزم أيضًا اللجوء إلى أدوات سياسية وثقافية جديدة.

في ذلك الوقت كان ينظر إلى التاريخ الشفوي المحلي، على أنه تقليدي، غير مهني، وغير علمي، كما أنه منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن

العشرين، استجابت جهود تأريخية متعددة لحاجة الشعوب الأفريقية إلى صقل هوية مجتمعاتها والدفاع عنها في مواجهة التحدي الذي شكّله أوروبا والغزو الاستعماري المتحفز. من هنا، يمكننا أن نتحدث عن بداية كتابة تاريخ أفريقي، تم إنتاجه من خلال نسج تقاليد معرفية متعددة، بعضها من أصل أفريقي وبعضها مستمد من العلاقة مع أوروبا؛ تاريخ يحاكي السياق الأفريقي الذي ينتمي إليه المؤلفون الأفارقة أنفسهم.⁸ في سنوات الاستقلال وفي خضم التخلص من التركة الاستعمارية، تم تحويل هذا النوع من صياغة التاريخ بشكل تدريجي، وعلى المدى المتوسط تم استبداله، بممارسات أخرى ربطت الأساليب التاريخية التي تم استيرادها من الغرب مع مشروع بناء الأمة والمؤسسات السياسية والثقافية للأنظمة التي خلفت الاستعمار وقادتها الذين تولّوا زمام الحكم في بلادهم، وبهذا المعنى تم الجمع بين الكتابة الحرفية للتاريخ في أفريقيا، من خلال إضفاء الطابع المؤسسي للمعرفة الأكاديمية، مع صياغة التاريخ بشكل مسّيس يتناغم مع المشروع الوطني القائم في البلاد، وقد شمل ليبيا أيضًا هذا النمط في كتابة التاريخ.

كل من سي إدريس السنوسي، أمير الحركة السنوسية وعاهل ليبيا الملكية ابتداءً من عام 1951، ومعمار القذافي، زعيم ليبيا من 1969: 2011، استخدمتا سردية الجهاد ضد الإيطاليين لبناء التاريخ الوطني الليبي، وإن فكرتين مختلفتين لمفهوم الأمة خلال الفترة الملكية، ويرجع ذلك إلى

8 D. Peterson, G. Macola, Introduction: Homespun Historiography and the Academic Profession, in Recasting the past. History writing and political work in modern Africa, eds. Idd., Ohio U.P., Athens 2009, pp. 1-28.

وضع إدريس السنوسي زعيمًا دينيًا حتى قبل أن يكون زعيمًا سياسيًا، كان مفهوم الأمة الليبية يعتمد على انتمائها إلى الأمة الإسلامية الكبرى، أما معمر القذافي فقد عمل على تحويل مفهوم الأمة الليبية إلى كيان عروبي قومي، ووجّه مسار التاريخ العضوي لثورته المستوحاة من الاشتراكية بحيث يكون سرّدًا عربيًا وحدويًا يضع النضال ضد الاستعمار الإيطالي حجر الأساس في عملية بناء التاريخ الوطني الليبي، ومع هذا التوجه تراجع التفسير السابق للمقاومة للاستعمار باعتبارها مرتبطة بشكل جوهري بالإسلام وبالحركة السنوسية⁹، ولتعزيز التاريخ الوطني الليبي، والحفاظ عليه، تم تأسيس مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي في عام 1978، ثم تم تعديل اسمه إلى "مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية"، حيث اكتسب تاريخ المقاومة ضد الاحتلال الاستعماري مركزية لا يمكن إنكارها ضمن أجندة بحثية كانت في الواقع أوسع من ذلك.¹⁰ أطلق المركز، من بين مبادرات أخرى، حملة مثيرة للإعجاب لجمع المصادر الشفوية التي ركّزت على ذكريات المجاهدين الليبيين الذين شاركوا في الصراع ضد إيطاليا، مع تجنّب ذكر تاريخ المجنّدين الليبيين الآخرين مثل العساكر كممثلين للاختلاف القائم بين الليبيين خلال مقاومتهم لإيطاليا. أصبح المركز مستودعًا فعليًا لعقيدة تاريخية وطنية وثورية، كما أن نظام القذافي حدّد بشدة توفير واستخدام المصادر الأرشيفية وقام بتخزين معظمها في

9 Baldinetti, *Shifting Perceptions of Shared History* cit., pp. 27-9.

10 G. Chiauuzi, *Il Centro di Studi libico in Tripoli e il seminario .Libia. Storia e Rivoluzione.*, in «Africa», 36, 1981, pp. 137-42.

قلعة طرابلس، لأنها يمكن أن تكون "أداة لنشر وجهة نظر المستعمر"¹¹، كما انتهى الأمر بتدمير محفوظات أخرى لأنها كانت تعدُّ خطرة سياسيًا، إذ إن مجرد الإغلاق عليها لم يكن كافيًا، وهذا ما آل إليه أرشيف معهد الدراسات الإسلامية في البيضاء الذي تأسَّس عام 1963 في عهد إدريس السنوسي، وكذلك سجل الملكيات لمنطقة طرابلس، ضمن مصادر أخرى تم إعدامها.

الوضع في إيطاليا لم يختلف كثيرًا عن ليبيا، فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية والأرشيف التاريخي لوزارة أفريقيا الإيطالية (ASMAI) تم احتجازه كرهينة من قبل لجنة توثيق العمل الإيطالي في أفريقيا،¹² وباتت مصادر تاريخ الاحتلال الاستعماري وليبيا المعاصرة حكرًا على مؤسسة علمية وثقافة واحدة وفي نطاق محصور جدًّا، ما أسهم في تكوين قناعة عن التاريخ الإيطالي الاستعماري غارقة في الإنكار.

في جميع الحالات تقريبًا، في تاريخ الحرب الاستعمارية في ليبيا، لم يجد الليبيون الذين اختاروا التعاون مع الاستعمار الإيطالي مكانًا واعترافًا بهم في التاريخ، فقد كان يُنظر إليهم على أنهم منحرفون وليسوا طرفًا آخر من صراع ليبي-ليبي. ففي التأريخ الليبي المعاصر تم التقليل من دوافع "المتأطلنين" (أولئك الذين ذهبوا إلى جانب الإيطاليين) بأنهم منحرفون

11 F. Di Pasquale, La memoria senza archivio. Processi identitari e fonti archivistiche in Libia (1952-2011), in «Afriche e Orienti», 19, 2017, p. 40.

12 راجع A.M. Morone, I custodi della memoria. Il Comitato per la documentazione dell'opera dell'Italia in Africa, in «Zapruder. Rivista di storia della conflittualità sociale», 23, settembredicembre, 2010, pp. 24-38; M. Lenci, Dalla storia coloniale alla storia dell'Africa, in «Africa», 2, 2003, pp. 207-18.

عديمو الأخلاق،¹³ دون النظر في السياق الاجتماعي والإشكاليات الواقعية لدوافعهم. على وجه الخصوص، كانت هناك شبكات تجارية ورأسمالية في المدن الساحلية رأت الاستعمار كوسيلة لزيادة قوتها وثروتها، وبالمثل فإن العديد من المسؤولين الذين وجدوا أنفسهم من دون عمل مع رحيل العثمانيين، كانوا على استعداد للتعاون مع الإيطاليين للحفاظ على مواقعهم الإدارية. يتجلى إنكار دور العساكر بوضوح في رصد الأضرار التي سببها الاستعمار الإيطالي في ليبيا. في مقال نُشر في كتاب جماعي حول الحروب الفاشية الاستعمارية، حرّره أنجيلو ديل بوكا،¹⁴ كتب المؤرخ محمد الجراري، مدير المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، تقييماً لأضرار الاستعمار الإيطالي على ليبيا، وأصرّ قبل كل شيء على أن الاستعمار «عن قصد وبدون مبرر قتل الآلاف من الليبيين في معسكرات الاعتقال والسجون»¹⁵، وذكر أن «5867 شهيداً شنقوا أو سجنوا»، وأن «2538 ليبياً فقط تم تجنيدهم للخدمة مع الجيوش المحتلة أو كموظفين لتحقيق أهداف القوى الأجنبية»¹⁶. من المؤكد أن مثل هذا التفسير يقلل من تقدير الأرقام الحقيقية، إذا اعتبرنا أنه في الحرب الإيطالية الإثيوبية الثانية، وفي عام 1935 وحده تم إرسال 8000 عسكري ليبي للقتال في

13 A. A. Ahmida, *State and Class Formation and Collaboration in Colonial Libya*, in *Italian Colonialism*, eds. R. Ben-Ghiat and M. Fuller, Palgrave MacMillan, New York 2005, p. 64.

14 A. Del Boca, *I crimini del colonialismo fascista*, in *Le guerre coloniali del fascismo*, a cura di Id., Laterza, Roma-Bari 2008, pp. 232-55.

15 M.T. Jerary, *I danni causati alla Libia dal colonialismo fascista (documentazione del punto di vista libico)*, in *Le guerre coloniali del fascismo*, a cura di A. del Boca, Laterza, Roma-Bari 2008, p. 398.

16 Ivi, p. 395.

إثيوبيا¹⁷. لم يكن الأمر مجرد إخفاء لقصة المتعاونين وتقليل عددهم، بل وصفهم بأنهم مُدانون للاستعمار تم تجنيدهم عنوة بدون أي رغبة منهم. في حين أن الواقع، كما ينبثق من المصادر الشفوية المقدمة في هذا المقال، كان متعدد الأوجه وأكثر تعقيداً.

كان الإيطاليون هم أول من بدأ بتكميم تاريخ العساكر خلال الفترة الاستعمارية وفي العقود التالية، ما سهّل الاستمرار على هذا المنوال. "رأى المؤرخون الاستعماريون أن وجود عساكر من الشعوب المستعمرة ضمن الجيش الإيطالي أمر محرج"¹⁸، وذلك لأنه في السرد الاستعماري كان ينبغي أن يكون هؤلاء العساكر مجرد خدم مخلصين تابعين للقوة الاستعمارية التي جسّدها الضباط الإيطاليون البواسل الذين لا ينبغي أن يُسرق المشهد منهم. في منظور الدعاية الاستعمارية، كانت رواية شجاعة وبطولة المستعير لا بد أن تسود على الرغم من إخلاص رعاياه من العساكر الذين في الحقيقة قدّموا جهداً أعظم في الحرب وضحّوا بحياتهم بنسبة أعلى من الجنود الإيطاليين. بعد نهاية الاستعمار الإيطالي ومع بداية السبعينيات تم توحيد منهج التأريخ بشكل حاسم فيما يتعلّق بالهيمنة السابقة على أفريقيا، ما أدّى إلى دراسة ديناميات الحرب والعنف والجرائم المرتبطة بالاستعمار بشكل أكبر، ولكن مع ذلك بقي التاريخ الاجتماعي

17 G. Rochat, *Le guerre italiane 1935-1943: dall'impero d'Etiopia alla disfatta*, Einaudi, Torino 2005, p. 42.

18 N. Labanca, *In marcia verso Adua*, Einaudi, Torino 1993, p. 223.

للعساكر مهمّشاً¹⁹.

تبع ذلك تغيير خجول في كتابة تاريخ العساكر في ليبيا عام 2008، وهو نفس العام الذي تم فيه توقيع معاهدة الصداقة الإيطالية الليبية للشراكة والتعاون في بنغازي، وعلى الرغم من أن الاتفاقية ركّزت على أهداف سياسية واقتصادية محددة للغاية، فإنها كانت في الواقع اتفاقاً تاريخياً، إذ تضمّنت مقدمة الاتفاقية اعترافاً بـ "الحقبة المؤلمة من الماضي"، و "المعاناة التي تكبّدها الشعب الليبي خلال وبعد الاستعمار الإيطالي"، وكان رئيس وزراء إيطاليا آنذاك، سيلفيو بيرلوسكوني، هو الذي قدّم هذا الاعتراف بذنوب إيطاليا الاستعمارية. نتج عن الاتفاق نقل المحفوظات الليبية غير المتاحة سابقاً إلى مقر مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، والذي تمّت إعادة تسميته للمركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية.

إعادة تنظيم أنشطة المركز وترتيب أرشيفه، لم تؤدّ للأسف إلى الانفتاح العام للمصادر حتى الآن، ولكن إدارة المركز أطلقت حملة لتجميع مصادر شفوية جديدة، فُصِد بها هذه المرة تسجيل ذكريات العساكر الليبيين.

19 للحصول على ملخّص للتأريخ عن حالة الحرب الاستعمارية الإيطالية في ليبيا انظر:

Labanca, La guerra italiana per la Libia cit. On the theme of askaris in particular, see: N. Arielli, Colonial Soldiers in Italian Counter-insurgency. Operations in Libya, 1922-32, en «British Journal for Military History», 1, 2015, pp. 47-66; C. Sirianni, VI Battaglione libico. Diario della campagna di Etiopia (1936-1937), a cura di O. De Napoli, Viella, Roma 2016; A.M. Morone, Nuovi e vecchi intermediari libici tra ingerenze esterne e spinte nazionaliste, en La fine del colonialismo. Politica, societ. e memorie, a cura di Id., Le Monnier, Firenze 2018, pp. 31-59; A. Volterra, Askaris and the Great War. Colonial Troops Recruited in Libya for the War but Never Sent to the Austrian Front, in The First World War from Tripoli to Addis Ababa (1911-1924), eds. S. Bekele, U.C. Dirar, A. Volterra and M. Zaccaria, OpenEdition Books, Addis Ababa 2018, <https://books.openedition.org/cfee/1400>.

انقطع عمل هذه الحملة عند اندلاع الصراع المدني في ليبيا عام 2011، ولم يتم تنظيم المواد التي تم جمعها، سواء من حيث الفهرسة أو الدراسة. لهذا السبب، لا يمكنني أن أستطلع أو أقدر النتائج التي وصل إليها زملائي الليبيون في هذا الموضوع، فقط أن أوثق أنه سُمح لي بالمشاركة بشكل مستقل في جلسة تسجيل جرت في 3 نوفمبر 2009، نتج عنها إجراء المقابلتين اللتين تناقشهما هذه المقالة. أجريت المقابلتين باللغة الإيطالية لأن الشخصين الذين تمّت مقابلتهم أرادا التحدث بالإيطالية، أولاً لإثبات معرفتهما باللغة والثقافة الإيطالية، وثانياً لإظهار تعاطفهما مع الباحثين الإيطاليين الذين كانوا يحاورنهما. في التعامل مع الأشخاص الذين قدمهم المركز، كان للكاتب الحرية في اختيار شاهدين مختلفين على أساس الأصل الجغرافي والفئة العمرية والخبرة الخدمية، كما سُمح للكاتب وضع الخطوط العريضة للمقابلات دون أي تدخل من المركز مما صمّن له استقلالية كاملة في البحث. تم تسجيل المقابلتين بالفيديو، واستغرقت كل مقابلة حوالي ساعة من الوقت.

3. ملامح التعاون

من وجهة نظر منهجية، تمثل ظاهرة التعاون أحد المفاتيح المحتملة لفهم المجتمع الاستعماري عمومًا، وليس الإيطالي بالأخص: ردود الأفعال للاستعمار تتضمن التكيف والتجاوب والتدبر في المزايا الحقيقية التي قد يتحصّل عليها المستعمر [...]. فمن ضمن الشعوب المستعمرة انحاز

بعض الناس إلى السلطة الاستعمارية، ولهذا السبب لا يمكن تحليل الظاهرة الاستعمارية كعملية أحادية الخط ومتجانسة داخلياً²⁰.

هؤلاء الأفراد المتعاونون أو (في كثير من الأحيان) مجموعات كاملة أو فئات اجتماعية، قاموا بوظائف أسهمت في إنشاء وإدارة النظام الاستعماري؛ كما أنهم لم يفعلوا ذلك من موقف الخضوع ولكن لمتابعة مصالحهم من خلال استراتيجية التعاون، للحفاظ أو الحصول على مواقع في السلطة السياسية الجديدة، أو للحفاظ أو تعزيز مكانتهم الاجتماعية ووضعيتهم الاقتصادية في السياق الاستعماري²¹. إن مفهوم المتعاون يعقّد ويجتاز الفصل الصارم بين المستعمر والمستعمّر، وبين المواطنين والرعايا، وذلك لأن المتعاونين الذين "قايضوا" توافقهم مع القوة المهيمنة بشروط معينة، باتوا أشخاصاً فاعلين في المجتمع الاستعماري²²، وبالمثل فإن هذا المفهوم يقلب توصيف المتعاونين على أنهم مجرد عملاء، أو أسوأ من ذلك، أنهم كانوا منفذين بسطاء للسلطة الاستعمارية.

لم يكن التعاون أبداً وببساطة علاقة رعايا ومستعمرين، ولكن كان دائماً، بشكل مباشر أو غير مباشر، علاقة مع الأشخاص المستعمرين الآخرين، وكما كان وضع المتعاونين يستلزم علاقة مميزة مع القوة الاستعمارية تطلب

20 I. Taddia, *Il silenzio dei colonizzati e il lavoro dello storico: oralit. e scrittura nell'Africa italiana*, in *Le guerre coloniali del fascismo*, a cura di A. del Boca, Laterza, Roma-Bari 2008, p. 512.

21 B.N. Lawrence, E.L. Osborn, R.L. Roberts, *Intermediaries, Interpreters, and Clerks: African Employees in the Making of Colonial Africa*, University of Wisconsin Press, Madison 2006.

22 R. Robinson, *Non-European Foundations of European Imperialism: Sketch for a Theory of Collaboration*, in *Studies in the Theory of Imperialism*, eds. R. Owen and R.B. Sutcliffe, Longman, London 1972, pp. 128-51.

أيضًا أن يكونوا متفوقين على المستعمرين الآخرين. شارك هؤلاء الأفارقة المتعاونون في الإدارة الاستعمارية كموظفين في الأجهزة الإدارية التي أنشأتها القوة الاستعمارية، أو واصلوا أدوارهم في المؤسسات التي كانت موجودة قبل الاستعمار، أو مراكزهم الاجتماعية التقليدية التي تم الاعتراف بها ودمجها داخل الإدارة الجديدة، بالإضافة إلى القادة، وهكذا تم تعريفهم بشكل عام، كان هناك متعاونون آخرون في الشؤون الثقافية واللغوية، مثل المترجمين الفوريين؛ وفي الشؤون الاقتصادية التجار والمهنيين؛ وأخيرًا، المتعاونين العسكريين الذين بدون مشاركتهم ما كان لأي دولة أوروبية أن تخوض أي حرب استعمارية في المقام الأول.

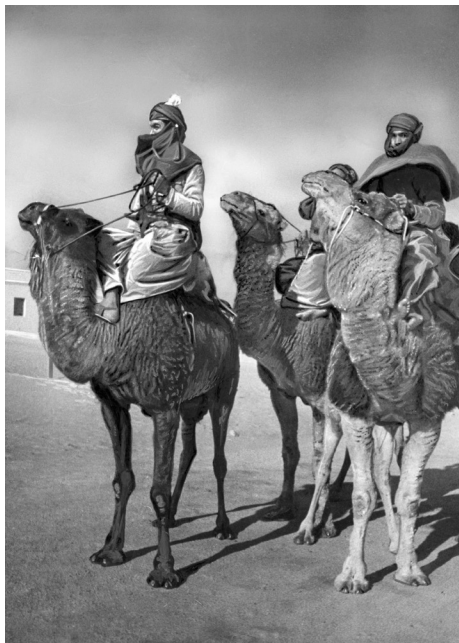
كانت أهمية العساكر لتاريخ التوسع الاستعماري الإيطالي أعظم من غيره، إذ إن تاريخ الاستعمار الإيطالي تخلل سلسلة من الحروب والعمليات العسكرية دون انقطاع من عام 1882 حتى الحرب العالمية الثانية، بعد أول حرب أفريقية خاضتها إيطاليا ضد الدولة الإثيوبية وعاهلها مينليك الثاني والهزيمة التي نالتها في معركة "عدوة" في عام 1896، استخدمت إيطاليا العساكر لتوحيد وجودها الاستعماري الضعيف الذي ظل في إريتريا والصومال. كان دور العساكر حاسمًا في الحرب الإيطالية في ليبيا من 1911 إلى 1932، وفي الوقت نفسه للدفاع عن الممتلكات الإيطالية على سواحل شبه الجزيرة الصومالية في الفترة بين 1899 و1920، وبخاصةً ضد جهاد السيد محمد عبد الله حسن الذي تمركز في وادي نوجال، وحارب القوات البريطانية والإيطالية والإثيوبية هناك. أيضًا في الصومال، قام حاكم المستعمرة، دي فيكي (De Vecchi)، (أحد الرباعي القيادي في المسيرة على روما وشخصية

رائدة في النظام الفاشي)، في عام 1924 بإعادة تنظيم القوى الاستعمارية من خلال إنشاء كيان اسمه "زابتني" (Zaptié)²³ في الصومال الإيطالية وفيلق اسمه دوبات (Dubat)²⁴، بقصد التحضير لحرب جديدة. من أكتوبر 1925 إلى فبراير 1927، غزت قوات دي فيكي محميتين مستقلتين في شمال الصومال، هوبيو وماجرتين، اللتين أنشئتا في عام 1889، ودمجتهما مع مقاطعة بنادر في مستعمرة الصومال الإيطالية. بعدما ساد الهدوء ليبيا والصومال، عادت إيطاليا إلى أهدافها التوسعية في إثيوبيا. حرب إيطاليا الإثيوبية الثانية التي اندلعت عام 1935، بلغت ذروتها بإعلان إمبراطورية شرق أفريقيا الإيطالية، إلا إن المقاومة المسلحة الإثيوبية لم تتوقف، إذ بقيت أجزاء من إثيوبيا خارج الهيمنة الإيطالية حتى سقوط الحكم الإيطالي تمامًا في شرق أفريقيا في عام 1941 تحت تقدم القوات البريطانية والكومنولث. في حرب ليبيا، لم يتم توظيف عساكر الليبيين فحسب، بل تم أيضًا جلب عساكر من القرن الأفريقي الذين عملوا مع القوات الاستعمارية الملكية في إريتريا، كما يتضح ذلك عبر تاريخ الكتيبة الإريترية التي تناوبت في التمرکز في الجبهة الليبية لعدة سنوات؛ بنفس الطريقة التي تم بها توظيف عساكر ليبيا في الحرب ضد إثيوبيا²⁵. استخدمت إيطاليا استراتيجية التناوب هذه للتقليل من إمكانية التمرد ضمن العساكر: كانت الفكرة الأساسية هي الفصل

23 ملاحظة للمترجم: "زابتني" هي التسمية الممنوحة لوحداث الدرك التي كوَّنتها إيطاليا في مستعمراتها في ليبيا وإريتريا وأرض الصومال بين عامي 1889 و1943.

24 ملاحظة للمترجم: "دوبات" هو الاسم الممنوح لأعضاء الفرق المسلحة غير المنتظمة التي استخدمها "الفيلق الملكي للقوات الاستعمارية" الإيطالي في الصومال الإيطالية من عام 1924 إلى عام 1941. تم اشتقاق كلمة Dubat من عبارة صومالية تعني "العائم البيضاء".

25 M. Zaccaria, *Anch'io per la tua bandiera. Il V battaglione ascari in missione sul fronte libico* (1912), Giorgio Pozzi Editore, Ravenna 2012.



زائتي، وحدات الدرك المحلية في ليبيا تحت الاستعمار الإيطالي.



سلاح الفرسان وحصن سلطنة هوبو

العنصري والثقافي، بحيث لا تكون هناك روابط عرقية أو ثقافية بين العساكر وأهالي المناطق التي يحاربون فيها، خوفاً من هروب العساكر. في جوهرها كانت القوات الاستعمارية لا تمنح الثقة الكاملة للعساكر، وبخاصة أولئك الذين استدعوا للقتال مع السلطة الاستعمارية ضد من يشاركونهم الديانة أو أفراد نفس العشائر والمكونات الاجتماعية. لم تكن هذه السياسة تُطبَّق بشكل مُطلق، وكانت هناك حالات متكررة من العساكر الذين خدموا وقاتلوا في مناطقهم الأصلية. على كل حال، شكّل هؤلاء العساكر القوات التي قاتلت في الخطوط الأمامية، أكثر من الجنود الإيطاليين، ولم يقتصر الأمر تحمُّلهم وطأة القتال، بل وقاموا بذلك بوسائل محدودة ومعدات وتدريب أقل بالمقارنة من زملائهم الإيطاليين. يكشف هذا التصرف عن التمييز العنصري الذي عانى منه العساكر الذين تم حصرهم في حالة خضوع مؤلمة تعرضت فيها حياتهم للخطر.

لم يكن تجنيد العساكر إلزامياً بالمعنى الصارم، على عكس تجنيد الإيطاليين. كان المواطنون (الإيطاليون) هم الوحيدون الذين فُرضت عليهم الخدمة العسكرية، في حين أن الليبيين وغيرهم من الرعايا المستعمرين، سُمح لهم في ظروف معينة التسجيل في القوات الاستعمارية الملكية، وبهذه الطريقة تم تأكيد الفرق في الوضعية القانونية الاجتماعية بين الجنود الإيطاليين والعساكر منذ بدء التجنيد. كانت رواتب العساكر الأفارقة أقل من رواتب الجنود الوطنيين، علاوة على ذلك، كان الحد الأقصى للرتب العسكرية التي يمكن أن يطمح إليها العسكري هو رتبة Sciumbasci، أي ما يعادل رتبة ضابط صف، وحتى بالنسبة لتكريم الأداء العسكري في ساحة القتال

كان الحد الأقصى للعسكري الأفريقي هو ميدالية فضية، إذ إن الميداليات الذهبية كانت محصورة للإيطاليين، لذلك تميّزت العلاقة بين الضباط والجنود الإيطاليين والعساكر الأفريقية بالأبوية، تطابقاً لأيديولوجية المشروع الاستعماري والمهمة الحضارية المفترضة للرجل الأبيض في أفريقيا.

إذا لم يلغ التجنيد الفرق بين الرعايا ومن يحكمهم، لكنه قلّل من ذلك عبر بعض المزايا الموضوعية. من المؤكد أن الحالة الاقتصادية للفرد كانت أحد أسباب التقدم للتجنيد؛ فالراتب الذي تحصّل عليه العسكري مكّنه من التوفير لأسرته، وبالتالي كان دافعاً مهماً، بالإضافة إلى ذلك، وقّر الجيش فوائد إضافية، مثل الملابس والأحذية والسكن والرعاية الطبية، كما أن علاقة العسكري المحلي مع الضابط الإيطالي الذي يرأسه قد توقّره اعتباراً أكبر أو معاملة أفضل مع السلطات الإيطالية. في المجتمع الاستعماري مثّلت الخدمة العسكرية فرصة للرقى الاجتماعي؛ كونك عسكرياً أو جندياً أو ضابطاً يعني أنك لعبت دوراً مرموقاً في المجتمع الاستعماري، حيث كان الجيش الاستعماري رمزاً مميزاً للحدّثة والسلطة. هذه الفوائد الاقتصادية والاجتماعية قد تسمح لعسكري شاب بالزواج، وأن يكون عائلة خاصة به، ولهذا السبب لم يكن من غير المألوف على الإطلاق أن ينضم شاب محتدّ بمثال والده الذي سبقه في التجنّد، ما يجعل الخدمة العسكرية ظاهرة عابرة للأجيال، وبالتالي يمكن أن تكون الألفة مع الخدمة العسكرية سبباً آخر للتجنيد، فمع امتداد فوائد الخدمة العسكرية إلى العائلات، وما ينتج عنها من التنقل الاجتماعي لمجموعات أسرية، ازدادت إمكانية التقارب من عالم المستعمر والتمازج الثقافي معه.

ما سبق تقديمه من طرح لإيجابيات التجنيد الطوعي للعساكر يجب أن ينظر إليه ضمن سياق المجتمع الاستعماري، حيث لم يكتسب الرعايا المحليون نفس الحقوق التي تمتع مواطني الدولة الاستعمارية، علاوة على ذلك ينبغي أن لا ننفي أن السلطات الاستعمارية لجأت في بعض الحالات إلى التجنيد الإلزامي الصرف، من خلال استقطاب القادة المحليين. قام هؤلاء المتعاونون ذوو النفوذ المحلي بمهمة جلب متعاونين عساكر جدد، وبما أن السياسات الاستعمارية، بشكل مباشر أو غير مباشر، مبنية على تثبيت فروقات وهويات عنصرية من خلال تجنيد العساكر، فإن الانضمام وخيار القتال مع الجيش الاستعماري لم يصدر على الإطلاق من موقف عنصري أو ثقافي، ولكن بناء على خيارات واعية قام بها أفراد أو مجموعات.

أخيرًا تركّز جُل استفادة العساكر من وضعهم العالي نسبيًا في المجتمع الاستعماري في علاقتهم مع المستعمرين الآخرين. وبهذا المعنى فإن كون العسكري أداة حرب وتسلّط ضد الأفارقة الآخرين، امتدّ إلى السياق الاجتماعي الذي جاء منه أساسًا، إذ لم تقتصر ممارسة القوة والهيمنة النسبية خلال العمليات العسكرية وحدها، بل تم استنساخها أيضًا داخل المجتمع الاستعماري في العلاقات بين العساكر والمدنيين من أبناء جلدتهم، لذلك كانت الاحتجاجات والشكاوى الموجهة إلى السلطات الاستعمارية من قبل المدنيين ليست فقط ضد انتهاكات الإيطاليين، ولكن على وجه التحديد ضد العساكر الذين مارسوا العنف في كثير الأحيان من أجل مكاسبهم الشخصية، واحتكروا الهيمنة ضد المدنيين بشكل يشابه التبعية والهيمنة بين المستعمرين والمستعمرين، وهكذا أسّس العساكر أنفسهم كمستعمرين



اثنان من المظليين الليبيين المنضمين للجيش الإيطالي أثناء التدريب، مايو 1941.

صغار في علاقتهم مع المدنيين، ما يدل على أن الاستعمار كان يُجَدَّر في المجتمعات المستعمرة الاستخدام الواسع للعنف والتسلُّط والاستغلال، ما أدَّى إلى الحديث عن وجود حقيقي لنموذج "الاستبداد اللامركزي"²⁶.

في أعقاب الاضطرابات التي نجمت عن الحرب العالمية الثانية في ليبيا، وجد جزء غير هين من الليبيين الذين شاركوا في المشروع الاستعماري واستفادوا منه سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، أنفسهم يشاركون في فكرة عودة إيطاليا إلى مستعمراتها، وجهزوا أنفسهم للتعاون في هذا الغرض، بينما قام جزء آخر بالتكثيف والتعاون مع المحتلين البريطانيين الجدد. من وجهة نظر هذه الفئة الثانية فقد شاهدوا تغيُّر الجهة الحاكمة، ولكن منطق النظام الاستعماري بقي كما هو. كانت هذه قصة أحد العسكريين الذين يقدمهم هذا المقال، بينما تعاون العسكري مع الإيطاليين، ربما بطريقة غريبة، إذ قدم خدمته لإيطاليا داخل أراضيها. تشير ديناميات ووجهات النظر حول تعاون العساكر، من منطلق تحليلي، إلى التاريخ السياسي، ولكنها قبل كل شيء تركّز على التاريخ الاجتماعي، فالتعاون بالنسبة للعساكر، هو مشروع للحراك الاجتماعي والارتقاء الاقتصادي، سواء في الموطن الأصلي أو في بعض الحالات، من خلال الهجرة إلى إيطاليا، وقد يكون هذا هو السبب الذي جعل المتعاونين هم الهدف المفضَّل للنقد بين للقوميين في سياستهم ودعائياتهم، ففي خلفية الصراع بين المستعمرين والقوميين على مستقبل المستعمرات بعد الحرب، كانت هناك أيضًا منافسة شديدة بين الأفارقة لتحديد من سيقود مؤسسات الدول المستقلة في المستقبل. إذن،

26 M. Mamdani, Citizen and subject. Contemporary Africa and the legacy of late colonialism, James Currey, London 1996.

يجب فهم أزمة النظام الاستعماري الإيطالي بعد الحرب العالمية الثانية ودراستها ليس فقط كحالة منافسة بين مشاريع استعمارية مختلفة بين إيطاليا وإنجلترا وفرنسا، ولكن أيضًا من منظور الصراع القائم حينها بين مشاريع أفريقية مختلفة كلها تسعى نحو الارتقاء الاجتماعي. بدون شك، لم يحقق المتعاونون مع الاستعمار استعادة النظام الاستعماري، ولكنهم حققوا أقصى استفادة من حيز المساومة الذي ظهر بسبب الشروخ التي تكوّنت في هيكل الهيمنة الأوروبية، إذ كان دورهم توفير حل سائغ كبديل لمطالب القوميين، ولكن أيضًا بشروط تتطلّب إصلاح النظام الاستعماري. بعد الحرب العالمية الثانية، طالب المتعاونون بنظام استعماري يخلو من سياسات الفصل العنصري التي طبّقها النظام الفاشي ويؤسّس لوضعية أكثر مساواة بين الرعايا والمستعمرين.

في أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية، سعت إيطاليا إلى دعم إنشاء أحزاب وجمعيات قريبة منها تناهض القوى القومية، ما أتاح للعساكر إمكانية غير مسبقة للعب دور سياسي مهم يربّج حصولهم على فوائد اجتماعية واقتصادية أعظم مما كانوا سيحصلون عليها من خلال مشاريع القوميين للاستقلال. من عام 1944 إلى عام 1949، كان العساكر من بين المحاورين الرئيسيين للسياسة الاستعمارية الإيطالية الجديدة نظرًا إلى مشاركتهم في التنظيم العسكري وولائهم المفترض للسلطة الإيطالية. الحقيقة أن إخلاص العساكر للعلم الثلاثي الألوان هو بالتأكيد إحدى أساطير الاستعمار الإيطالي العظيمة التي كانت في كثير من الأحيان تخفي حقائق تناقضها. حتى بعد الحرب العالمية الثانية، ظلّت السلطات الإيطالية مخدوعة بتلك الأسطورة

التي زُرِعت في أذهانهم من أمد طويل، فإذا استمرَّ بعض العساكر في تعاونهم مع إيطاليا، رفض آخرون ذلك، بل قام آخرون بالانضمام إلى المعسكر القومي في صراعه ضد إيطاليا. كانت الخدمة العسكرية النشطة قد توقَّفت بعد الحرب العالمية الثانية، في حين أن التزام العساكر السياسي هو الذي نما باطراد، حيث إن العساكر شكَّلوا العمود الفقري لبعض التكوينات السياسية في ليبيا، وكذلك في المستعمرات الأخرى، إذ أيدوا الخطة الاستعمارية لإيطاليا الجمهورية. بعد فشل الجمعية العامة للأمم المتحدة في الموافقة على مقترح بيفن سفورزا²⁷ في عام 1949، فقد عساكر كثيرون صلاحيات علاقتهم بإيطاليا لأنهم غيَّروا موقفهم السياسي، على الأقل بشكل رسمي، من خلال قرارهم بدعم الاستقلال.

بعد عام 1949، غادر العديد من العساكر الحياة السياسية، بينما انتقل آخرون تدريجيًّا من حالة التعاون مع إيطاليا إلى تقارب متزايد مع الحراك القومي، ما دفعهم إلى دعم استقلال بلادهم، بل تطوَّر الأمر إلى إنشاء جمعية من العساكر تتنافس جمعية عساكر أخرى تؤيد إيطاليا. كانت

27 ملاحظة المترجم: "مشروع بيفن سفورزا هو مشروع خطة وصاية جرت بين وزير خارجية إيطاليا كارلو سفورزا ووزير خارجية بريطانيا إرنست بفين، وفيه تم الاتفاق بين الدولتين على أن ليبيا تحصل على استقلالها بعد عشر سنوات، على أن توضع أقاليم ليبيا الثلاثة خلال هذه الفترة تحت وصاية دولية، تتولَّى بريطانيا الوصاية على برقة، وتتولَّى إيطاليا بموجبها إدارة طرابلس، وتتولَّى فرنسا إدارة فزان. وقدم المشروع للأمم المتحدة للتصويت عليه أمام الجمعية العامة في 17 مايو 1949، ولتمريه كان يتطلَّب موافقة ثلثي الأعضاء الحاضرين وعددهم 58 دولة. ونجح أحد أعضاء الوفد الليبي (د. علي نور الدين العنيزي) في كسب تأييد ممثل دولة هايتي (إميل سان لو) لدى الأمم المتحدة، وكان صوته هو المرجح الذي أدى إلى سقوط المشروع. (المصدر مكتبة نور عن ويكيبيديا):

<https://www.noor-book.com/tag/مشروع-بيفن-سفورزا>.

مجموعة العسكر المعارضة لإيطاليا هذه تحت قيادة محمد بيلوسي²⁸ الذي لم يكن بالنسبة للإيطاليين أكثر من عميل إنجليزي، علاوة على كونه أحد وبالفعل شرعت . المنظمين لمذبحة ضد الأقلية اليهودية في عام 1945²⁹ جمعية العساكر هذه في تأسيس فيلق وطني عسكري ليضاف إلى برنامج استقلال ووحدة ليبيا ضمن تيار العروبة، وكجزء من الحزب القومي للكتلة كانت رؤية هذه الجمعية تعارض بشكل مضاد تمامًا³⁰. الوطنية الحرة توجّه رابطة العسكر التي مؤلّتها إيطاليا، ما يدل على أن التشدّد القومي فعلاً تنامي ضمن بعض الفئات التي قامت بالخدمة في الجيش الاستعماري الإيطالي، مما كان غير متوقعًا في منطق التعاون بعد الحرب العالمية الثانية أما بالنسبة لخدمة "الموطن الأم" (إيطاليا)، فقد رجع بعض العساكر الليبيين، أثناء الحرب وبعدها إلى سواحل شبه الجزيرة الإيطالية بعد إطلاق سراحهم من الأسر مع ضباطهم الإيطاليين. توقّع هؤلاء أن الإقامة في إيطاليا -والعودة إلى العمل كعساكر إيطاليين بدون نظام استعماري- يمكن

28 ملاحظة المترجم: لم نجد أي معلومات عن محمد بيلوسي أو Mohammed Bellusi . كاتب المقال د. مورون يقول إن هناك معلومات عنه في الأرشيف التاريخي الدبلوماسي لوزارة الخارجية (ASDMAE) كما هو مذكور في المصدر اللاحق.

29 Archivio Storico diplomatico del ministero degli Affari esteri (Asdmae), Affari politici (Ap), Ufficio (Uf.), b. 52, promemoria del Servizio informazioni militare, 12 novembre 1949.

30 نفس المصدر السابق.

31 ملاحظة المترجم: الكتلة الوطنية الحرة هي حزب سياسي ليبي تأسّس في طرابلس بتاريخ 30 مايو 1946 برئاسة علي الفقيه حسن. كانت أهداف الكتلة منصرفة إلى المطالبة باستقلال ليبيا ووحدها وانضمامها إلى جامعة الدول العربية، وكانت منشورات الكتلة صريحة في ذلك، كما كان من مطالب الكتلة إنشاء جمعية تأسيسية للبت في تشكيل الحكومة المستقبلية. ألقي القبض على رئيس الكتلة علي الفقيه حسن وسكربتيره في 17 فبراير 1947 وأُغرم على الاستقالة من قبل الإدارة البريطانية في طرابلس بتاريخ 5 أبريل 1948. (المصدر: موسوعة عريق: https://areq.net/m/الكتلة_الوطنية_الحرة.html)

أن تضمن استئناف رقيهم الاجتماعي الذي توقف خلال الحرب وهزيمة إيطاليا. في البدء تم التسامح مع وجود هؤلاء العساكر على أراضي الموطن الأم كونه جزءاً من الدعاية السياسية لعودة إيطاليا إلى أفريقيا، ولكن كان من غير المعقول أن يُترك هؤلاء الأشخاص حرية التحرك على الأراضي الإيطالية، ولهذا وبشكل منهجي تم استدعاء هؤلاء العساكر وحصرهم في ثكناتهم.³² وجود هؤلاء العساكر في إيطاليا بعد الحرب العالمية الثانية كان بإمكانه أن يُضعف الحدود الاجتماعية والسياسية الصارمة التي حالت دون وصولهم إلى البلد الأم قبل الحرب، ولكن في الواقع أدّى وجودهم في إيطاليا لتعريضهم لأساليب متجددة من السيطرة، والذي يوضح لنا أن العنصرية والتمييز والفكر الاستعماري عموماً ظلّت توجّه سياسات إيطاليا الجمهورية تجاه الأفارقة. في نهاية الأمر كان العساكر ضحايا لحملة اعتقال وترحيل قسري للبيبا في عملية خاطفة في عام 1949، بعدما بدأت إيطاليا في تغيير سياستها نحو استقلال المستعمرات. تمكّن عدد قليل جداً من العساكر من البقاء في إيطاليا، لظروف استثنائية وشخصية تماماً، لذا عندما نسرد حكاية تبادل المصالح بين النظام الاستعماري والعساكر، لا بد أن نذكر أنه في نهاية الأمر تغلبت مصلحة المستعمر على رغبة العساكر في تجديد تعاونهم مع إيطاليا والتغلب على التحيز العنصري الذي لاقوه فيها.

32 A.M. Morone, Ascari, clandestini e meticci: mobilit. fisica e sociale nel secondo dopoguerra, in Governare l'Oltremare. Istituzioni, funzionari e societ. nel colonialismo italiano, a cura di G. Dore et al., Carocci, Roma 2013, pp. 203-19.

4. سيرة عسكريين

إن قصتي حياة العسكريين، أحمد وعلي، اللتين تم تسجيلهما في طرابلس في عام 2009، متشابهتان من نواحٍ كثيرة فيما يتعلق بالفترة الاستعمارية، لكن اندلاع الحرب العالمية الثانية فصل مسار حياتهما تمامًا: أقام أحمد لفترة طويلة نسبيًا في إيطاليا، بينما شهد علي الهيمنة الإنجليزية على ليبيا طوال فترة ما بعد الحرب. حسب الهوية التي قدمها أحمد، نعلم أنه وُلِدَ في 1 يناير 1922 في غريان، جنوب طرابلس. كون يوم ميلاده الأول من يناير يدل أن ذلك تاريخًا وهميًا: كان شائعًا الإشارة إلى 1 يناير كيوم الميلاد حين إصدار وثيقة هوية عندما يفتقر المواطن إلى شهادة رسمية تثبت يوم ميلاده. من ناحية أخرى، وُلِدَ علي في عام 1917 بالخمسة، وصرح أنه لم ليس من السهل معرفة تاريخ ميلاده بشكل دقيق. أحمد وعلي تم تجنيدهما في القوات الاستعمارية في عامي 1937، و1941 تبعًا، وكان التجنيد هو الموضوع الأول الذي تم تناوله معهما. الجدير بالذكر هنا أن أبويهما سبق أن خدما في وحدات الكارابينيري الاستعمارية، وبالتالي قد يكون هذا الإلمام بوظيفة العسكري في الجيش الاستعماري عاملًا في تجنيد أحمد وعلي. في سرد حياة كليهما، في عدة مناسبات، يستشعر المرء بأنهما فخوران بمشاركتهما في الخدمة العسكرية الاستعمارية، وفخوران كذلك بخدمة أبويهما. كان علي بالذات فخورًا بالميدالية الفضية التي حصل عليها والده للبسالة العسكرية واعتبرها شرفًا يعتز به، وكانت هذه الميدالية أعلى تقدير ممكن أن يتحصّل عليه مجنّد غير إيطالي في القوات الاستعمارية، لذلك فيمكننا أن نتصوّر أن مهنة العسكري، ولو في الجيش الاستعماري، كانت

تدل على مكانة اجتماعية مرتفعة، قبل أي مميزات اقتصادية تمنحها، ما يدل أيضًا على أنها كانت وظيفة مرغوبًا بها بحيث أنها تنتقل من الأب إلى الابن.

ومع ذلك في قصتي حياة أحمد وعلي، عندما سئلا بالضبط عن كيفية تجنيدهما، يتضح لنا أن قرارهما كان طوعيًا، وذلك لأن الانضمام إلى الخدمة العسكرية بات تقليدًا عائليًا مؤثرًا، ولكن لازم قرارهما ضغط من القائد المحلي الذي كان يمثل نظام الإدارة الاستعمارية في أطراف مجال سلطتها. يخبرنا أحمد أن القيادة العسكرية تواصلت معه عبر الزعيم المحلي الذي كان يدير عملية توجيه تجنيد العساكر في منطقته. يشرح أحمد:

لم يكن التزامًا حقًا، دعنا نقل إنه كان يمكنك أن تتجنَّب التجنيد، ولكن عندما يأتي موعد معين فكان عليك تقديم نفسك إلى المديرية العسكرية. بعض الناس تطوَّعوا لأنهم أرادوا العمل، فلم يكن هناك فرص كثيرة للعمل، وهكذا ذهبُ لأكون جنديًا؛ ثم كان هناك من تم تجنيدهم قسرًا³³.

الحالة الثانية، قصة علي، تؤكِّد هذا الانطباع. يخبرنا علي بأنه انضم إلى القوات الاستعمارية "بأمر من الحكومة: أرسلت الحكومة خطابًا إلى الزعيم المحلي تقول إنها تريد الكثير من المتطوعين، وبذلك قام هذا الزعيم بصيدهم، ومن كان سيصطاد؟ ابن الفقير طبعًا"³⁴. كان من الواضح أن البعد السياسي مرتبط أيضًا بالحالة الاقتصادية للأفراد، بحيث كانت

33 Interview with the author by Ahmad, Tripoli, November 3, 2009 (the name is fictitious).

34 Interview with the author of 'Ali, Tripoli, 3 November 2009 (the name is fictitious).

الضغوط الاجتماعية والسياسية تُمارَس بشكل أعظم على الأفراد الذين كانوا في ظروف اقتصادية غير مستقرة. بالنسبة للحوافز، فقد التعاون مع القوة الاستعمارية، في هذه الحالة (الخدمة العسكرية) ييسر للتقارب مع ثقافة ونمط حياة أكثر ازدهارًا، وقبل كل شيء، التواصل باللغة الإيطالية. الجدير بالذكر أنه خلال المقاتلتين، تحدث العسكريان السابقان بالإيطالية، على الرغم من أنهما لم يمارسا ذلك لسنوات عديدة. كان التحدُّث بالإيطالية علامة على المهارة والتميز الاجتماعي في البيئة الاستعمارية، وبالنسبة لأحمد بالذات، فقد سمحت له إيطاليته الجيدة، بمجرد تجنيده، من أن يصبح رقيبًا لضابط إيطالي، وبالتالي تولَّى منصبًا ذا أهمية خاصة في الخدمة العسكرية، كما أدَّت المعرفة باللغة الإيطالية إلى نوع من الانتماء إلى المجتمع الإيطالي، وبرز ذلك بالتحديد، كما علَّق علي عند بدء المقابلة، بأننا "سنحدث بلغتنا"، كما ظهرت بوادر القرب من الإيطاليين في حديثه عن علاقته مع الضباط المشرفين عليه مصرحًا أنه كان دائمًا له "علاقات جيدة" معهم، وكذلك أنه كوَّن صداقات مع العديد من الإيطاليين.

بعد الحرب فقدَ علي وظيفته كجندي في القوات الاستعمارية الإيطالية، ولكنه سرعان ما تحصَّل على نفس الوظيفة مع جهة أخرى مماثلة. في 1943 انضم علي إلى شرطة الإدارة العسكرية البريطانية (BMA) برتبة رقيب حتى استقلال ليبيا عام 1951 عندما غيَّر مهنته ليصبح سائقًا. أظهر علي قدرة ملحوظة على التكيف مع تغيير النظام الحاكم، لكنه ظل يعتقد أن الأسياد القدامى كانوا أفضل من الجدد، لأن "الإيطاليين كانوا هنا لسنوات عديدة واختلطوا معنا. لقد كنا معًا، كان الإيطاليون أفضل من الإنجليز لأنه

كان هناك حمّالون بين أبناء الإيطاليين. أما مع الإنجليز فالأمور اختلفت وكل شيء أصبح أسوأ"، لذلك فإن العلاقة الأقوى مع المستعمر الإيطالي نتجت عن القرب البدني بين المستعمر والمستعمرين في الفضاء الاستعماري، ويكون هذا قيمة اجتماعية إضافية، مقارنةً بالعلاقة مع البريطانيين الذين أثناء تجنيدهم العساكر في BMA لم ينظروا بكثير من التعاطف نحو المتعاونين، ليس فقط العساكر، ولكن نحو جميع الذين تفاعلوا مع القوة الاستعمارية الإيطالية لفترة طويلة. أضف إلى ذلك صورة الاستعمار الإيطالي القائم على مفهوم الاستعمار الديموغرافي الذي، على الرغم من أنه كان مجرد أسطورة مفيدة لتبرئة الذات لا علاقة له بالواقع، فإنه جلب الكثير من الفقراء الإيطاليين والفقراء جدًّا منهم ليشاركوا الليبيين مساحات العمل، بل وفي كثير من الأحيان تنافسوا معهم للحصول على العمل، ما أدّى إلى حصر الليبيين في حالة أكثر تهميشًا وخضوعًا.

بشكل عام، تبرز حالة المجنّد العلاقة الوثيقة مع المستعمر الإيطالي، إذ كان أول ما أراد أن يقوله علي، وبتعبير دقيق وبصوت واضح، هو أن "العدو أصبح صديقًا" في إشارة واضحة إلى معاهدة الصداقة والشراكة والتعاون الموقّعة في عام 2008، أي قبل عام واحد من المقابلة، حيث تحوّل "يوم الانتقام"، في خطاب نظام القذافي، إلى يوم الصداقة مع إيطاليا. خلال أربعين عامًا من حكم القذافي شابت العلاقة مع المستعمر السابق وصمة الذنب والالتهام بجرائم الحرب طبقًا لأيديولوجية القذافي القومية الثورية. خلال هذه الفترة الطويلة، كما ذكرنا، تمّت إزالة ذكرى المتعاونين الليبيين بشكل منهجي من التاريخ الوطني والذاكرة الجماعية والحوار الرسمي،

ولكن مع توقيع معاهدة عام 2008، تم تنقيح العلاقات الثنائية مع إيطاليا بشكل جذري، ما مكّن الذين تم استبعادهم من سرديّة النظام الخروج من الظل لرواية صيغتهم من قصة الاستعمار. صرّح علي: "لقد أصبح العدو صديقاً"، بتعاطف مع محاوره الإيطالي، ولكن المقولة قد تنطبق عليه أيضاً، هو الذي تمّ تهميشه لفترة طويلة في ليبيا القذافي بسبب علاقته بإيطاليا، لذلك فإن استعادة العلاقة مع إيطاليا مكّنت بعض الليبيين من استعادة مكانهم في المجتمع الليبي.

بالتأكيد لا يمكن اعتبار قصة حياة العسكري علي بعد الحرب العالمية الثانية بأنها مثل شائع بين المتعاونين، خصوصاً أولئك الذين دعموا الادعاءات الاستعمارية لجمهورية إيطاليا الجديدة وأضفوا الشرعية عليها،³⁵ وذلك لأن علي تقدم للعمل مع الشرطة الجديدة (British Military Administration BMA) التي أسسها الإنجليز وليس مع جمعية عساكر قريبة سياسياً من إيطاليا، والتي أسسها عسكري اسمه "عبد السلام سيلابي" (Abdussalam Sellabi)³⁶ بفضل «المساعدات الإيطالية السرية وعلى

35 Morone, Nuovi e vecchi intermediari cit., pp. 31-60.

36 ملاحظة المترجم: لم نجد معلومات تكفي عن المدعو Abdussalam Sellabi والذي عربنا اسمه بـ: عبد السلام سيلابي بأنه ممثل لجمعية الجنود السابقين، هذا الاسم مذكور في إحدى نشرات الأمم المتحدة الصادرة عام 1950: United Nations Bulletin, Volume 6, 1950, p. 49. وتذكر النشرة عن سيلابي:

"Mr. Sellabi maintained that during the thirty years of Italian administration in Libya the welfare of the population had been a determining factor in the government's policies and that great strides had been made in every field of activity.

الترجمة: "أكد السيد سيلابي أنه خلال الثلاثين عامًا من الإدارة الإيطالية في ليبيا كانت رفاهية السكان عاملاً حاسماً في سياسات الحكومة، وأنه تم قطع خطوات كبيرة في كل مجالات النشاط البشري".

الرغم من عرقلة السلطات الإنجليزية³⁷ لها، إذ تمكّن هذا العسكري القيادي عبد السلام سيلابي، من ضم حوالي 20000 من الأتباع إلى حركته مع عام 1949.³⁸ لقد اختار علي استراتيجية أكثر براغماتية، حيث تخلّى عن افتراضية عودة إيطاليا وما قد يعنيه ذلك من فوائد اقتصادية واجتماعية له، مفضلاً دمج نفسه في وضع اجتماعي واقتصادي في متناول اليد من خلال الخدمة في شرطة BMA الإنجليزية، وإن كان قد "احتفظ بشعور قوي بالارتباط نحو المستعمر القديم".

قصة العسكري أحمد كانت مختلفة أيضاً. خلال الحرب تم أسرهِ في طبرق في عام 1941 وأمضى السنوات التالية في السجن بين تونس والجزائر، وفي عام 1945 تم نقله وإطلاق سراحه مع الضباط الإيطاليين في نابولي، وكان من بين 200، ربما 250، من العساكر الليبيين والإريتريين الذين وصلوا إلى السواحل الإيطالية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وكان وجودهم هناك أول سلسلة هجرة على الإطلاق من أفريقيا إلى إيطاليا في العصر الحديث.³⁹ بالنسبة لهؤلاء الرعايا الأفارقة، كان هناك اعتقاد بأنهم في إيطاليا قد يجدون العمل ووضعاً اجتماعياً مناسباً ما كانوا ليحصلوا عليه

37 Asdmae, Ap, Uf. III, 1946-50, b. 52, promemoria del Servizio militare informazioni, 12 novembre 1949.

38 Asdmae, Ap, Uf. III, 1946-50, b. 52, promemoria del Servizio militare informazioni, 12 novembre 1949.

39 Morone, Ascari, clandestini e meticci cit.; Id., L'Italianit. degli altri. Le migrazioni degli ex sudditi coloniali dall'Africa all'Italia, in «Altretalia», gennaio-giugno, 50, 2015, pp. 71-86; V. Deplano, La madrepatria. una terra straniera. Libici, eritrei e somali nell'Italia del dopoguerra (1945-1960), Le Monnier, Firenze 2017; Id., Within and Outside the Nation: Former Colonial Subjects in Post-War Italy, in «Modern Italy», Nation, Race, and Racisms in Twentieth-Century Italy, eds. V. Deplano and S. Patriarca, 23, 2018, pp. 395-410.

في ليبيا بسبب الاحتلال العسكري البريطاني. أصبحت هذه الرعايا نماذج فريدة للتعاون المباشر مع المستعمر على أراضي الموطن الأم، وبما أن المستعمرات كانت تحتلها قوى أجنبية، كان الأمل يكمن في إعادة تفعيل روابط الصلة التي شعر بها المستعمرون نحو الوطن الأم، وبشكل يوازن بين الإيطاليين والأفارقة ويرتب وضعهم على أنهم أفارقة إيطاليون، ولكن هذا الطموح اضطر إلى الاحتكاك باللعبة السياسية في إيطاليا التي اهتمت باستغلال الامتيازات السياسية والدعائية لوجود هؤلاء الأفارقة في الموطن الأم دون أن تقدّم لهم وضعية اجتماعية واقتصادية مستقرة هناك.

بمجرد وصوله إلى نابولي، لم يطلب أحمد إعادته إلى ليبيا، حيث كان يحقّ له ذلك منذ أن أخذ كأسير حرب في طبرق، وفُضِّل البقاء في إيطاليا: "كنت عربياً-إيطالياً لأن دولتنا لم تكن ليبيا، بل إيطاليا، وكان هذا من حظي، لأنني في غريان [بلدة ميلاده] لم أكن سأفعل أي شيء، وبدلاً عن ذلك كنت في إيطاليا، وبهذا ربحت". هذه الكلمات القليلة تكثّف تجربة أحمد وتوقعاته: كان البقاء في إيطاليا قبل كل شيء اختياراً للحياة، والإقامة في الموطن الأم كانت ستضمن استئناف العمل كجندي وما يترتّب على ذلك من دخل. إضافة إلى ذلك أن ليبيا التي احتلّها البريطانيون، والتي لم تعد مستعمرة إيطالية، انتهت فيها وظيفة العسكري، وكذلك المرجعية الثقافية والسياسية والاجتماعية التي ترعرع فيها أحمد. لم تكن ليبيا مستقلة بعد، كانت فقط رؤية مثالية محصورة بين مجموعات القوميين. ما كان موجوداً بالنسبة لمعظم ليبيا هو استعمار جديد يسيطر عليه البريطانيون، حيث إن أولئك الذين تعاونوا مع الإيطاليين لم يجدوا وضعاً يمكنهم من الحصول

على وظائف وتزعزع وضعهم الاجتماعي في بيئة متغيرة. في حالة علي فقد تمكّن من التعاون مع البريطانيين، ولكن وضع أحمد واختياره كانا مختلفين عزّزه شعوره بأنه عربي-إيطالي. هذه ليست مجرد إشارة إلى الهوية التي شكّلها الاستعمار فحسب، بل أيضًا إلى الوضع القانوني الدقيق للمواطنة الليبية-العربية تحت الاستعمار الإيطالي.

في عام 1919، مع نهاية الحرب العالمية الأولى، تحكّمت المقاومة الليبية في مواقع إضافية بليبيا، ما أجبر الإيطاليين على العودة إلى الساحل. وعندها طرحت إيطاليا مسألاً سياسياً في مواجهة الليبيين من خلال إصدار قوانين تخصّ طرابلس وبرقة، يصاحبها خطة لاستيعاب الرعايا الليبيين من خلال إصلاح دستوري يدفع نحو الحكم الذاتي والمشاركة في الحكومة⁴⁰، حيث تم استبدال الوضع القانوني للرعايا الليبيين بـ"المواطنة الليبية-الإيطالية"، كبديل يشمل حقوقاً مدنية مهمة وإن كان أقلّ قدرًا من الجنسية الإيطالية، لكن مع ظهور الفاشية تم سحب هذه القوانين وتميرير سياسة استعمارية أخرى تخلّت عن الاستيعاب، مفضلة التعاون بين المستعمرات والمستعمرين، وهي وضعية فرضت التمييز الصارم بين طرفي المجتمع الاستعماري، ثم في عام 1939، بالنسبة للمقاطعات الساحلية الأربع الليبية؛ طرابلس ومصراته ودرنة وبنغازي، أعلنت إيطاليا عن "المواطنة الإيطالية الخاصة" لئمنح لبعض الليبيين الذي يستوفون بشروط خاصة، وفي الواقع كان الهدف من هذه المواطنة "حفر خندق جديد بين سكان

40 G.P. Calchi Novati, Amministrazione e politica indigena in Libia nella prima fase del colonialismo italiano (1911-1919), in «Studi Urbinati di Scienze Giuridiche, Politiche ed Economiche», 57-58, 41-42, 1988-89/1989-90, pp. 370-1.

الدواخل وسكان المدن“⁴¹ الهدف منها استيعاب الفضاء الليبي بدلاً من سكانه، ومع ذلك وعلى الرغم من التفضيل الواضح للإيطاليين عن سكان المدن الليبيين، رأت بعض فئات المتعاونين أن في هذه المواطنة الجديدة اعترافاً بحق التنافس على الوظائف العامة في أفريقيا الإيطالية وممارسة المهن، وبالنسبة للعساكر حمل السلاح والوصول إلى رتب أعلى في القوات الاستعمارية المتوخاة لليبيا⁴².

في المرة الأولى التي رأى فيها أحمد نابولي وإيطاليا في عام 1945، ظهر المواطن الأم كأنه “أعجوبة”، وبعد إقامة وجيزة في نابولي وإعادة الاندماج في القوات المسلحة، نُقل أحمد إلى الخدمة في باليرمو بصقلية حيث كان تحت إمرة قائد الفوج الذي تعاطف مع قصته إلى حد كبير وبات “مثل الأب” لأحمد. في إيطاليا عاش أحمد، وفقاً لكلامه، حياة مرضية ليس فقط بالنسبة للعمل ووضعه المادي، ولكن أيضاً على المستوى الشخصي، إذ كان لأحمد العديد من الأصدقاء:

الإيطاليون لا يعرفون أنني ليبي، ويعتبروني إيطالياً. أنا أتحدث الإيطالية بشكل جيد، هم لا يعرفون. لقد انخرطت مع فتاة جميلة لمدة ست سنوات، اسمها جوليا. كنا مخطوبين، تركتها كما كانت، عفيفة. عندما تزوّجت جوليا من إيطالي، والدتها أرسلت إليّ رسالة لأنني احترمت ابنتها وهي دخلت إلى الكنيسة عذراء بفستان أبيض.

41 A.B. Bertola, Storia e politica coloniale e dei territori non autonomi, Giappichelli Editore, Torino 1956, p. 279.

42 Articolo 6, Regio Decreto-Legge n. 70, 9 gennaio 1939.

درس أحمد وحصل على الشهادة الإعدادية وعاش حياة تشابه جيرانه الإيطاليين، إلى حد أنه قام بخطوبة فتاة، ولعلّ أهم شيء هو أنه لم يعد يُعرف بأنه أفريقي، بل إن الإيطاليين الآخرين اعترفوا به كإيطالي.

التغيير الجذري الذي حدث في حياة أحمد كان سببه تغير في الأحوال السياسية الدولية، ضمنها استقلال ليبيا والسياسة الإيطالية الجديدة التي، بعد عام 1949، وصّت بإعادة جميع العساكر الذين بقوا في إيطاليا إلى بلدانهم. حينها قرّر أحمد العودة بشكل دائم إلى ليبيا عندما أصبح أجنبياً في إيطاليا وفقد وضعه كرعية استعمارية واكتسب الجنسية الليبية الجديدة تلقائياً. من ناحية أخرى، كان السعي للحصول على المواطنة الإيطالية غير عملي من الناحية القانونية. بمجرد عودته إلى ليبيا، فكر أحمد "في الاستمرار كجندي، لكنني كنت أكبر سنّاً من أن أكون في الجيش". انضم إلى الإدارة العامة حيث عمل أولاً في مديرية الآثار ثم في بلدية طرابلس، وعلى الرغم من أن حكاية أحمد وُضعت جانباً مثل العديد من حكايات عساكر آخرين، إلى جزء من ذاكرة الفترة الاستعمارية، بالخصوص خبرته كعسكري، سرى في عائلته إلى أولاده وأحفاده الذين انخرط العديد منهم في جيش وشرطة ليبيا المستقلة.

5. خاتمة

سيرتا الحياة التي تم تقديمها هنا، مع اختلافهما، تقدّمان مقطعاً عرضياً لبعض استراتيجيات التعاون مع القوة الاستعمارية من قبل فئة اجتماعية مهمة في تاريخ الاستعمار الإيطالي في ليبيا، وهي فئة العساكر، وكيف

تغيّرت هذه الاستراتيجيات وتم تكييفها مع الوضع الدولي المتغير. في كلتا السيرتين، تظهر مركزية العلاقة مع إيطاليا والإيطاليين بشكل واضح، وأنها كانت مبنية على الحوار والتفاوض وليس على التبعية البسيطة. العلاقة مع إيطاليا لم تقتصر على وظيفة ومرتب، وبالتالي الرفاهية الاقتصادية، ولكن أيضًا تضمّنت الصداقة والعلاقات الحميمة مع الإيطاليين، من دون نكران الهيمنة والاضطهاد المرتبط بالاستعمار، ولكنه بشكل يسعى إلى تقليل جوانب تلك الهيمنة والاضطهاد عبر التعاون من السلطة الاستعمارية. بالنسبة لأحمد فـ"الاستعمار سيئ. هل تحب أن تستعمر أمة أخرى؟ لا! إنه أمر سيئ"، ومع ذلك لم يكن الاستعمار شيئاً فريداً ولم يكن حالة أبدية، خصوصاً إذا نظرنا خارج إطار السياسات والمؤسسات الاستعمارية، ولكن من منطلق الناس العاديين من الإيطاليين: "إذا كان الإيطالي شريراً وانضم إلى الفاشية يجب محاربته، ولكن إذا كان الإيطالي جيداً، فإنه سينضم إلى العرب، ويأكل معهم ويعمل معهم".

لذلك يمثل استقلال ليبيا نقطة تحول للحالتين اللتين تم تقديمهما وتحليلهما هنا، حيث إن الاستقلال أنهى مشروع أحمد للوساطة مع المؤسسات الاستعمارية الإيطالية المتبقية في إيطاليا، وكذلك أنهى سعي علي لأن يتعاون بشكل مختلف مع المحتل البريطاني الجديد. لم يغير الاستقلال فقط مسار حياتهما، بل وبشكل نهائي وضع حدّاً لخدمتهما في القوات الأمنية. الاختيارات التي قام بها أحمد وعلي مع نهاية الاستعمار والانتقال إلى الاستقلال توضح أن قصتهما تجاوزتا ما نعرفه عن التعاون مع المستعمر، بل وتُبرزان سعيهما للانطلاق في حياتهما كأفراد. في حالة

أحمد، كان اختياره الخاص هو إعادة بناء حياته وتكوين عائلة في إيطاليا، وبالنسبة لعلي فكان التحدي هو عدم مغادرة ليبيا والتكيف مع الوضع المتغير. لم يكن التعاون إذن مجرد ممارسة تهدف إلى التطابق مع النظير، بل بالأساس مشروع نمو شخصي يتحقق من خلال التعاون، ولذا ينبغي البت فيه وإن كان له بعد استعماري.

العلاقة التي تربط العساكر بذاكرتهم الخاصة فيما يتعلق بوظيفتهم كعساكر في السلطة الاستعمارية تختلف تمامًا عما قيل عنهم وعن إزالتهم من الذاكرة الوطنية. في الواقع، لم يفهم كلٌّ من العسكريين، علي وأحمد، سؤالاً وجه إليهما، بخصوص ما إذا كان قد قام أحد بتوبيخهما بسبب تعاونهما مع إيطاليا. من الواضح أن عدم فهم السؤال لم يكن سببه صعوبة في فهم الإيطالية، بل عن عدم القدرة على فهم مسألة إزالة العساكر من الذاكرة الليبية العامة. مما لا شك فيه، أن هذا الصمت يكشف أنه، على المستوى الشخصي، لم يكن هذان العسكريان السابقان يعيشان تحت وصمة معينة في حياتهما الخاصة، ولكن هذا الصمت يوضح أيضًا أن قصة حياتهما ظلت حقيقة خاصة بهما فقط، لدرجة أنه لم يُطلب منهما سردها إلا في عام 2009. بهذا المعنى، لا يسع المرء إلا أن يلاحظ أن هناك انفصلاً جلياً بين الذاكرة العامة والذكريات الخاصة. يبقى لنا أن نرى ما إذا كانت الذاكرة الخاصة في المستقبل قادرة على القيام بإجراء تصحيحي في الذاكرة العامة لإبراز إشكالية وتشابك التاريخ، سواء في فترة الاستعمار أو فترة ما بعد الاستعمار!

ليبيا خلال الاستعمار من منظور إثيوبي

سعد العشة

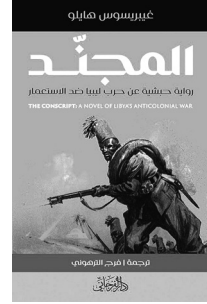
غيبريسوس هايلو.

”المجنّد: رواية حبشية عن حرب ليبيا ضد الاستعمار.“

ترجمة: فرج الترهوني.

دار الفرجاني، طرابلس

2023



يستهل غيرماي نجاش مقدّمته لرواية (المجنّد) بأن ”ليس هذا هو المكان المناسب للدخول في مناقشة طويلة للكتاب، أو لتقديم سيرة موسّعة للروائي“. نجاش، كما يعرفه فرج الترهوني، هو أستاذ اللغة الإنجليزية والأدب الأفريقي بقسم اللغة الإنجليزية، ومدير برنامج الدراسات الأفريقية في جامعة أوهايو، ومؤسس قسم اللغات والآداب الإريترية بجامعة أسمرا“. الترهوني كاتب ومترجم ليبي نقل عن الإنجليزية رواية (المجنّد)، الصادرة في طبعتها العربية الأولى العام الفائت (دار الفرجاني). وبالعودة إلى نجاش، فقد نقل هو الآخر النص التغريبي الأصلي إلى الإنجليزية لأول مرة في 2012. الروائي أخيراً هو جيبريسوس هايلو (1906 – 1993). هذا التخبّط في التعريفات لا يبتعد كثيراً عن مآلات الرواية، فبطل الرواية مجنّد حبشي في جيش الاستعمار الإيطالي، يحارب في ليبيا المُستعمَرة

في العقد الثاني من القرن المنصرم.

ولئن سارع نجاش في تشديده على الاقتضاب، فلن تسعفني خلفيتي الثقافية على الإلمام بتحوُّلات المؤلف وتفاصيل اللغة التغرينية التي أجهلها تمامًا، على الرغم من انتمائها إلى العربية في العائلة السامية الكبيرة. أقتفي إذًا آثار النص كمن يجلس منصتًا إلى نبرات الحكواتي المتحوِّلة، على الرغم من احتواء الرواية أكثر من منبع إبداعي؛ فحينًا يحكي هايلو قصته شفهيًا لجمهور عالمي (نتاج تراث توثيقي تغلب عليه العظة والحنق والتحسُّر)، وحينًا يسترسل في تأملاته على نمط الإنسانية المسيحية في عصر النهضة (وهو الباحث الكاثوليكي الذي درس اللاهوت في الفاتيكان)، وحينًا يكتب بنزعة الصحفي/ المثقف المناهض للاستعمار في مهده (كُتِبَت الرواية في 1927 ونُشرت في 1950).

لا تشبه قصة توكوابو، محور الحكاية، نظيرتها في الأدب أو التاريخ آنذاك. في تلك الحقبة، مثلاً، كتب الألماني إريك ماريا ريمارك روايته الكبرى (الوضع هادئ في الجبهة الغربية)، حيث يصطدم البطل الشاب بشناعة الحرب العالمية الأولى، وهو الذي تطوَّع للتورُّط فيها من أيديولوجيا قومية راسخة، إلا إن رغبة توكوابو لم تنبثق من طموحات قومية، بطباع الأحوال. وفي التاريخ، يحارب إلى جانب بطلنا ليبِّيُّون من الميليشيات التي وُظِّفَتْها إيطاليا في فرق أطلقت عليها Bandas، يساند أفرادها جيش الاستعمار بمهاريتهم ومهاراتهم في الصحراء، على أن مفهوم القتال مرتبك، فتتوازي سيرة المجند الإريتري كي لا نقل تتداخل أو تتقاطع "مع سيرة المجنَّد الليبي في محنته، وتتمايز مفاهيم الوطن والآخر كما نستدرك في متن الرواية.

ولادةُ تصارع الموت

تُحكى القصة في أقل من 70 صفحة، يبدأها هايلو بالولادة الأسطورية لـ"بطل" الرواية، إذ ينجو الفتى من موتٍ مبكر كان قد طال سلفاً أشقاءه وشقيقاته الخمس، ولكي يكتمل التصوير الميثولوجي لهذه الولادة، تحلم أمه بيدٍ مجهولة تقطع خمس زهرات وتُبقي على السادسة في أول تجليات الموت المسيحية، كامنَةً في المنجل القاتل الرحيم. ولتُختَم هوية البطل المسيحية، يُسمّى توكوابو مدهانيي آليم، أي نعمة الله.

إشارتان إلى تحديات توكوابو المقبلة نقرأها مباشرةً بعد مشهد الولادة: الأولى ارتباطه الحميم بالمسلمين في قريته حين استأجرت عائلته الثرية عائلة مسلمة للاعتناء بالماشية، ويذهب هو ليرعى ماشية عائلة مسلمة أخرى. الثانية يكاد هايلو يهمس بها وسط صخب الطبيعة الموصوف، فيكتب "في قلبه الشاب، ظل يتساءل عن سبب هروب قردة البابون أمامهما وهي الأكثر عددًا منهما، لكنه احتفظ بهذه الأفكار لنفسه"، ولعلّ هذا السؤال هو ما يطرحه الحكواتي في ثنانيا النص عن أسباب عجز المستعمر عن المقاومة.

وإثر القرع الهادر لطبول الحرب، نقرأ أن "زعماء أحباشًا" يتوسّلون، "يا إلهنا، لا تجعلنا خاملين، أرجوك أحضر لنا الحرب". هذا السرد الصادم لا ينحو منحى أخلاقيات الحرب المعهودة، فالرغبة في الحرب هنا ليست وليدة عقب الاستعمار أو العدوان، بل متأصلة في أن "التمرين قد يساعد على إصلاح أجسامهم المترهّلة".

الحج إلى الحرب

في وصف أسمر، يثني الراوي جماليًا على تحويل الإيطاليين المدينة إلى جنة ما. هنا ينطلق توكوابو مع رفقائه المجندين صوب "طرابلس"، أي ليبيا، للقتال في معركة لا يعرفون عنها شيئًا. يذكرني هذا الوصف بإيمان راسخ لدى شريحة كبيرة من الليبيين: أن الاستعمار الإيطالي كان الأوسع بين إمبراطوريات أوروبا، لأن فرنسا وبريطانيا، مثلًا، خلقتا "حضارة" و"ثقافة" في المنطقة، بعكس الإيطاليين، بيد أن هailو مدرك لهذا الفخ، فيصف مباشرةً معاملة الشرطة الوحشية للمجندين في محطة القطار المغادرة في أولى حلقات المجاز الحيواني في الرواية، فالتشبيه بمعاملة البهائم يتغلغل في أطراف النص كافة.

انطلاقًا من القطار إلى السفينة، ينبهر الجنود بالبحر وسحر الترحال، وهي ظاهرة إنسانية نلاحظها في أغلب الجيوش، لا سيما جيوش الإمبراطوريات، حيث رغبة الجنود في رؤية العالم عارمة. وفي غبطة التماهي مع جمال الطبيعة، يتيقن الجنود من التمييز الصارخ تجاههم من الضباط الإيطاليين، فها هم يتحنطون تحت نار الشمس، فيما ينعم موظفونهم ببذخ الرحلات السياحية.

يزداد الأمر تعقيدًا حين ترسو السفينة في ميناء بورتسودان، فإثر العطش والقيظ، نرى التصوف مائلًا في نفوس المجندين، في عبارات من قبيل "هناك ميلٌ إنساني إلى تحويل انتباه المرء عن التفكير في العطش عندما يكون محاطًا بالماء"، لكن لقاء الإريتري بجاره السوداني يكتنفه مونولوج

داخلي ملؤه الكره والترصّد، فالسودانيون يفكّرون: "هؤلاء العبيد! إنهم ذاهبون إلى طرابلس من أجل المال!"، فيما يقول الإريتريون في أنفسهم: "هؤلاء السود! لا يمكنهم أبداً أن يكونوا متفوقين علينا". تتمحق الطبيعة كموحّدة للإنسانية وتتفكّك الهوية الجامعة للأفريقيين عامّةً، ولشعوب شرق أفريقيا خاصة.

تمضي السفينة في مسيرتها الزائرة جغرافيا الكتاب المقدس، ويستطرد الحكواتي في الحكّي، فها هم المجندون الوردون يحيّون كل معلّم بإجلال: إجلال يسيّر معه جهل (استعارة من المعرّي) ف"لو كان بعضهم على دراية بالكتاب المقدّس، لعرفوا أن معنى إريتريا هو 'الحمراء'، وكانوا قد فهموا أنهم موجودون الآن في البحر الأحمر، أو لكانت مشاعرهم قد طغت وجاشت عواطفهم وهم يستعيدون مديح النبي موسى لعظمة الله".

بعد سيناء، آخر محطات الكتاب المقدس، ينهر المجندون بثقافة المصريين في السويس، في ربط يكاد يكون سورلياً مع الجار العدو. قطيعة الحكواتي مع مآلات شخوص الرواية، لا سيما توكوابو، كامنة في أطول فصول الرواية وأكثرها تعقيداً. فهنا يعود الحكواتي ليتهاكّم بدون مرارة، على سذاجة المجندين المنبهرين بمقر البطريق في الإسكندرية، فيقول: "كالمعتاد، يركّزون على جانب الخير"، ولكنهم "يجهلون شرور بعض البطارقة الذين تم إرسالهم من المكان نفسه إلى إثيوبيا، وتسبّبوا في الكثير من الأذى للناس"، ولعلّ في اقتباسنا هذا يتأتّى الجامع للـ"متحدثين الثلاثة"، فالحكواتي يحكي/ يتكلم/ يتحدث عن المجندين بسلاسة وعفوية، وعالم اللاهوت الإنساني يشجب دور البطارقة في الاستعمار،

والمتكف يؤرّخ أساليب القمع التراكمية، حيث ينصهر المستعمر في ثقافة المستعمر.

تنتهي المسيرة في درنة "الأسطورية"، ومنها إلى رمال الصحراء الحارقة، حيث الحرب والظنك مسك ختام الترحال والاحتكاك مع البشرية. على أن الصحراء ليست مجازاً بالكامل، فهنا فعلاً يقتل الجنود ويُقتلون، ويموت التائه من العطش، ويأكل البشر جثامين رفقاءهم.

الفردوس المفقود

"يا صديقي العزيز، هل تعتقد أن الناس يعيشون في مثل هذه الرمال الجافة؟"، يسأل توكوابو العائد إلى مسار الحكاية. يجب صديقه العزيز: "ماذا يمكنني أن أقول؟ وأنا مثلك أنظر حيثما تأخذني عيناى. فكيف لي أن أعرف؟".

سيتأسف توكوابو هنا عن مغادرته خضرة قريته وأنهاها وبذخ ألوانها وضجيج كائناتها، ولسوف تزداد حدة الاغتراب والرغبة بقدر التمييز المتعاضم تجاه المجندين الذين أنهكهم السير والعطش. سينبثق آنياً "صوت داخلي" انتاب توكوابو في مطلع الرواية، يحثه على الرحيل والقتال، وها هو يؤذبه الآن على هجر النعيم والمسير صوب التهلكة. يعقب هذا الصوت الداخلي في الحالتين مثل شعبي يذبل شخصية توكوابو الثقافية، حيث "قشاع الضباع القبيح، ونباح الكلاب وصراخها، وهو ما يُذهل توكوابو ويخيفه أيضاً"، فبقي وطنه "كنزاً في ذاكرته".

فهل نستنتج من هذا أن رغبة توكوابو في الرحيل والقتال منبثقة من غياب الأيديولوجيا (حيث الوطن لصيق بالطبيعة، بعكس الأيديولوجيات القومية)؟ هذا التسطيح لا يحدّد أهمية التنافر البيئي (قسوة الصحراء ضد وفرة أرض الوطن) في نقد المجند لذاته. هذا تسطيح لأنه مع اقتراب المعركة، يصبح الضابط الإيطالي مخاطبًا المجندين: "أيها العسكر الإريتريون الأسود، أولئك الذين ستقاتلونهم الآن مجرد حفنة من الرعاة. ربما تكونون خائفين منهم بسبب بشرتهم البيضاء، لكنهم ليسوا مثلنا..."، فيسترسل بأن جنود المقاومة لا يملكون السلاح، وأن المجندين سيُثابون بأكل اللحوم، عدا الغنيمة... إلخ.

على هامش خاتمة خطاب الضابط الصادح: "تحيا إيطاليا، ويعيش مليكنا إيمانويل!"، ينسحب خطاب الحكواتي على التاريخي-القومجي، فهو لا يتوقّع خطابًا أقل حدّة تجاه "مرتزقة"، ولكن الضابط "نسي أنه كان يخاطب الأحباش الذين لديهم تاريخ طويل من المقاومة... على عكس بعض الأفارقة الآخرين ممّن ليس لديهم فخر بتاريخهم وبلادهم. نسي القائد أن جنود الحبشة كانوا يقاتلون لأنهم يبحثون عن معاني الشجاعة والبطولة، وليس من أجل حفنة من المال".

أيجيب الحكواتي هنا عن سؤال السطحي؟ ليس بعد. فصحیح أن توكوابو قادم من أسرة ثرية وليس في حاجة إلى الاستزاق. صحیح أيضًا أن نكسة الأراضي الإريترية ومن بعدها إثيوبيا في الحرب الإيطالية الإثيوبية الثانية، كان شبيهًا بالصدمة بعد انتصار الإمبراطور منليك الثاني الحاسم في الحرب الأولى في 1896. على أن هذه الفورة صارت تعليقًا على الاعتراف

بالمملك إيمانويل، حيث يرفض "الشرفاء"، ومنهم توكوابو، ترديد العبارة، كما جاء في النص الخالص في نهاية الفقرة إلى: "أبناء الحبشة الذين لم يفعلوا شيئاً في البداية عندما تم الاستيلاء على أرضهم وانحنوا للإيطاليين كالكلاب...".

أما الانتقال من "الشرف" إلى البراغماتية في فن الحرب نلتمسه في الفقرة ذاتها، حيث يشيد الراوي ببراعة الليبيين في أرض المعركة لأنهم يقاتلون بلا قائد وبلا ملك، وهم "الذين أرادوا فقط الدفاع عن بلادهم"، حيث صار الأحباش وسيلة لاستعمار جيرانهم من الأفارقة "دون أي شيء مفيد لبلدهم أو مجتمعتهم". ويغوص هذا التحقيق التاريخي أكثر في مآلات الحرب، حيث تُفهم العداوة بين العرب والأفارقة السود لأن بينهم "عداوة تاريخية"، لكن الراوي يحذّر من تكرار التاريخ لذات "المأزق"، "فإذا جاؤوا إلى بلدنا في يوم من الأيام لقتالنا بقيادة فرنسي أو إيطالي ما، ألا يعلم أهل الحبشة أن الليبيين سوف يقومون بالانتقام؟".

في تصنيفي الثلاثي للراوي، أقرأ في هذه الترجمة البراغماتية لمسار الحرب صوت المثقف وهو يناشد أبناء جيله في مقال رأي. والباهر في هذا الرأي الاستشهاد بالفرنسي والإيطالي كوسيطين للانتقام، في فهم عميق لحروب الوكالة الإمبريالية التي لم تتغيّر عدا تقنياتهما.

"العربي" بعين "الحبشي"

على لسان إحدى الشخصيات، نقرأ "إن أسوأ إساءة عربية يذكرها أي حبشي عائد من أسره في بلاد العرب هي إجباره على شرب حليب الإبل".

ولتمضي هذه النادرة في نثرٍ ساحرٍ ينيف عن عشر صفحات، يقدم فيه هايلو فسيفساء من القصص والنكت الدائرة من حول "العرب"، وهم في هذه الحالة الليبيون. الطريف أن هذه النوادر المكتوبة بقلم روائي إريتري في أواخر عشرينيات القرن الماضي نسمع ما يشابهها اليوم في شرق ليبيا. على أي حال، يسرد هايلو نسل العرب وأشكالهم وطباعهم ويفكك الصور النمطية التي رسمها الإيطاليون عنهم.

من هذه الصور، كسل الليبيين الذي قيل فيه نكت أشرتُ إليها. على أن الراوي يتحدث عن "كيف يقوم الليبيون بتسليح أنفسهم والاستعداد للقتال عندما قيل لهم إن هناك جيشًا غربيًا قادمًا لمهاجمتهم؛ لا يمكن لأحد بعد كل شيء أن يصدق هذا الكسل المفترض عندهم". وفي تماهي الراوي مع الطبيعة، يتعجّب مجددًا من العدو، "فلم يكن لهم قادة يصدرن الأوامر والتعليمات، وبدوا مثل قطع من الأبقار في مواجهة الضباع المهاجمة"، ذاك أن التوصيف الحيواني للمشاهد ليس بالضرورة احتقاريًا وليس بالضرورة "بريئًا"، وهنا تكمن روح الحداثة في تنويع التكرار ونبذ "أخلاقية" المجاز.

في الصفحات العشر المشار إليها، يغيب توكوابو للمرة الثانية، فالرواية تبلغ ذروتها وبشاعة المشهد -وجماله أيضًا- لا يحتمل تكرار بطلنا للهواجس ذاتها، فالمعركة "كانت لحظة مرعبة وغريبة ومحيرة حين مشاهدة الليبيين وهم يركضون، والأحباش يطاردونهم، بينما الإيطاليون يصرخون: جميع الثقافات الثلاث المختلفة معًا، وبأساليب قتال مختلفة، اختلطت في تلك المعركة".

”وهكذا انتهت المعركة بنصر ساحق للأحباش. لا، لقد أخطأت. كان النصر للإيطاليين“، صوت المثقف الطامس لعفوية الحكواتي.

عودة توكوابو

بعد الانتصار، يقوم توكوابو بواجب الحراسة في حدة اغترابه عن الأرض. يتفكّر الحكواتي: ”في بلدنا لا يشعر المرء بالوحدة أبدًا؛ فحتى إن كان سماع أصوات الحيوانات البرية في الليل يبعث على الخوف في الإنسان، لكن مع ذلك فلاستماع إليها يروّح عن القلب قليلاً حيث تشعر بوجود شيء ما من حولك“. لتنتقل مباشرة حالة التفكّر هذه إلى توكوابو نفسه، فيتساءل: ”وهل يسمون هذه بلادًا! لكن مهلاً... فالليبيون يقاتلون من أجل هذه الأرض القاحلة. أما نحن؟ علينا اللعنة! لم نحرك ساكنًا عندما جاء الإيطاليون للاستيلاء على أرضنا الخصبة... عندما تفكّر في الأمر، فالليبيون في هذا المكان من البدو، وكان ينبغي ألا يهتموا كثيرًا، حيث بإمكانهم التحرك بسهولة تاركين هذه الأرض القاحلة للإيطاليين، لكن رغم كل هذا، لم يركعوا للحكم الإيطالي“.

إنه ”تكرار بطلنا للهواجس ذاتها“، لكن هذه الهواجس الآن منطوقة وتنساق مع خطاب الروائي في ذات الفقرة، فقد بات ”الجحيم“ الذي وُصفت به الصحراء واقعًا لا يطاق، فسُمّي فصل الرواية الأخير ”العطش القاتل“، وهو ما يصير لأغلب أفراد الفرقة. يهرب الضابط الإيطالي مخافة أن يقتله مرتزقة على حافة الموت عطشًا، ”لكن في الحقيقة، لم يكن أحد منهم يجرؤ على ذلك“.



مجنّدون أفارقة في الجيش الإيطالي.

”دعونا نقل الحقيقة“، يقول الحكواتي -ومن غيره!- ”هل يجرؤ الحبشي على الثورة ضد إيطالي؟“، يهلك أغلب الجنود، وينجو آخرون، بينهم بطلنا، بعد العثور على بئر، وفي خضم لعبة النجاة، ينجو آخرون، لكنهم ”تصرّفوا مثل الغوغاء، أو مثل الذباب الطنّان الذي يسقط فوق وعاء من الحلوى، وماتوا وهم يدوسون بعضهم البعض“.

هذه المشاهد تذكّرنا بلوحة إيليا ريبين، بحارة على نهر الفولغا، حيث الوهن واليأس على أشده. ”نتمنى ألا يرى آباء بني الحبشة هذا...“ في خاتمة مشهديه تنتقل من التقرير إلى الإنشاء المناهض للإمبريالية.

يتحسّر بطلنا مجدّدًا، ويتمنّى لو أن السفر كان لغرض التجارة أو الصيد أو لأي شيء ”غير ضار“. لا يفهم اختياره الحرب والمهانة والجوع والموت، كما ينص الراوي الذي يذكر والديه، ويخرج الحكواتي على السطح، قائلاً: ”ولكن بما أننا نتحدّث عن والديّ توكوابو، فلنرجع إليهما“.

من فرحتها بقدوم الابن، تموت الأم. ولعل موت الأم في الحكايات لازمة نراها مع الهزيمة (هزيمة الحرب في العام، وهزيمة المثاليات في الخاص). هنا نقرأ قليلاً عن طيش الشباب ومرونته على تخطي المحنة، بعكس الأب الذي فقد زوجته وقد يفقد ابنه.

في العودة أيضًا يتجلّى القمع لبطلنا في أشكال أخرى، الآن وقد صار خبيرًا في التعايش في مجتمع قمعي-استعماري، بيد أن الراوي لا ينقل الإحباط على لسانه، فيكتب: ”كان من المحزن رؤية الأحباش من عملاء السلطة هناك، والذين كانوا يصيحون بفخر ’برونتو‘ وهم يردون على الهاتف باللغة الإيطالية، لكنهم ببساطة تجاهلوا أو استهزؤوا بأسئلة بني وطنهم، بل جرى

الأسوأ من ذلك، ففي بعض الأحيان هناك جلد وضرب ودفع.“
فيما يخص لقاء توكوابو بأبيه، يكتب هايلو بروح الحداثة: “من الأسهل
تخيّل ذلك بدلاً من التعبير عنه بالكلمات.”

يختم المجند العائد، كي لا نقول “يُنهي” حكايته بقصيدة يجلد فيها ذاته
ويرثي أمه، يبدأها بـ: “ذاهب إلى أرض بعيدة / ليس من أجل رفعة وطني...”
وينهيها كي لا نقول “يختمها”، بـ: “انتهيت من التجنيد وكل الميداليات
الإيطالية. / وداعاً السلاح!”.

تتحول تجلّيات الأبطال الحلوة/ المرّة من الأسطورة –من جلامش إلى
أوديسيوس– إلى الحداثة– من مرتزقة الاستعمار إلى مجنّدي الدكتاتوريات.

ما تعلَّمهُ "لورانس الدنماركي" في ليبيا

فريدريك ويرلي

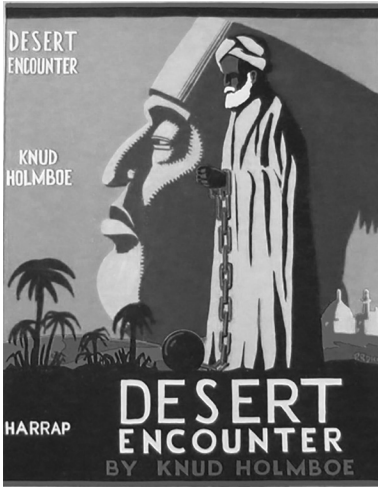
ترجمة: سعد العشة

صدر المقال في نيويورك ريفيو أوف بوكس، عدد 25، نوفمبر 2019

برواية مغامرته الليبية، صار هولمبو أحد الشهود الغربيين القلائل على فظائع النظام الإيطالي الاستعماري في حملته لمكافحة التمرد، وبات الكتاب الأفضل مبيعًا في الولايات المتحدة وأوروبا. وفي معرض مراجعته الكتاب في 1936، كتب جورج أورويل: "خليقٌ بالجماهير الإنجليزية المبجلة لموسولينى أن يلقوا نظرة على الكتاب".

في صيف 1931، قامت السلطات الأمنية في سوريا الفرنسية باحتجاز وترحيل صحفي دنماركي، كان قد قضى السنة الماضية وقتًا في إقليميّ طرابلس وبرقة في شمال أفريقيا، وهما كيانات ضمن ما سيُعرّف لاحقًا بدولة ليبيا الحديثة. وبحسب ما ورد، فإن السلطات الفاشية الإيطالية طلبت سلفًا من الفرنسيين أن يطرّدوا الرّحالة البالغ من العمر آنذاك ثمانية وعشرين عامًا بحجة التخريب والتمرد. احتاج المسؤولون الفرنسيون في سوريا إلى من يقنعهم بهذه التهم، فسمعة هذا الدنماركي الفارع أزرق العينين قد سبقته، حيث إن تقاريره بشأن ليبيا، كما رأوها، أجّجت أعمال شغبٍ ضد إيطاليا على الأراضي السورية، فسقط العديد من الضحايا. بُعيد

فريدريك ويرى



إلى اليمين الطبعة الدنماركية من كتاب "مجاهدة صحراوية" وعلى اليسار الطبعة الإنجليزية

هذه الاضطرابات، وُسِّمَ الشاب في مقالة في إحدى الصحف البريطانية بـ"لورانس الدنماركي"، في إشارة إلى توماس إدوارد لورنس، الضابط العسكري البريطاني في الحرب العالمية الأولى، والمعروف بـ"لورانس العرب".

في الظاهر نرى العديد من أوجه الشبه ما بين سيرتي الرجلين، الدنماركي المسمى كنود هولمبو ولورانس الذي بات أسطورة، فقد تحدّث الرجلان العربية وصارا مولعين بالثقافة العربية، رغم أن هولمبو ذهب أبعد من ذلك واعتنق الإسلام، حيث نقض كرهه القديم للمسلمين والعرب. كلاهما ارتحل عبر الشرق الأوسط وكتب بشأنه، ومن منظور صارم على المشاريع الاستعمارية الأوروبية، رغم أن الرّحالة الدنماركي لم ينخرط في مخطّطات ومكائد كما صار مع عالم الآثار وضابط الاستخبارات البريطاني. الخلاصة: كان الرجلان نصيريّ الحملات العربية المناهضة للاستعمار. بحلول اليوم الذي احتجز فيه الفرنسيّون هولمبو، كان الأخير قد سُجِنَ سلفًا في مصر بتهمة التآمر مع معارضين لليبين ضد إيطاليا، وهم أعضاء في الجماعة السنوسية الصوفية، لكي يعيدوا إمداد قاعدة محاصرة من الثوار عبر الحدود في جنوب ليبيا.

ما حقّز هولمبو على نشاطه ضد الإيطاليين كامنٌ في رحلته على الطريق في 1930، عبر ليبيا الواقعة تحت الحكم الإيطالي. بصرف النظر عن قربهِ من الأحداث المميّنة، فقد كشفت له الرحلة عن قسوة العمليات الإيطالية المكافحة للتمرّد، وبخاصةٍ في شرق ليبيا، حيث معسكرات الاعتقال والشنق وقنابل الغاز السام والتهجير القسري وتجويع المدنيين.

تشير تقديرات عدد القتلى في الشرق، حيث يصفها المؤرخون الإيطاليون والليبيون بأنها "إبادة جماعية"، إلى أنها تتراوح بين 35000 و70000. كان هولمبو أحد الشهود القلائل من العالم الغربي على هذه الهمجية، وكخطوة أولى في سلسلة التهديدات التي عمدت إلى إسكاته، قام الإيطاليون بترحيله على متن سفينة سجن عَفْنَة في ختام رحلته في 1930. ويرفضه الخنوع، نُشِرَت) نشر هولمبو في 1931 كتابًا يروي الأوديسا الخاصة به بالدنماركية وهو عنوان ¹Desert Encounter بعد خمس سنوات بالإنجليزية بعنوان صار الكتاب. (مُخَفَّف عن الدنماركي الأصلي، المُترجم صحراء ملتهبة الأكثر مبيعًا في الولايات المتحدة وأوروبا، على الرغم من الحظر الفوري المتوقع في إيطاليا، إذ لم تبصر الترجمة الإيطالية النور إلا في 2004

ولطالما شغل هولمبو تفكيرى في أثناء ترحالى عبر ليبيا خلال العقد المنصرم، حيث تتبَّعتُ أحيانًا خطى مسيرته، على أنى لم أجلب كتاب مجابهة صحراوية في ترحالى إلا في هذا الصيف، أغرق في ثنايا صفحاته طيلة الأصائل المتناقلة في طرابلس، وفي المساء في جبهات القتال طيلة فترات الهدنة ما بين الميليشيات المتقاتلة، وإذ يمزج الكتاب أدب الرحلة مع التأمّلات الروحانية والنقد الاجتماعى والصحافة الاستقصائية، فهو يتجنّب أساليب النثر الأوبرالية وطموحات الملاحم الهوميروسية التي نستشّفها في كتاب لورانس، أعمدة الحكمة السبعة. يخلو الكتاب أيضًا من الكليشيات الاستشراقية التي أغدقت روايات الرّحالة الغربيين آنذاك، فالكتاب يبدو أحيانًا كروايةٍ نقرأها في مجلة Boys' Own وعلى شاكلة مغامرات تان تان،

1 "مجابهة صحراوية". المترجم

على الرغم من أن الكتاب ينحو أحياناً منحى العظة والتعالى، وقد وسمت صحيفة نيويورك تايمز الكتاب بـ"المشوق"، أما في ذي أوبرفر، لم يكن غراهام غرين بتلك الحماسة: "إن حكاية هولمبو حماسية وفحوى مادته مهمة جداً، لكن مواهبه الأدبية شحيحة".

مهما يكن من الأمر، يظل كتاب مجابهة صحراوية وثيقة تاريخية دامغة، وهو جديرٌ بالذكر لما يسرده من فظاعات الحكم الإيطالي، فها هو هولمبو يصف مشاهد دموية تشي في سُرّاليتها، كما أرى، بما سرده إسحاق بابل في سلاح الفرسان الأحمر وما سرده كورزيو مالابارته في كابوت. يمر عبر القرى المدمّرة والمهجورة، حيث ردم الإيطاليون آبارها بالرمال والإسمنت. يرى حطام الطائرات الإيطالية بفعل بنادق المتمردّين الليبيين وتتعثّر خطواته فوق جثث نصف عارية، فيما تنخر أطرافها الذئاب، حيثما "تأثّق عيونها الصفراء كالومض الفوسفوري"، وها هو يحضر إعدامًا بشنق لبيبين، إذ يدير منصة الإعدام جيشُ الاحتياط الاستعماري الإيطالي، المكوّن من إريتريين مسيحيين "تزدان أعناقهم بصلبان فضية كبيرة". ولئن أنعم النظر في الجمهور الحاضر، لاحظ أن المستوطنين الإيطاليين قد جلبوا كاميراتهم.

وبالنظر فيما وراء شهادته على النهب الحاصل في حقبة استعمار ما بين الحربين، فثمة ما يحيلنا إلى زيارة كنود هولمبو مرة ثانية. لقد ألقت مسيرته الانقلابية الحادة بظلّها على الانقسامات والنعرات التي لا تزال تفرق بيننا، فهو كان مسيحيًا وبات مسلمًا، كان يدعو إلى التفوّق العنصري الأوروبي وأضحى مناصرًا لتحقيق المصير العربي، وتحوّل من كونه

مراسلاً إلى ناشطٍ سرّي، وصار أيضاً نذيراً بعصره المضطرب، وربما بعصرنا المضطرب، إذ حدّر من قدرة الفاشية في ممارسة العنف المتطرف، في زمنٍ كانت فيه شعوب الغرب إما شاردة عن هذه المخاطر وإما متورّطة في مآربها. "خليقٌ بالجماهير الإنجليزية المبجّلة لموسوليني أن يلقوا نظرة على الكتاب". يكتب جورج أرويل في معرض مراجعته كتاب مجابهة صحراوية في 1936، أي قبل شهر من وصوله إلى برشلونة لكي يقاتل ضد جيش فرانكو في الحرب الأهلية الإسبانية.



وُلِدَ كنود فالديمار غلدنغ هولمبو في الجزء الدنماركي من شبه جزيرة يوتلاند في 1902، وهو البكر بين سبعة أولاد وبنات، لعائلة من أعالي الطبقة الوسطى. وتحيلنا بيئة طفولته إلى دوامة من إنسية رحبة وولع أدبي وشغف روحاني سيصبغ ترحاله المُقبِل. وقد أصبح أحد إخوته، فاغن، ملحقاً للوثريّات الكلاسيكية، واشتهر بتكنيك "الانسلاخ - metamorphosis" الخاص به، حيث وُصِفَ مرّةً في الصحف بـ "وتيرةٍ إيقاعية" كامنة في "حالةٍ من التطوُّر الدائم". قد يكون هذا التجديد الموسيقي بمثابة كنايةٍ عن المسارات والتحوُّلات التي شكّلت هوية كنود هولمبو وفكره.

في عمر التاسعة عشرة، قضى وقتاً في دير بيندكتي في لوكسمبورغ، آملاً في أن يصبح راهباً، لكنه صار عوضاً عن ذلك صحفياً يكتب للجرائد الدنماركية. نشر تقاريره بدءاً من الدنمارك وأوروبا، ومن ثم حوّل تركيزه إلى شمال أفريقيا والشرق الأوسط، حيث الانطلاقة إلى المغرب أولاً، وهناك قابل أميراً دنماركياً يحارب في صف الفيلق الأجنبي الفرنسي. وفي الكتاب روايته

لأحداث جبهات القتال في حرب التمرّد التي شَنَّها المغاربة في عشرينيات القرن العشرين ضد قوات الاستعمار الإسباني والفرنسي، والتي تُعرَف بحرب الريف. يزخر السرد بالتنميط العنصري: فالرجال "الداكنون" الذين قارعوا الاحتلال، كما كتب، هم "قَطّاع طرق" مدفوعون بـ "التعصّب الديني". وكان مؤلف هذه الأسطر ليس من كتب مجابهة صحراوية المنشور بعد إحدى "عشرة سنة، إذ يوصف المقاتلون المغاربة ذاتهم بـ "ساكني الجبال البواسل

ما الذي طرأ فغَيَّرَه بهذه الشدة؟ حين راقب إقامة الصلاة في القدس في 1926، بدا الأمر كشرارة اهتمامٍ تبجيلي بالإسلام. "عمّت السكينة تمامًا"، كما كتب لاحقًا عن التجربة، "فليس ثمة قس يحتفي بالقداس أو يعظ أو يحوّل الخبز والنبيد إلى الرب، ليس ثمة موسيقى تفتن الفؤاد وتُضِلُّه عن التفهُّم". بعد أشهر، زار مسجدًا في الجبال المغربية واستمع إلى خطبة إمام هريم عن فضائل الإسلام. في 1929، إبان زيارته إنجلترا، دخل الإسلام رسميًا.

على هذه الخلفية شرع هولمبو في رحلته عبر شمال أفريقيا في 1930. كان قد نوى سلفًا أن يسافر بحرًا من إسبانيا إلى مصر، ومن ثم إلى مكة والمدينة المنورة، فإذا بمحادثة عرضية في بهو فندق في مدينة سبتة الإسبانية، المحصورة في شمال المغرب، تقنعه أن يرتحل برًّا عبر المغرب العربي. "ألّف لنا كتابًا عن شمال أفريقيا كما يراه العرب" كما جاء على لسان الغريب في رواية هولمبو في كتاب مجابهة صحراوية. ولئن قبل بالتحدي، فقد آل على نفسه أن يجتاز حدًّا نفسيًّا وميتافيزيقيًّا بقدر ما كان جغرافيًا. وقد بيّن أنه "سيكون يومي الأخير بصفتي أوروبيًّا". وباعتماره البرنوس المغربي حيث بدا من "غير الممكن التعرّف" عليه، قام باختيار وسيلة نقله: عربة شيفروليه



كنود فالديمار - صورة ملتقطة في أوائل الثلاثينات من القرن العشرين

موديل 1928، مزودة بمحرك رباعي الأسطوانات وبخزان وقود مكبر. إبان دخوله ليبيا، قاد سيارته عبر طريق دشنها الإيطاليون ("أبهى طريق أراها في حياتي، حتى في أوروبا")، ووصل إلى العاصمة، طرابلس، حيث وطّد نظام موسوليني الفاشي مشهدية سلطوية فظة. فها هو يكتب أن "المباني تتبهرج بالرخام وألق النحاس"، فيما يسير شبيبة ميليشيا القمصان السوداء في الشوارع وهم يزدانون بصور إل دوتشي المزخرفة بالنقوش الكاتبة: "من ليس معنا، فهو ضدنا". لقد أضحى الإيطاليون "Sono liquidati". واثقين من انتصارهم الوشيك ضد من بقي من المتمردين الليبيين هكذا كان يهمس الحاكم الإيطالي، ("لقد تمت تصفيتهم")، "المرشال بيترو بادوليو، في أذن الدبلوماسيين الوافدين. بيد أن هولمبو كان يسمع أخبارًا من شرق ليبيا عن مآثر قائد فدائي مراوغ يُدعى عمر المختار، وهو معلّم صوفي سابق كان يقود غارات خاطفة على الجنود الإيطاليين من مخابئه الجبلية. "كلما اعتقدنا بوجوده في موقع ما واعتزمنا القبض عليه - يختفي!"، كما أخبر جندي من منطقة تيرول الإيطالية هولمبو وفي عزمه على لقاء هؤلاء الثوار، مضى هولمبو في طريقه صوب الشرق. بمكان ما في الصحراء على تخوم سرت، حيث تعصف الرياح بسهولة الأشواك والأعشاب، تعطلت سيارته فهام أيامًا بلا ماء. وإذ أنقذه جنود إيطاليون، قيد إلى مدينة بنغازي، عاصمة مستعمرة برقة الشرقية، وهي القابعة تحت حكم الأمر الواقع بقبضة الجنرال رودولفو غراتسياني الحديدية. بذقنه الحليق ووجهه المتورّد، "وعينيه المقاربتين إلى السواد"، كان غراتسياني مشرفًا على عملية إخلاء السكان الواقعة في الريف بالقرب



استشهاد المجاهدين الليبيين على يد الإيطاليين

من بنغازي لقهر المقاومة. وقد أسفرت النتيجة عن قتامة معسكرات الاعتقال المحوطة بالأسلاك الشائكة، حيث سيق أكثر من مئة ألف بدوي كالقطعان.

زار هولمبو أحد هذه المعسكرات ونستقي من وصفه إدانةً صريحة، فقد وجد ما يقرب عن 1500 خيمة تأوي 6000 - 8000 نسمة، حيث كان جلهم "يعانون من المرض والشقاء، تراهم يعرجون وظهورهم مقوسة، أو ترى أذرعهم وسيقانهم مشوّهة بالكامل". حين ظهرت روايته أخيراً بالإنجليزية بعد ست سنوات، فجّرت قنبلة بما قدّمته بالتعارض مع البروباغاندا التي أدارها فاشيُو إيطاليا على مر السنين عن مشاريعهم المتمدّنة، في ليبيا ومناطق أخرى في أفريقيا "لمنّ المؤسف أن ننتظر خمس سنوات هذه الترجمة"، كما كتب أحد مراجعي مجابهة صحراوية في بريطانيا في 1937. "كان حريّاً بنا التخلّص من أي وهمٍ ماضٍ بشأن مساعي إيطاليا وسياستها في بلاد الحبشة". بالنسبة لهولمبو، ربما باتت زيارة المعسكر الدافع في مساعيه الراديكالية: "أي مواطن أوروبي يلمح سمات الحكم الإيطالي"، كما كتب، "لا بد أن يشعر بالخزي كونه ينتمي إلى العرق الأبيض".

وشاءت أن تمضي رحلته شاهدةً على ارتقائه من مدوّن يؤرخ للأحداث إلى نصيرٍ في الحرب. فإثر انفصاله عن رتلٍ إيطالي في الجبل الأخضر شرقاً، قبضت عليه قوات المختار، إذ نجا من الإعدام بتلاوته القرآن. وفي جلسة حول نار المخيم، استرسل مضيفوه في سرد الانتهاكات الإيطالية، من ضمنها حكاية موجعة عن طفلةٍ ليبية اختطفها الإيطاليون وباعوها إلى ماخور. وإبان اعتقالها، ابتليت بمرضٍ غامضٍ، فتوسّلت إلى أبيها أن يقتلها.

قَبَّلَهَا الشيخ الهرم على جبينها وامتلل لطلبها. "وها أنا أؤكد لك". قال الحاكي لهولمبو، "إن كل إيطالي يصادفني، مصيره الموت". وفي أعقاب مكوثه في كنف هؤلاء الرجال، وعدهم هولمبو ببقاء زعيمهم المنفي في مصر، إدريس السنوسي، الرجل الذي سيغدو ملكًا ليبيا المستقلة في 1951.

عقب وقوعه في قبضة الإيطاليين مجددًا، طُرِدَ هولمبو عاجلاً من إقليم برقة. ومن هناك، شق طريقه إلى الإسكندرية في مصر، باحثًا عن الزعيم السنوسي كما تعهّد. بدوره، خطّ إدريس السنوسي خطاب تعريف ليعطيه هولمبو إلى الثوار في واحة الكفرة الليبية، بالقرب من الحدود المصرية، ما يدلّ على أن هولمبو لم يعد الآن محض مراقب. وبالعودة إلى الفندق بعد اللقاء، يعرض علينا سردًا مختزلًا وآسرًا عن التفسُّخ الأخلاقي الغربي، مستحضرًا كتابات بول بولز اللاحقة. يمر عبر أحياء العاهرات التي تعجُّ بالنساء المبهجة، وبالبحّارة السكارى، وبرائحة "الويسكي والبخور والأجساد المتعرّقة". وخلال الهرج، يسمع هدير لحن بيتهوفن، سوناتا ضوء القمر، وهي تنوح من بيانو كهربائي، على أن نصف النوتات غائبة. آنذاك، صارت النعمة لدى هولمبو بمثابة "رعبٍ متقطّع ومتلعثم".



بعد قرابة القرن من أوديسا هولمبو، تغيّر المشهد الليبي جذريًا وهو يحمل ندبات فورة النفط، وعقودٍ من فوضى حكم الدكتاتور معمر القذافي، والانتفاضة الشعبية، والتركة الثقيلة. أمّا العاصمة التي بناها الإيطاليون وزارها هولمبو، حيث الساحات المُقنطرة وواجهات الطراز الموريسكي

الجديد، فهي اليوم مطوّقة بالمساكن الخرسانية وناطحات السحاب نصف المكتملة. وفيما يخص الطرق التي شيّدها الإيطاليون ولهج بها هولمبو في ترحاله، فقد صارت بالإهمال وعرة وانتشرت فيها الحواجز الخاصة بالميليشيات. وبالنسبة لفندق Albergo Italia الفخم حيث نزلَ في بنغازي، فلم يعد له وجود، بعدما دمّرت قذائف الحلفاء بشكل جزئي في الحرب العالمية الثانية، بينما حطّم الاقتتال القريب قصرًا مرّوقًا شاهد فيه هولمبو يومًا ما غراتسياني وهو يخاطب القوات الإيطالية من شرفته.

”لا شك أن الحضارة قد بُنيت في بنغازي“، يكتب الدنماركي إبان دخوله شرق ليبيا، لكن أي حضارة هذه؟ فالزيف في الحكم الإيطالي لليبيا كامنٌ في أن إنجازاتهم المعمارية المُهلّلة –المسارح، والواجهات البحرية التي تصطف فيها أشجار النخيل، ومباني الحفلات الموسيقية– قد لازمها خراب المجتمع الليبي. فبافتقارهم إلى حكم الوصاية الذي اتبعه المستوطنون الفرنسيون، قام الإيطاليون بسحق الطبقة المثقفة الوليدة التي واجهوها في البدء، وبمرور العقود، تعزّز الانتماء القبلي في الوقت الذي حجبوا التعليم عن الليبيين (بحلول استقلال ليبيا، كانت الأمية متفشية). ”يكن الشر الاستثنائي هنا في أن الإيطاليين لا يبدوون أي اهتمام برعاياهم على الإطلاق“، هذا ما انتبه إليه أورويل في مراجعته لكتاب مجابهة صحراوية.

اليوم نرى باحثين وكتّابًا ليبيين من مختلف الأجيال وهم يدلون بدلوهم فيما يخصّ الحقبة التي أرّخها هولمبو، عبر البحث في الأرشيف وبالسرْد المتخيّل الزاخر، في المذكرات والشعر والفنون، ومع ذلك يظل هولمبو جزءًا عضويًا من هذه الذاكرة. نرى بورتريه صورته معلقة في المتحف

الوطني بطرابلس، فضلاً عن تكريم ابنته وأحفاده في زياراتهم لليبيا في ظل حكم النظام السابق. وقبل بضع سنوات، عقد شباب ليبىون نادي قراءة للنقاش حول هولمبو في مدينة البيضاء بالجبل الأخضر، بالقرب من البقعة التي قبضت عليه فيها قوات المختار.

ما زال إرث الحقبة الإيطالية حاضراً في ليبيا في نواحٍ أخرى: في غياب مؤسسات حكومية تشمل الجميع؛ في تشطّي المجتمع الليبي إلى كيانات قبلية وجهوية؛ في ائكال النخب المحلية على الوصاية الخارجية؛ وفي العنف المستشري الذي بات بمثابة عملة سياسية. الراهن في عيني هولمبو مألوف. هنا نجد أكبر مدينتين في الغرب والشرق، طرابلس وبنغازي تباغاً، متحاربتين مجدّداً، ليس بفعل ميليشيا القمصان السوداء أو قوات الكارابينيري، بل بفعل ميليشيات ليبية تتشاحن لنيل السلطة والثروة. يقود ميليشيات الشرق مارشال أوتوقراطي يكتسي بلون الكاكي ويُدعى خليفة حفتر، وهو الذي يشن حرباً منذ أبريل العام المنصرم للإطاحة بالحكومة المعترف بها دولياً في طرابلس، حيثما يحبّد العروض العسكرية الباذخة، في استحسانٍ مفترَض من غراتسياني وبادوليو.

ولم تُدَفَن أيضاً أشباح الاستعمار الإيطالي الهادرة، فحتى اليوم تُلحق الحكومات الإيطالية المتلاحقة الأضرار المستجدة على إقليم طرابلس، ومجدّداً في صورة المعسكرات: لصد مد المهاجرين الأفارقة العابرين الأبيض المتوسط، وقد دعمت روما اعتقالهم الشائن في مراكز حجز مزرية تديرها الميليشيات الليبية. علاوة على ذلك، نرى التدخل الدولي المستجد، فها هنا نجد الطائرات الأجنبية –وهي طائرات مُسيّرة عن بعد

تستبدل الطائرات أحادية السطح التي شهد حطامها هولمبو- وهي تقصف الليبيين بحصانة الجنود المرتزقة الأفارقة، لم يعد أفرادهم من الجيش "العسكري" الأريتيري، بل من الجند التشادي والسوداني، يتحاربون اليوم على الأراضي الليبية، في صفوف الفصائل المتحاربة في البلد.

إثر قراءتي لهولمبو، وجدّني أنفكر في همته المثبّطة -وليس في تفاجئه- التي أرجح أن تنتابه في ظل التحول السلطوي والقومجي الذي سلكته أوروبا المعاصرة. لقد كان يحس في عصره بنزعة ضد الليبرالية؛ وقيئاً لم يكن هو بأمنٍ من جاذبيتها، حيث أقرّ بأن هذه النزعة "وضعت الأمور في نصابها في إيطاليا". بيدّ أنه في ختام مجابهة صحراوية، نجده يحذّر من أن "الفاشية تمدّ مخالبتها". الدواء، كما آمن به، كامنٌ في الإسلام. "الإسلام" كما كتب، "على الرغم من البلشفية، والاشتراكية، وكل الأفكار الحداثوية الأخرى الرامية إلى سعادة البشر، قادرٌ تماماً على إسعاد الجميع". يشاطره الرأي اليوم العديد من معتنقي الإسلام الأوروبيين، حيث قام بعضهم، على غرار الدنماركي، بالهجرة في سبيل القضايا الإسلامية. لو كان على قيد الحياة الآن، لوجد هولمبو نفسه، على الأرجح، مطارداً من المخابرات بصفته محارباً أجنبياً أو ضحية الإسلاموفوبيا المتصاعدة في أوروبا.

كان ليشعر بالخزي، وليس بالصدمة كما أشرنا، إذا رأى مواقف بلده المناهض للمسلمين مرتبطةً بشكل غير مباشر بانتفاضة الليبيين في 2011 ضد معمر القذافي. ففي أواخر 2005، قامت جريدة في الدنمارك بنشر كارتون ساخر يستهزئ بالنبي محمد، ما أثار احتجاجات المسلمين عبر العالم، لا سيما في بنغازي، حيث قتلت قوات الأمن الليبية، في الأقل،

عشرة متظاهرين في 2006. في أوائل 2011، عندما نظّم نشطاء ليبيا في بنغازي والمهجر احتجاجات شكّلت جزءًا من الربيع العربي الجاري، اختاروا الذكرى السنوية لهذه الأحداث المميتة، أي في 17 فبراير. هذا التاريخ يجسّد الآن شرارة الثورة وبداية النهاية في حكم الدكتاتور الليبي.



لم ينجح كنود هولمبو في تحقيق جهوده الرامية إلى مساعدة الثوار الليبيين ضد الإيطاليين: ففي فبراير 1931، اجتاحت الجيوش الإيطالية آخر معاقل السنوسية في واحة الكفرة، وفي سبتمبر من السنة ذاتها، أُسِرَ أخيرًا المختار، قائد هم الأسطوري، وشُنِقَ على الملاء في بلدة سلوق في الشرق. وإذ سُحِقت المقاومة، سيستمر الحكم الإيطالي في ليبيا اثني عشر عامًا. في ختام مجابهة صحراوية، يقف هولمبو على متن سفينة شحن في 1930، محدِّقًا في أفق الأبيض المتوسط ويتفكّر في حلم موسوليني أن يحوّل البحر إلى "بحيرة إيطالية"، في إحياءٍ لمطالبة رومانية قديمة بـ *mare nostrum* ("بحرنا"). سخافة هذه الأفكار تتجلّى في تنويهات الدنماركي، أن رقع المياه في نهاية المطاف تربط، ولا تفرّق، بين أفريقيا وأوروبا، وبين الشرق والغرب.

ومن المرجح أن مساعي هولمبو في بناء جسور بين هذه العوالم قد كلفه حياته. في أكتوبر 1931، وفي طريقه إلى الحج، نصبت له ثلة من البدو كمينًا وقتلته على طريق صحراوي بالقرب من الحدود السعودية-الأردنية. كان في التاسعة والعشرين. وقد تردّد أن قاتليه عملوا بأوامر المخابرات الإيطالية، على أن الخبر لم يؤكّد، ولم يُعثر على رفاتة إلى يومنا هذا.

دلالة غامضة هائلة عن رواية "بنغازي" لصالح المنصف

بقلم: ستيفين وات
ترجمة: نافع الطشاني

صالح المنصف.
"بنغازي"
بنيلوبي بوكس، لندن.
2022



في مقدمتها لرواية "ذا أوفرنج"، "القربان"، (2015) وصفت ماري روتي رواية صالح المنصف الرائعة بأنها "قصةٌ خلابَةٌ عن القتل، والفوضى، والمرض العقلي"، ولكنها في ذات الوقت، سرعان ما توضّح أنه فيما وقع سرد أحداث هذه الرواية ذات الطبقات، المحموم أحيانًا، قد يجعل القراء "يلهثون" ليتابعوه، إلا إنه أبدًا ليس سبب جاذبيتها الوحيد؛ فعلى سبيل المثال: كلُّ من غموض وتعقيد شخصية بطل الرواية طارق عباسي لهما جاذبية متساوية، فطارق الذي تعرّض لإصابة في الدماغ تؤدي إلى تهشُّم ذاكرته عن حادث مأساوي وعواقبه التي غيرت حياته، يأمل في فهم هذه العواقب بشكل أوضح، وأن يخفّف من ألم الحادث المبرح، الألم الذي

يحبط محاولته للبدء في حياة جديدة في باريس، ثم بوردو التي يشعر أنها أيضًا "قابلة للسكنى". وفي هذا الصدد كما شددت في مقالي المنشور في "لوس أنجلوس ريفيو أوف بوكس"، "مراجعة لوس أنجلوس للكتب"، (نشر بتاريخ 4 أبريل، 2015)، مع أن سرد "القربان" الروائي يشغل القراء بالأحاجي وتفاصيل حياة طارق الموجعة للقلوب (وموته، المذكور في الفقرة الثانية من الكتاب)، هذه المعاناة تجد صداها في مغزى أكبر بكثير، وهو جزئيًا ترميز معاناة رعايا الشتات الذين، في الغالب الأعم، يشعرون بالغربة في بلدانهم الجديدة، أو حتى في بلدانهم القديمة. وعلى نحو مشابه تعرّف روتي، في تقديمها لرواية "بنغازي" (2023) التي تجري أغلب أحداثها في "هذه المدينة العالمية المطلّة على البحر الأبيض المتوسط" في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن العشرين في زمن استعمار نظام بنيتو موسوليني لها، تعرّف الكثير من الإحياءات التاريخية المدوّية للرواية القصيرة، حيث تعدّ "ذات دلالة غامضة هائلة... بكل ما للكلمة من معنى، فهي نصّ مثير للعواطف، متكّثّ لحدّ ما، يستثير رغبة القراء للمزيد".

لقد أصابت في الوجهين، وذلك لأن رواية "بنغازي" تصوّر العمليات الاستعمارية الفاشية في منتصف العشرينيات مع كشفها أثر هذه العمليات على نفسية أبطالها، مريم خلدون، وعائلتها، فالقارئ فعلاً يرغب في المزيد: المزيد عن تاريخ العالم، المزيد عن سنوات مراهقتها في فجر الحرب العالمية الثانية، المزيد من الوصف الغني من كاتبٍ كثيرًا ما تحوّل قريحته النثر إلى شعر. من بين أوسع الدلالات لهذه الرواية القصيرة سبر مؤلفها صلاح المنصف لأغوار المشاعر المتناظرة للأشخاص الخاضعين لكلّ من

الطغمة السياسية والأبوية العائلية، وسرده للحياة المحفوفة بالمخاطر المتزايدة لليهود الذين يعيشون في مدينة تنأى تحت نير المعاداة للسامية الثقيل والمظاهر الفاشية، وأثر الاستعمار في التعليم والحياة المدنية، وغير ذلك الكثير.

على الرغم من أن أصول حياة مريم الداخلية - وتملُّصها طوال ثلاثين عامًا من تدوين ذكريات طفولتها المتوترة- أقل تعقيدًا من تلك العوامل المسببة لحيرة طارق وآلامه، فإنها لا تقل أهمية عنها، وهي أكثر مباشرة في أثرها. فرواية "القربان"، كما تبين مقدمتها، تحكي قصةً، وفي ذات الوقت، هي "قصة تلك القصة"، فهي تحكي كيفية استرجاع النص من "تجاويف حاسوب محمول على وشك التلف" يرجع إلى مؤلفها المتوفى، ورفض الناشرين غير المهتمين المتكرّر لها، وتوصيلها لمحرر أمريكي قام "بترقيعها بأحسن ما في الإمكان"، ونضد حروفها في إنجلترا، وطباعتها اللاحقة. بالمقارنة، تفتتح رواية "بنغازي" بمشهد نرى فيه مريم وزوجها باسل، الأستاذ في جامعة إنديانا في بلومينغتون، يتلذّذان بتناول كعك الشوكولاتة والقهوة ذات أصبوحة مشمسة من صباحات شهر أبريل سنة 1976. يتركها لوهلة ليعود بعدها حاملًا ظرفًا منتفخًا، منقوشًا عليه: "مع التمنيات بالشفاء العاجل" بالحروف الذهبية. تكتشف بداخله هدية وملاحظة، تقترح الجملة الافتتاحية فيها شيئين: ملاءمة هديته لها (قلم حبر باركر)، وتذكيرًا بطيفٍ من ماضيها يعوق تقدمها كمؤلفة:

إحدى طرق التعامل مع عِلَلِ الماضي قد تكون في افتراضنا أن ما أصابنا بالعلّة صار الآن ضروريًا لشفائنا على المدى الطويل. أرجوكِ أكملِي قصتك

الرائعة، وسأكون فخورًا بترجمة باقيها بنفس السرور الذي ترجمت به الجزء الأول.

تشي نبرة صوته التي يتناوب فيها التوسُّل والتشجيع، وحروف "الشفاء العاجل" المنقوشة على الظرف، يشي كل هذا بأن حالة مريم هي أحيانًا منهكة كما أنها مستمرة. هل سيشفيها إنهاء كتابة القصة؟ تنتهي مقدمة القصة بعزمها على فعل ذلك بالضبط: "لعلّ هذا هو أنسب وقت للقيام بهذا؛ إنهاء ما بداته". الآن، بعد مرور ثلاثة عقود وعلى بعد نصف الكرة الأرضية من بنغازي، حان الوقت لمواجهة ذاك "الربيع الآخر" و"السنوات المضطربة التي أدّت إليه".

ينقل مشروع مريم الأدبي القراء من أمريكا السبعينيات إلى ليبيا في سنة 1942، ثم إلى أوائل العام 1939 عندما تعرّض والدها لأزمة قلبية قاتلة، وأخيرًا إلى سنة 1937، وهو العام الذي جاء فيه بنيتو موسوليني إلى بنغازي. كانت زيارته حدثًا مهمًا، وعمل المنظمون على جعل وصوله فخماً كما لو كانوا يصمّمون عملاً مسرحيًا أوبراليًا، فتم تركيب منصة في قلب ميدان المدينة الرئيس ترفرف عليه الأعلام والرايات من كل جانب (بما فيها علم إيطاليا ثلاثي الألوان "تريكلوري"). والأعلام، كما تلاحظ أنا برنز في روايتها الحائزة على جائزة مان بوكر "مليكان" "بائع الحليب" (2018)، وبخاصة الأعلام الوطنية، "اخترعت" لتكون "غريزية وعاطفية -وغالبًا عاطفية من النوع المرّضي النرجسي-". وهكذا كان الوضع في تلك العشية في بنغازي، فعندما دخل "الدوشي"، "الزعيم"، في حُلّته العسكرية المزدانة بالأوسمة والنياشين ممتطيًا حصانًا عربيًا أسود اللون

حياء الحضور "بعاصفة من التصفيق والتهليل"؛ وبلغ "جُنون" الجمهور مداه عندما استلَّ موسوليني "سيف الإسلام" ولَوَّح به فوق رأسه منتصرًا. وصل القوي، وصل الكبير، وصل محاطًا بكل الفخامة والأبهة المصمَّمة خصيصًا لتليق بهذه المناسبة العظيمة.

ازداد يوم الزيارة أهمية بالنسبة لآل خلدون عندما تم الإعلان قبلها أن موسوليني لن يزور المدرسة الإيطالية، "سكولا إليمينتاري إي ميديا جيوفاني جينتيلي" "مدرسة جيوفاني جنتيلي الابتدائية والمتوسطة"، التي تدرس فيها مريم وأختها زينب فحسب، بل إن الأختين قد اختيرتا لتسلِّما عليه بصفتهم ممثلتين عن المدرسة، وتم منح زينب الشرف الأكبر بتقديم ترحيب المدرسة الرسمي. تسبَّب "صوتها الصافي النقي" ولغتها الإيطالية السلسة عند قراءتها خطاب الترحيب في انتفاخ موسوليني فخراً، بل وصل الأمر بضيفهم المميز بالذهول:

يبدو أن هذا الإنجاز قد وجد طريقه بسرعة إلى قلب الطاغية شبه المهرج الذي ظهر متصلبًا ومحمَّرًا، كما لو أنه تم تقييده في بَزَّته العجيبة، فقد رفع حاجبيه، وجحظ بعينه، وأعطى أختي إيماءة برأسه تنم عن الإعجاب العميق المشوب بالاحترام.

كانت إيماءة إعجاب موسوليني مصحوبةً بقوله "برافا، برافا" "أحسنَت، أحسنَت" المتحمَّسة. ومع هذا كان في نظر مريم، في نضج غير معتادٍ "طاغيةً شبه مهرج" يرتدي بزة "عجيبة". من أين جاء هذا الأسلوب اللاذع؟ وهي نزعَةٌ لم نتعرَّف عليها حتى الآن. ما العوامل التي أظهرت أسلوب مريم الساخر؟ هل كان الدكتاتور حقًا كوميديًا أحمق هابط

المستوى، مبشراً بطغاة اليوم المنتفخين الذين يتبخترون في مسرحيات الهزل السياسي الرخيصة.

كما سنعلم لاحقاً، لم يشارك كل أفراد عائلتها، التي كانت تقدر فضيلة الإخلاص أئماً تقدير، في هذا الزهو. فعلى ما يبدو، لم يُسر الجميع بأبهة الموكب واستعراض "التريكولوري" [العلم الإيطالي الثلاثي الألوان]. في الحقيقة، قبل هذه العشية الاستثنائية بزمان، أثار تسجيل مريم وزينب في "مدرسة موسوليني" اعتراضاً مكتوماً في بعض أجزاء العائلة، لكن ألم يكن هذا الخلاف على المدارس أو مشاركة البنيتين في الترحيب "بالدوشي" [الزعيم] هو المسؤول بالتأكيد عن قلق مريم؟ بل إن مجرد طرح سؤال كهذا يستدعي معضلة ماري روتي في مقدمتها لرواية القربان: "أتى لي مناقشة هذه الرواية دون البوح ببعض عناصر حبكة التي تجعل منها تجربة قراءة مميزة جداً؟" كان الحل، المعقول جداً، الذي توصلت إليه يتمثل في تجنبها للسرد الروائي و"التمسك بمغزى الرواية العاطفي والوجودي"، وسأخذو أنا حذوها، إلا إنه في بعض الأحيان يفضل التقدير عن التجنب الكامل، مهما كانت استراتيجية الشُّح بالمعلومات هذه غير مرضية، لذا لن أفصح إلا عن الآتي: حدث شيء آخر نتيجة لذلك اليوم المهم، وبعد مرور ما يقرب من أربعين عاماً على ظهور الفاشي الإيطالي في ليبيا، تقرّر مريم، مشمولاً بتشجيع زوجها ومتأثرة باستعطافه، تقرّر أن تواجه شيئاً لم تكتب عنه، بل لم تستطع أن تكتب عنه. وها هنا فُتات معلومة صغيرة أخيرة: هذا "الشيء"، الذي ينكشف شيئاً فشيئاً مع سير الرواية قُدماً، موصوفٌ بجمالٍ لا يضاهيه سوى إيلامه، ومروئٍ بلُطفٍ بارع.

والأجمل من هذا كله هو أوصاف بنغازي العديدة، أوصاف المدينة وهي تشكّل، كما تلاحظ روتي، شخصيتها المستقلة بذاتها والمصورة في المناظر الطبيعية والمدينة التفصيلية. ومما يدعو إلى الفرح وفرة هذه المقاطع في الرواية لدرجة أن اختيار أحدها كمثال لا يتطلب سوى مجهود يسير ولا يشكّل أي خطرٍ في البوح بأكثر مما يجب عن حبكة الرواية. خذ مثلاً نظرة مريم إلى ميدان السوق في بنغازي من منظورها وهي راكبة في حافلة متوقّفة عن قرب:

تنصب أشجار البرتقال الكاملة الحجم التي تحوط ساحة سوقنا الخارجي ذات الآجر الأحمر، في أصصها الخشبية، مشرقة كالعهد بها دوماً. أوراقها اليانعة تم تنظيفها بلمّع أوراق الشجر، كالعادة، وثمار برتقال أبو سرّة تضيء كالقناديل وسط الأوراق الخضراء الكثيفة. وخلف هذه الأصص المرتبة بنظام، تقع مناظر سوقنا المتنوع المعتادة: صفوف من الورود والزهور المبهرة على بسطات بائعي الورود، وأروع الفواكه والخضراوات المرتبة بفن على طاولات بائعي الخضار وعرباتهم، ألوانها تلمع مشهية من بعيد مثل الأطياف الساحرة لألوان القيشاني الشرقي المنمّق.

تمتليّ رواية "بنغازي" بالكثير من استرجاعات الزمان والمكان المذهلة: العمارة شمال الأفريقية وحياة المدينة المفعمة بالحيوية؛ التفاعل العائلي والأثر المكثف؛ الدقة المحكمة والغموض المحير. وهكذا، مع إمكانية حدوث انسجام عند القارئ، كما هو الحال مع رواية القربان، فمن خلال تشويق البحث في الأدلة وسبر أغوار ذاكرة شخصية روائية، تمنحنا رواية بنغازي فرصاً عدّة للاسترسال في رفاهية جمال العالم الخارجي الذي

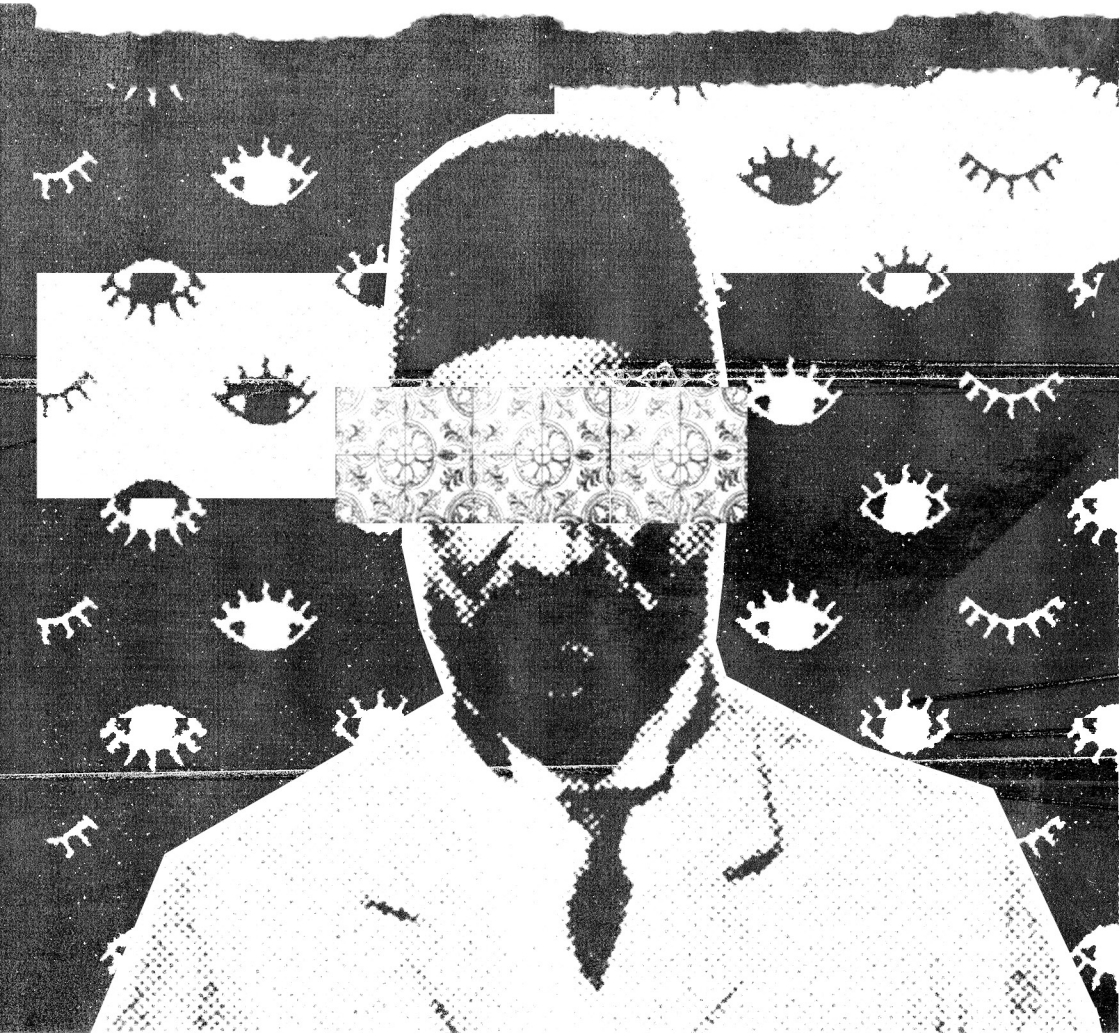


جانب من شوارع بنغازي، بالقرب من ميدان الشجرة

يبدعه المنصف.

وأخيراً، هذا العالم عبر وطني، وحيوات شخصيات صلاح المنصف هي كذلك "عبر وطنية". مع صعوبتها واستحالتها أحياناً، الحياة عبر الوطنية هذه هي الحياة الوحيدة التي يرغب طارق عباسي في رواية القربان أن يعيشها "على الرغم من أضرار الكراهية العنصرية والعنف"، وهي الكوابيس التي نجت منها مريم البالغة في بلدة جامعية أمريكية صغيرة، فإن المواطن عبر الوطني ذا وجهة النظر الدولية عليه، لا محالة على ما يبدو، أن يناهض زحف أرتال الوطنية حتى يحل محلها عالمٌ عبر وطني أكثر تكاملاً. وإلى أن يحدث هذا، على شخصيات روائية مثل طارق ومريم أن يحملا ندوبهما من العوالم التي يعيشان فيها. أحد التعابير المجازية المعبرة عن علامات الماضي هذه، التي تظهر بطرق شتى في حياة هاتين الشخصيتين، هو ما يسميه بول ريكور في تحفته الفنية "ميموري، هيستوري، فورغيتينغ"، "الذاكرة، التاريخ، النسيان" (2004) بالنقش. توحى كلمة "النقش" بطيف من النقوشات من "مع التمنيات بالشفاء العاجل" المكتوبة على الظرف الذي تستلمه مريم من زوجها إلى الخدوش على ركيزة الذاكرة الشمعية التي يشبهها فرويد "بدفتر كتابة باطني". لبعض النقوش، مثل نقش مريم، بعدُ زمني عميق. يرى ريكور أن هذه "أعقدتها لكنها أعمقها دلالة" لأنها تشير إلى "المثابرة السلبية للانطباعات الأولى: حدثٌ صدمنا، أثر فينا، وتظل علامة الأثر في بالنا". يدرس صلاح المنصف هذه العلامات في رواية "بنغازي" كما في كثيرٍ من رواياته، ويفعل ذلك بأسلوبٍ نثريٍّ بديع لن يشبع منه القراء. فسيرغبون المزيد.

إِدْرَاكَات



الصعود من الشر: تأملاتٍ مشكالية في مستقبل تاريخنا

خالد المطاوع

1. تمهيد

لم أدرس التاريخ بشكل رسمي، ولكنه كان هاجسًا حاسمًا لديّ منذ بداية انخراطي في الكتابة، ومع التاريخ معضلة الهوية، ففي المهجر الاثنان يتضادان أو يلتحمان، فتجد في المهجر من يمحو تاريخه رغبةً منه أو تلبيةً لرغبة بلاد تريد أن تصهره، أو سعيًا للاختفاء بين الجموع، أو للانطلاق في بداية جديدة ومستقبل جديد بعد معاناة طويلة. وتجد أيضًا في المهجر من يتذكّر بعمق، ويدوّن ويكتب الكتب، ويقيم المؤتمرات، ويبني متاحف لكي تبقى ذاكرة موطنه الأصلي جيلًا بعد جيل ليحتفظ بهويته ويطورها، بل وليساند أهل موطنه لحفظها. وفي المهجر تعلمت من أصدقائي الفلسطينيين إصرارهم على ذاكرتهم، وكنت إذا قابلت الأجيال الشابة منهم والذين لم تطأ أقدامهم فلسطين أسألهم عن القرية التي أتوا منها. لم يخذلوني أبدًا، دائمًا يذكرون اسم قرية أجدادهم التي في الكثير من الأحيان تمت إزالتها وإعادة تسميتها ولكنها بقيت في ذاكرتهم كحق مهضوم يحقّز للحياة. وهنا يأتي عامل التاريخ والتحامه بالهوية التي بحكم طبيعتها تنظر إلى الماضي والمستقبل معًا، وتستسقي منهما الواقع والأمل اللذين تغدّي

منهما الذات.

كتبت هذه التأمّلات بتحفيز من كتاب أخي الأستاذ على حميده "الإبادة الجماعية في ليبيا - الشر، تاريخ استعماري مخفي"، والذي أثار أسئلة جديدة، وبثّ النشاط في أسئلة قديمة لديّ. كما اقترح هذا الكتاب القيّم سبيلًا جديدًا لدراسة وكتابة تاريخنا، بل وأجج آمالًا وطموحات جديدة لمستقبلنا ومستقبل تاريخنا. تتطرقّ هذه التأمّلات إلى مواضيع عديدة قد يكون بعضها شائكًا وغير مريح، كما توسّع حيّز التأمل في تاريخنا والتنظير والمقارنة ربما بشكل يستغربه أو يستهجنه الكثيرون. ما أطرحه هنا يسعى إلى تحفيزنا لكتابة تاريخ أكثر واقعية وأكثر شمولًا، تاريخ لا ينسى الضحايا، وتاريخ يحمي نفسه ويحمينا من استغلال الذاكرة وتغييمها. كما أن أمني من هذا الطرح أن يحفّزنا لنكتب تاريخًا يسعى إلى استجواب أولوياتنا ومبادئنا، علنًا عندما نكتب تاريخًا أكثر عمقًا وأمانة نجد ما نستدلّ به ليخرجنا من محننا، وهي كثيرة.

2. التاريخ بين الظلام والتظلم

خلف وأحيانًا حتى في صميم ذكريات الناس غير المؤرّخة ساد الظلام التاريخي، وفي ذلك الظلام الذي يغلف المكان والزمان ترعرعنا. في. إس. نابول

مثل العديد من الليبيين، علمت بالمعتقلات الإيطالية بجرجات متقطّعة. برنامج درامي على التلفزيون ربما، أو فيلم قصير بالأبيض والأسود عن

غيث الصغير. التمثيل الميلودرامي والشعور بالمظلمة يكاد يخنق أصوات الممثلين، ما يجعلهم غير مقنعين، ثم برامج عديدة حيث مذيع شاب يدفع الميكروفون أمام الناجين القدامى ويطلب منهم أن يبوحوا بما صابهم بالمعتقلات بشكل مختصر، كلها ممارسات ارتجالية حجت مدى الفجيرة التي لا زالت تسري في كواليس وعينا. أما التاريخ الوطني الذي يُعلّم في المدارس فكان مجرد تلقين وجزء من التكوين الأيديولوجي الذي يركّز على عظمة الأمة ونقاء تاريخها، وهذا حال أغلب دول العالم.

بالنسبة لما أذكره شخصيًا، وما يذكره الأستاذ حميده في كتابه، فمع نهاية السبعينيات ومع بداية الحقبة التي بدأ فيها القذافي وضع نظريته العالمية الثالثة في الممارسة العملية، ومع ظاهرة عبادة الشخصية التي عَجَّ بها الأثير وكل مظاهر المجال العام في ليبيا، بدأت الإشارة إلى ذاكرة معسكرات الاعتقال الإيطالية تختفي. كان انقلاب الفاتح قد جعل قضيته ضد الإمبريالية والاستعمار مركز اهتمامه ومع قدوم الزعيم المبجل وكتيباته الخضراء الثلاثة بات الانقلاب إعصارًا في طريقه لاقتحام العالم، وهكذا وبسرعة أصبحنا في زمن الأبطال المنتصرين لا وقت فيه للضحايا.

ومع ذلك، بالنسبة للعديد من الليبيين، ظلّت ذاكرة المعتقلات في الوجدان، بعضها حاد وغير قابل للكبت، وظل البيت الأول في قصيدة رجب بو حويش، "ما بي مرض غير دار العقيلة" مدموغاً في الذاكرة الشفوية الليبية. أضف إلى ذلك صورة الشيخ عمر المختار التي بقيت شرارة تشعل ذاكرتنا بماضي الأمة. ولكن ملامح هذا التاريخ باتت غير واضحة، كما يؤكد ذلك كتاب الأستاذ حميده في حوار مع شباب بلادنا الذين معظمهم لم يعرفوا

عن المعتقلات الفاشية، ومن كانوا يعرفون شيئاً كان مصدره السرد الشفوي من الأجداد حيث باتت قوى الذاكرة تفتقر وكاد التاريخ أن يتحوّل إلى ماضيٍ سحيق.

لم يكن الدكتاتور وحيداً في تجاهله لتاريخ ليبيا، بل كان يضيف إلى زخم متراكم من التجاهل.¹ فبالنسبة للبريطانيين جعلتهم نشوة انتصارهم في شمال أفريقيا يهملون محاكمة جرائم الحرب ضد الجنرالات الإيطاليين القتلة، وربما لم يخطر عليهم الأمر أساساً، وبدون شك غير راغبين في أن تُفتح ملفات مذابحهم القديمة واللاحقة في الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. وما كان للولايات المتحدة الدولة التي تكوّنت على أنقاض الإبادة الجماعية للهنود الحمر أن تخوض فيما قامت به إيطاليا، خاصةً وهي تحتاج إلى إيطاليا ليبرالية على أنقاض الفاشية لتقف أمام المد الشيوعي. أما إيطاليا فبعدما شنق ثوارها موسوليني وعشيقته في ميلانو فقد شعروا بأنهم أتمّوا مسيرة التنوير نحو شعوب "الفاشيتا نيرا"²، وأما عن الأضرار الجانبية مثل المجاعات والإبادة الجماعية فهي تكلفة تصدير الحضارة، وسيكون شعور

1 تم نشر نسخة مبدئية من هذا المقال في مجلة لمة للدراسات الليبية في عددها الثاني، 2023.

<https://escholarship.org/uc/lamma>

أود أن أخص الصديق الأديب سالم العوكلي بالشكر والامتنان لاطلاعه على هذا المقال ولتقديمه العديد من الملاحظات المفيدة.

للإطلاع على موقف الحلفاء من التحقيق في الإبادة الجماعية في ليبيا، راجع كتاب د. حميده:

Ahmida, Ali Abdulatif. Genocide in Libya: Shar, A Colonial History. New York: Routledge, 2021. P. 113.

2 Faccetta nera هي أغنية شعبية عن الحرب الإيطالية الإثيوبية (1935) كانت ينشدها الفاشيون خلال مسيراتهم الاستعراضية. في الأغنية، يخبر جندي فاشي ذو قميص أسود أثناء غزو إثيوبيا محظية شابة جميلة أنها ستحرّر من العبودية وسيحكمها نظام عادل جديد، ثم يدعوها إلى موكب مع القمصان السوداء في روما حيث ستعيش حياة أفضل.

الرجل الأبيض بالذنب كفارة كافية لمحو كل سيئاته.

أما المملكة الليبية حديثة المنشأ، الفقيرة كالرمال لم يكن مثل هذا الجهد من أجل الحقيقة والعدالة ممكنًا بعد الحرب العالمية الثانية في بلد نسبة الأمية فيه كانت تصل إلى 90٪ وحين كانت ليبيا المضطربة تحاول الحصول على استقلالها من القوى العظمى. أضف إلى ذلك الانقسامات الإقليمية التي كانت بحاجة إلى عناية خاصة. تلا ذلك البروباغندا القومية التي نشرت الأكاذيب ضد ليبيا وقدمتها ككبش فداء لقصورها وإحباطها. كما حاصرت توترات الحرب الباردة والصراع العربي الإسرائيلي ليبيا ولم يسنح لليبيين حيزًا كافيًا لتدوين تاريخهم وترسيخ فهمهم له. ثم جاء عصر النفط وضجيج تطوره المدوي والإمكانيات المذهلة للرفاهية التي بدت كأنها اليسر الذي لا بد أن يتبع العسر، تحفيزًا لترك ما مضى والاندفاع قدمًا نحو سراب المستقبل.

أما نظام القذافي فكان أيضًا مستريبًا من التاريخ، وإن قامت بعض مؤسساته بأكبر قدر في توثيقه، مثل مجموعة المحفوظات والإثنوغرافيات التي يشير إليها كتاب الأستاذ حميده. بعد سنوات قليلة من استلامه السلطة بدأ النظام في تكرار جرائم الاحتلال الإيطالي بعمليات الشنق في الجامعات والساحات العامة والصالات الرياضية، والتعذيب السادي، والمحاكمات الجائرة، والنفي، والاعتقالات إلى أجل غير مسمى مثل التي واجهها أسلافنا خلال الحقبة الإيطالية. جعلت هذه الممارسات، التي كان القذافي نفسه يتباهى بها، التنكيل بجرائم الاستعمار مجرد مهزلة أمام الليبيين.

وبعد عشر سنوات من التمرد الذي أطاح بالقذافي، يبدو أن القيادات السياسية والنخبة عمومًا غير قادرة على معالجة التاريخ أيضًا. مذبحة بوسليم التي

أسهمت أكثر من أي فظائع القذافي الأخرى في سقوط نظامه، ما تزال غامضة الآن كما كانت عندما تم الكشف عنها لأول مرة قبل أكثر من عشرين عامًا. وللأسف مع استمرار اكتشاف القبور الجماعية لليبيين اغتالهم ليبون آخرون خلال التمرد الذي أسقط نظام القذافي، بين العديد من الفظائع الأخرى التي ارتكبتها المقاتلون في صراعاتنا الأهلية الحالية، نحن بعيدون جدًا عن سرد الأحداث وتأريخها على الرغم من الكم الهائل من التوثيق المتوفر لذلك. وكما كان الحال في عهد العقيد، فإن أي محاولة الآن لمعالجة الفظائع التي ارتكبتها نظام القذافي، بمعزل عن تلك التي جرت بعده، ستبدو ساخرة وزائفة. لن نتوقع إذن ممن مصلحتهم أن يُقبر التاريخ أن يعيدوه حيًا.

ساند هذا التجاهل الرسمي هشاشة السرديات الشعبية التي تم نسجها عن تاريخنا، والتي تفتقر إلى الدقة والموضوعية، ملحقات غلب فيها الحس الأدبي على الواقع. وبإمكاننا أن نضيف السير الفردية أو الجماعية التي تخص قبائل أو مناطق معينة وأبطالها، "التي اختزلت في سرد بعض الأحداث التاريخية التي تمجد الفرد/الزعيم تارة والقبيلة/الجهة تارة أخرى"³ يظهر فيها أسلاف المؤلف بأنهم قامات بشرية لم يدخروا على الأمة شجاعتهم، ولم يسيئوا أبدًا إلى جيرانهم أو تصرفوا بجشع أو طيش أبدًا. عند قراءة مثل هذه السرديات من الماضي الليبي، يتساءل المرء لماذا كان أداء الأمة سيئًا للغاية طيلة قرون مضت، بل ومن دون تاريخ مكتوب غير الذي كتبه الغرباء والزائرون؟ وإن كنا فعلاً بهذا النقاء لماذا، عندما جاء عهد التوثيق وبدأ يدوّن ما قمنا به، وجدنا

3 محمود أحمد بوصوة، "جدلية المجال والهوية: مدخل لتاريخ ليبيا العام." طرابلس: دار الرواد، 2012، ص 560.

نتناحر في العقود الأولى في القرن العشرين⁴، بل وكّرنا نفس السيناريو في القرن الحادي والعشرين؟

لعلّ أهم العوامل التي جعلتنا نفصل الماضي عن التاريخ هي النوستالجيا لعصور بتنا نراها أفضل من عصرنا الحالي. فهناك من ينظر إلى إيطاليا المعاصرة وما تركه الإيطاليون من معمار مميز في ليبيا والبنى التحتية التي جلبت الحداثة معهما، على الرغم من أن الليبيين كانوا غير مقصودين بهذا التطور، كإرث يدل على أفضلية تلك الفترة في تاريخ البلاد. وهناك من يتذكّر عبر أسلافه وجود الإنجليز وأثرهم، وآخرون يتذكّرون الأمريكيان في قاعدتهم في طرابلس ومظاهر الرخاء التي جلبوها معهم بأن ذلك إرث ما كان ينبغي أن لا نفرط فيه. كما أن هناك حنيئًا يخصّ العهدين الليبيين السابقين، وعنهما تقول الروائية وفاء البوعيسى إن "عموم الشعب (الليبي) يتشاجرون على الماضي، بعضهم يريد استعادة نظام القذافي... رغم أنهم خذلوه وانفضّوا عنه من الأسبوع الأول لانتفاضة فبراير، بعضهم يريد استعادة النظام الملكي، وغالبيتهم لم يعاصر تلك الفترة ولا يعرف عنها إلا القليل."⁵

4 يكتب الأستاذ محمود أبوصوة، مستشهدًا بالشيخ طاهر الزاوي: "... دور إيطاليا في زرع الفتن في كل إقليم على حدة، على أهميته لا يمكن أن يكون هو الآخر المسؤول الرئيس عن دخول الجزء الغربي من البلاد في حرب أهلية لا تبقي ولا تذر... كما يشدّد على ذلك الشيخ الزاوي، وتسبّبوا بالتالي في كارثة اختلط فيها المظلوم بالظالم، وتطاحن فيها الآباء مع الأبناء والأخ مع أخيه... حرب تولّى قيادتها رؤساء لم يكن لهم من الدين وازع ولا من الأخلاق رادع رؤساء أخلصت لهم الرعاية فاستعملوها فيما يغضب الله ولا يرضي الإنسان... حرب ضاعت فيها نفوس بريئة وعلى مذبح مطاعم الرؤساء شهواتهم وفقد الوطن فيها من شيوخ أبنائه وكهولهم ألوفًا كانوا على استعداد للدفاع عنه يوم ينزل به البلاء ويحيط به الأعداء..."، "جدلية المجال والهوية: مدخل لتاريخ ليبيا العام" طرابلس: دار الرواد، 2012، ص 83-582.

5 وفاء البوعيسى: "أراقب العالم الغيبي من مكاني وهو يعود القهقرى ببطء شديد". موقع ليبيا المستقبل، 2021/9/29.

البوعيسى-أراقب-العالم-الغيبي-من-20%29958/94/www.libya-al-mostakbal.org
html.مكاني-وهو-يعود-القهقرى-ببطء-شديد

يغذي هذا الحنين للماضي عاملان نفسيان أولهما ما يسميه علماء النفس الكظم أو الكبت النفسي الذي يؤدي إلى نسياننا لأفكار وذاكرات ومعلومات تسبب لنا الضيق والقلق والاضطراب،⁶ ما يساعدنا في أن نستعيد توازننا النفسي لوقت ما. ونجد هنا مثلاً أن النوستالجيا للاستعمار تكظم كل سيئاته وعنفه واستغلاله وتُبقي في الذاكرة ما تراها من حسناته، وكثيراً ما يترکز ذلك على جلب الحداثة للشعوب المستعمرة. أما العامل الآخر لهذا الحنين إلى الماضي هو الإسقاط النفسي⁷ الإيجابي⁸، ما سُمي أيضاً بـ"الاستذكار الوردي"⁹، ويحدث هذا عندما يقوم الشخص (أو الجماعة) بإعادة تشكيل وتجميل ذكرياته، ما يجعل التجارب الإيجابية السابقة أكثر إيجابية مما كانت عليه في الواقع.

ولا بد أن نذكر أن هناك وجهة نظر عتيقة متجددة في منطقتنا عموماً لا يرى أتباعها في التاريخ أو للتنبؤ للمستقبل فائدة أساساً، وما يطمحون له

6 أسعد شريف الإمارة. "الكبت Repression والتفريغ التنفيس" .. شيء من التحليل النفسي. "صحيفة المثقف، 2022/4/26.

والتفريغ-التنفيس--الكبت-repression-3/962644-aqlam-3/962644-https://www.almothaqaf.com/

شيء-من-التحليل-النفسي

7 الإسقاط النفسي Projection هو آلية دفاع عن النفس عادة ما تكون نحو المشاعر السلبية حيث

يُسقط الفرد بشكل لا شعوري مشاعره السلبية نحو ذاته على الآخرين، فبدلاً من أن يلوم ذاته عليها يقر أن

هناك آخرون يشعرون بمشاعر سلبية نحوه: https://www.almsal.com/post/1100823

8 Projection of positive qualities أما الإسقاط الإيجابي أو إسقاط الصفات الإيجابية (على الآخر)

يحدث حين يجعل الفرد لا شعورياً الآخرين مستودعاً لمشاعره الإيجابية الكامنة نحو ذاته، هنا يرفع من قدر بعض الأشخاص بأن يسقط عليهم صفات يراها أو يتمناها أن تكون في ذاته، بينما هذه الصفات لا توجد في

من هو أسقطها عليهم: https://evolutioncounseling.com/projection-of-positive-qualities

9 عن الاستذكار الوردي:

"Rosy Retrospection and Declinism: Why the Past Looks Great and the Future Is Frightening"

https://effectiviology.com/rosy-retrospection-and-declinism/

في كل ما يقدّمه العالم من ابتكارات واكتشافات، فهي إما أن تخدم فكرهم وإما فلا معنى لها. كما أنهم ينفون أي علمٍ لا يثبت ما علموا به سابقًا، ولذا يحدّدون تعاملهم مع المعرفة الجديدة لإثبات معرفتهم المسبقة ولا أن يقدّموا معرفة جديدة. أما بالنسبة للتاريخ فهو سطحي ودائري، لا يتعمّقون فيه ولا ينظرون في أبعاده، فالبشر لا يتطوّرون ولا يتعلمون من بعضهم البعض ولا يتغيّرون، ولم ولن يخرجوا أبدًا عن التوقعات التي أسّستها فلسفتهم عن الإنسان وقدراته ومصيره. وإن كان هناك جزء من التاريخ البشري مفيد لهم، فهو فترة نموذجية في الماضي تُغلّف بكم هائل من الإسقاط الإيجابي حتى تتجاوز كل الإنجازات الإنسانية الأخرى. الإشكالية أن هذا الإحساس بماضي فريد لا يمكن تكراره يفعل الجوانب السلبية للإسقاط الإيجابي، فإذا الماضي الجميل لن يعود، فحتمًا سيُشعر الناس بأن العالم في حالة انهيار وتدهور مستمر¹⁰، وهنا يتحوّل هذا التوق للمستحيل إلى إحساس بأن الحياة ما هي إلا نوع من العبث. وهذا ما نراه في واقعنا الآن حيث الغالبية العظمى من شعوب منطقتنا يشعرون أنهم دون أي إحساس بالفاعلية، بل أنهم يعيشون في الوقت الضائع خارج سياق التطوّرات التي تجري في العالم وسيستمرون كذلك حتى يجود القدر وتسترجع الأمة عظمتها المفقودة.

وبما أن وضعية الحاضر في أي بيئة بشرية هي التي تملي التاريخ الذي يُكتَب فيها، وبما أننا في زمن تفتقد فيه القوى الفاعلة والنخبة الرؤية،

10 لم نجد ترجمة مناسبة لمصطلح Declinism ربما قد نسميها الرؤية التقهقرية، وهي "الاعتقاد بأن بلدًا أو مجتمعًا أو مؤسسة معينة في حالة تدهور كبير وربما لا رجعة فيه"

"Why we feel the past is better compared to what the future holds:

Declinism, Explained". <https://thedecisionlab.com/biases/declinism>

فلن نتوقّع إلا كتابة تاريخ حسير البصر. ولكن بدون شك أيضًا أن في كل وضع مظلم في ليبيا هناك من يشعلون شمعة للآخرين، وأن تاريخ ليبيا يثبت أنه ليس مثل تمثال أوزيماندياس الذي غمرته الصحراء، والذي حاول ذوو السلطة دفنه أو التغاضي عنه، بل نراه يرفع الرمال عن ذاته ويواجهنا بحقائقه. ولعلّ كتاب الأستاذ حميده عن الإبادة الجماعية الإيطالية مثالٌ جليٌّ عن ذلك، يعيد ويذكرنا بتوثيقات جديدة ما كدنا ننساه، ويضع تاريخنا في سياق تاريخ الحداثة المعاصر.

3. النقد ما بعد الاستعماري وتاريخ أضعف الإيمان

من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

(حديث شريف)

للدفاع عن ذاتي ستكون الأدوات الوحيدة التي سأسمح لنفسي باستعمالها هي الصمت والمنفى والحيلة.

جيمس جويس

إن شعوب الأرض المضطهدة ليست رموزاً
لاضطراب الضمير الأوروبي وشعوره بالذنب، بل
إنهم أشخاص فاعلون يمكن من خلالهم تعلّم
كيفية ممارسة الذكاء السياسي والعمل.
ألان باديوه

إذا أردنا أن يكون لنا تاريخ حديث يخلع عن ذاته الملحقات والأساطير وثنائيات الوفاء والخيانة والشجاعة والجبن، فلا بد إذن أن نتعامل مع تنوع مواقف الناس في تلك الفترة، وأقصد هنا بالذات فترة الاستعمار، وأن ننظر إلى الأحداث بمنظور تقييمي وتحليلي أوسع. المبدأ الأول هو محاولة كتابة التاريخ ليرصد كل أنواع المقاومة وحتى أشكال التعايش مع الاستعمار لأن هذا التعايش لا يخلو من التحدي، كما أن معرفة أسباب هذه المواقف تعطينا صورة أوضح عن العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حينها. محاولة كتابة التاريخ بانتقاء بعض العوامل ونفي بعضها ليس تاريخاً إنما أسطورة أخرى.

بالنسبة لرصد المقاومة واختلاف أشكالها فكما يدلُّنا الحديث النبوي الشريف عن مقاومة المنكر، فهي باليد، أو المقاومة الملموسة التي قد تصل إلى القتال، ثم باللسان وقد يضمُّ ذلك كل أشكال التعبير الرمزي واللغوي والفني، ثم أخيراً بالقلب الذي يسمى هنا أضعف الإيمان، والذي يوحي بأن الصمت أمام المنكر ليس من علامات الرضا، بل يخفي عملاً ذهنياً عميقاً لكي لا يتمكّن المنكر من وجدان الذي يقاومه. وعندما نلجأ إلى النقد ما بعد الاستعماري المعاصر نجد هناك توافقاً مع الديناميكية التي يقدّمها لنا الحديث الشريف، فكما قاوم شعب ليبيا الاستعمار نجد في جنوب أفريقيا وكينيا وفيتنام والجزائر وفلسطين وشعوب الأمريكيتين وغيرها تواريخ حافلة من المقاومة باليد واللسان والقلب.

ولأن الحديث هنا بالذات عن أقل أنواع المقاومة: المقاومة بالقلب، والتي هي بدون شك أكثرها شيوعاً بين المستضعفين والمقهورين، فلعلّ جملة

جيمس جويس التي نذكرها في أعلى هذا المقطع مفيدة لنا أيضًا. يقرّ جويس أن الصمت أداة أساسية للدفاع عن الذات ولتثبيت القلب وعدم التفريط بما لديه من الفاعلية، إذ أن الصمت هنا يضمّر نشاطًا فكريًا وروحياً حاسماً. وإذا تشعّبنا في النقد ما بعد الاستعماري، نجد مصطلح "تصفية استعمار العقل" للكاتب الكيني نغوي وا ثينغو¹¹ (Ngugi wa Thiongo) الذي له جذوره في أعمال فرانز فانون ويوحي بصدى مصطلح "القابلية للاستعمار" لدى مالك بن نبي، والمقصود به مقاومة التشكيل الفكري الذي يؤسّسه الاستعمار في عقول الشعوب المستعمرة، وبخاصة عبر تغلغله اللغوي في ثقافتها. كل هذا النشاط الذهني الصامت مهم لتطويع وسائل المقاومة الأخرى، وما يذكره جويس عن المنفى أو الهجرة هو امتداد لتلك المقاومة، وقد يكون فرصة للدفاع باللسان عن بعد. وليست فكرة المنفى أو الهجرة غريبة علينا تاريخياً، فكثير من قادة المقاومة وجموع كبيرة من أتباعهم اضطروا إلى الهجرة إلى المنفى ليجمعوا قواهم وليساهموا في تغيير الوضعية السيئة في موطنهم.

أما عن الوضعية غير العادلة بين المستعمر الأوروبي والشعوب المستعمرة فيقرّ نقاد النهج ما بعد الاستعماري أنها ليست علاقة ثابتة. النقطة الأولى التي قد نثيرها هنا تخص سياسات الاستعمار التي تصرّ على تفضيل المستعمر وإعطائه صلاحيات واسعة كقوة حاكمة وكأفراد استثنائيين يحقّ لهم ما لا يحقّ لمواطني البلاد التي غزوها. إلا إن القوة المهيمنة لا بد أن تبرّر بشكل مستمر لذاتها ولغيرها هذا التمييز والمعاملة السيئة

11 انظر نغوي وا ثيونغو "تصفية استعمار العقل"، ترجمة سعدي يوسف. دار التنوير، دمشق، 2013.

عمومًا، وتبقى في حوار معلن وغير معلن عن إمكانية المساواة في فترة ما، أو عن نوع من التخطيط المستقبلي يسعى إلى نوع من العدالة في العلاقة بينهما. إذن فالاستعمار الغربي الحديث، بحكم المفاهيم والقيم التي أسسها مفكره مثل جان جاك روسو وجون لوك فيما يخص الحقوق الطبيعية لكل البشر وعدم منطقية التمييز بين الفئات البشرية، كان يحاول أن يرسخ شرعية حكمه على مبادئ كانت سياساته تناقضها تمامًا. ومن هنا مهما تمسك الاستعمار بمبررات صلاحيته الواسعة فهو يضطر بشكل أو آخر أن يقر بأن هيمنته مؤقتة حتى "تتنور" الشعوب التي يحكمها وترفع نفسها فكريًا للمساواة معه. فرضت هذه المعضلة على النظم الاستعمارية أن تقدم تبريرات هي نفسها تعلم أنها غير مقنعة، وكلما طال هذا التبرير المنافق ازدادت حالة التفسخ والهزلية في كينونة النظم الاستعمارية. قد نقول أن كل حركات التحرير بين الشعوب المستعمرة وجدت في هذا التناقض نقطة ضعف جوهرية في خطاب الاستعمار، ومارست صراعتها معه مسلحة بصواب سعيها للحرية في وجه سلطة تفتقر إلى أي شرعية أخلاقية لما تقوم به من ظلم وعنف.

إضافةً إلى فقدان الشرعية الأخلاقية، فإن مجرد الاحتكاك بين المستعمر المهيمن والشعوب التي يسيطر عليها، كما يخبرنا هومي بابا،¹² يؤدي إلى تذبذب هوية المستعمر المبنية على الاختلاف عن المستعمر، فوجوده خارج مجتمعه الأصلي يحكم عليه نوع من التحولات والتأقلم تغير في جوهره وفي إحساس بذاته. يقر الناقد ديفيد كارتر أن "التفاعل

12 Homi K. Bhabha, *The location of Culture*. United Kingdom, Routledge, 1994.

بين المستعمر والمستعمَر يؤدي إلى انصهار المعايير الثقافية التي تؤكد السلطة الاستعمارية، بل وتهدد أيضًا بزعة استقرارها¹³، ويضيف ديفيد هادرت، أحد نقاد النهج ما بعد الاستعماري، أن "المستعمر يعلن بقوة تفوقه على المستعمَر، لكنه دائمًا ما يفكر بقلق في هويته الخاصة، والتي لا تكون أبدًا ثابتة كما يوحي عدوانه".¹⁴ وبذلك يصبح المستعمر في وجوده خارج بيئته الأصلية "مُهَجَّنًا" ويتأثر بالبيئة التي يستعمرها كما يحاول أن يؤثر فيها ويطوعها لأغراضه. بل ومع مرور الوقت قد يشعر أنه لم يعد ينتمي تمامًا إلى موطنه الأصلي، وأن عليه أن يتعامل بمعايير تختلف، وأن الوضع يتطلب الكثير من الارتجال والتخبط بين فرض تمييزه واختلافه عن الذين يهيمن عليهم وكسر هذه الحواجز ليبدى نوعًا من الانتماء إلى هذه البيئة الجديدة. وذلك لأن "التفاعلات والمفاوضات وحتى تواطؤ عامة الناس والأشخاص العاديين لها تأثير كبير في وسائل تبرير التمييز والفصل بين المستعمر والمستعمَر، ومع الممارسة تتحوّل إلى محاور للقاء والمواجهة"،¹⁵ وخاصة أنه مع تجذّر المستعمر في البيئات التي يحكمها يزداد اعتماده على أهالي تلك المناطق بحيث أنه لا يمكن أن يستفيد منها دون أن يُجنّد أهلها للقيام بالوظائف التي تتطلبها هيمنته.

إذن فهذا التناقض الجوهرى في أساس منطق الاستعمار وتحولات هويته

13 Carter, David. *Literary Theory*. Pocket Essentials. Harpenden, Herts, U.K. 2006, p. 117

14 Huddart, David. *Homi Bhabha* (Routledge Critical Thinkers Series). Routledge: London, 2006, p. 43.

15 Tan See Kam. "Hong Kong Cinema: Double Marginalization and Cultural Resistance." *Southeast Asian Journal of Social Science*, 1994, Vol. 22, p. 62.

واعتماده على من يهيمن عليهم وحتمية الذبول التدريجي لهيمنتته تخلق حيزًا للفاعلية ضده، وضد المنكر الذي يقوم به. ما يهمننا في هذه النقطة بالذات هو أن ما سماه الحديث الشريف بأضعف الإيمان ليست حالة ساكنة وقد تضم أنواعًا من المقاومة قد لا تصل إلى مرحلة اللسان، أو ما سُمّي "قول الحقيقة في وجه السلطة"، وهي المقولة التي يقابلها في الثقافة الإسلامية ما جاء في الحديث الشريف "أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"، ولكنها ذات فاعلية لا تقل عن المواجهة بالخطاب. بالنسبة لنا كليبين سيهمننا في كتابة تاريخنا أن نرصد هذا النوع من المقاومة ضد الاستعمار على المستوى الشخصي والجماعي، وخصوصًا في وضعية لم يكن متاحًا فيها لليبيين أي فرص للعمل الجماعي السياسي، لا كفاح مسلح ولا عمل نقابي أو حتى أنواع من الاعتصام المدني، كما لم يتوافر لهم حرية الصحافة ليخاطبوا السلطة بالحقيقة. هل معنى هذا أنهم لم يعارضوا الاستعمار أو يقاوموه بوسائل أخرى غير القتال، أو أن خضوعهم له بعد هيمنتته التامة على البلاد كان كاملاً ولم تشوبه بعض المقاومة؟ بدون شك لا.

أريد فقط أن أنطرق إلى مثالين بسيطين لما أقصده هنا، أولهما عن أجور العمالة الليبية في الفترة الاستعمارية. كان الإيطاليون قد أقروا أن أجره العمل لليبيين تكون أقل بكثير من تلك التي يتحصّل عليها الإيطاليون. رضح الكثير من الليبيين لهذه السياسة بسبب حاجتهم إلى العمل، ولكن كانت هناك فترات حيث اضطر الإيطاليون إلى رفع أجره لليبيين

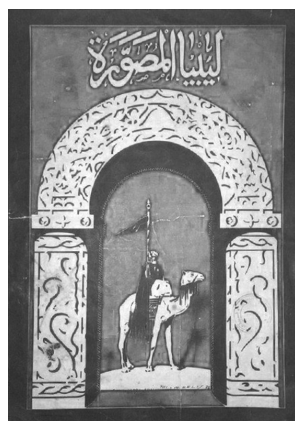
كاسرين قاعدة التمييز.¹⁶ أقول إن الإيطاليين "اضطروا"، ولكن هذا معناه أيضًا أن الليبيين رفضوا عدم المساواة عندما استطاعوا، وفرضوا على السلطة أن ترتجل وتساهل معهم، أي أنهم صنعوا لأنفسهم حيزًا من الفاعلية في ظروف صعبة، ومن دون معارضة صادمة.

المثال الآخر نجده في المقال المميز الذي كتبه د. محمد المفتي عن مجلة ليبيا المصورة، وعن مجموعة الكتاب الليبيين الذي حرّروها وكتبوا فيها.¹⁷ بدون شك السلطات الإيطالية أصدرت هذه المجلة في منتصف الثلاثينيات لدعم شرعيتها وللتواصل مع الليبيين والعرب عامة بلغتهم، ولكن أيضًا إصدار المجلة يعني اعتراف إيطاليا بأنها لا بد أن تخاطب الليبيين بمستوى مرتفع، وأنها احتاجت إلى ليبيين ليقوموا بذلك. هنا نرى كما يخبرنا المفتي أن هذه المجموعة من المثقفين المتطلينين كان لديهم أجندة قاموا من خلالها بتسريب خطاب تحريري، وقروا لليبيين مواد أدبية وصحفية نادرة تصور حياتهم وسعت لتكوين مخيال جماعي خاص بهم، وفتحوا المجال لأقلام جديدة أصبحت من أهم أدباء ومثقفي ليبيا. هذا، بالإضافة لتكوين شبكة سرية تبادلوا خلالها مطبوعات ومعلومات مغايرة للدعاية الفاشية مخاطرين بأنفسهم في ذلك. كل هذا كان يحدث وهم يعملون تحت إمرة الحكومة الاستعمارية. ما يهمنا هنا أن نجد أن بعض الليبيين وجدوا حيزًا للمقاومة وثغرة في السلطة الاستعمارية نظرًا لتناقضاتها ورغباتها المتشابهة.

16 Claudio G. Segre, *Italo Balbo: A Fascist Life*. Berkeley: University of California Press, 1987 (297-298).

17 محمد المفتي، "النغم الليبي.. من جوف النشاز الفاشستي: الهوية المهرية على صفحات مجلة ليبيا المصورة (1935-1940). مجلة الفصول الأربعة، ص 26-54، العدد 91، أبريل 200.

لا ينطبق هذا الأسلوب من التأريخ الأوسع الذي نقترحه على فترة الاستعمار فقط، بل إن أي مؤرخ لفترة القذافي لا بد أن ينتبه لأنواع ممارسات المقاومة غير المعلنة لنظامه لأنها الوحيدة التي كانت متاحة حينها. لا يخفى على أحد أن حكم القذافي كان من أكثر الأنظمة قهراً واستبداداً في العالم، وأنه لم يترك أي حيز للمعارضة المعلنة داخل ليبيا، بل وسعى لمحوها خارج ليبيا أيضاً. لم تشهد ليبيا في عهد القذافي إلا القليل من المظاهرات التي قمعها بسرعة، واعتقل من قالوا الحقيقة في وجه سلطته، بل وقمع من شك في عدم ولائهم أو إمكانية أن يعارضوه في المستقبل، أي حتى الذين شعر أنهم يعارضونه في قلوبهم. ولكن مع ذلك هناك فترات عارض فيها الليبيون النظام بصمتهم وبسلبيتهم وأكثر من ذلك. ومما لا شك فيه أن عدداً لا بأس به من مثقفي ليبيا رفضوا أن ينضموا إلى جوقه النظام، وغيرهم ممن تحالوا على النظام وعرقلوا بعض سياساته وممارساته بتحويلها أو عدم تنفيذها، لأن النظام بات يعتمد عليهم، وهكذا حازوا على حيز من الفاعلية والاستقلالية داخل منظومة قمعية. هذا النوع من المقاومة، والتي قد نسميها بأضعف الإيمان أيضاً، تتطلب جهداً ذهنياً ونفسياً وذكاءً سياسياً مذهلاً، وهي جزء كبير من تاريخنا لا ينبغي أن ننزله أو نفرط فيه.



أغلفة بعض من إصدارات مجلة "ليبيا المصورة"

4. رصد السرديات ووجهات النظر المغايرة

أين نخبي عن أعينهم... أجسادنا المكسورة
كالهشيم

ويليام بتلر بيتس

إضافةً إلى توجيه البحوث التاريخية لأشكال المقاومة الشائعة، والتي فيها تكمن أغلب خبرة الشعوب مع الاستعمار، لا بد أن نسعى أيضًا إلى رصد السرديات التي تخرج عن المسار المتفق عليه، فحينما تحاول أي دولة أو أي بيئة سياسية أن تقدم سردية متطابقة ومبسطة عن ماضيها تخفي فيها بعض حقائق، هذه الحقائق لا تختفي تمامًا، بل ربما تتضخم بأكثر من قدرها. الحقيقة أنه في كل عصر، خصوصًا في أوقات الأزمات نجد الكثير من وجهات النظر المختلفة بين الأشخاص والجماعات والطبقات الفاعلة، وأن هذه الاختلافات تبقى في المجتمع ولو كسرديات شفوية تمارس ضغطًا على السردية الرسمية.

وعلى سبيل المثال: يهمني أن أعيد سرد حادثة هزّت فهمي للإبادة الجماعية في ليبيا ولتاريخ حقبة مهمة من فترة الاستعمار. في زيارة إلى إحدى المدن الليبية منذ عدة سنوات، قابلت شيخًا مسنًا كان من ضمن العشائر التي تم أسرها في المعتقلات الفاشية في الثلاثينيات حيث كان مرافقًا في ذلك الوقت. في خلال الحوار معه ولتحفيزه ليسرد ذكرياته، سألته عما يذكره عن جهاد عمر المختار واعتقاله واستشهاده، وأشرت أن موته كان من مأسينا المشتركة كليبيين. لكن الشيخ صدمني عندما قال عن اغتيال المختار: "يا له من يوم مبارك! كان هذا هو اليوم الذي بدأوا فيه بالسماح لنا بالخروج من المخيمات!" كانت إجابة الشيخ صادمة جدًا لي، فلم أسمع أبدًا وجهة النظر هذه عن

المعتقلات، ولم أتوقَّع أبدًا سماع أي وجهة نظر مغايرة نحو جهاد المختار. مستشعرًا ذهولي من وجهة نظره، تحدَّث الشيخ بتفاصيل أكثر، وبات واضحًا أن ما أدلى به نبع من خبرته الشخصية، فترة عانى هو وأهله وكل من حولهم فيها الرعب والتجويع والمعاملة الوحشية التي وثقها الشاعر رجب بوحويش في "ما بي مرض"، وتضمَّنَها كتاب البروفيسور حميده. كان هذا الوضع المزري هو الذي أقنع ذلك الفتى حينها، وطيلة حياته فيما بعد، بأن انتهاء فترة الصراع المسلح ضد الطليان أدى إلى انتهاء فترة الاعتقال ورجوع الناس إلى مواطنهم التي حُرِّموا منها، وإن كانت الأمور لم تجري بتلك السلاسة تمامًا.

لا نستبعد أن موقف هذا الشيخ تأثر بالبروباغندا التي تعرض لها المعتقلون من قبل الإيطاليين، والتي حاولت أن تقنعهم "أن سبب شقائهم هو المقاومة وقياداتها، المتمثلة في شخص عمر المختار، وأنهم إذا ما أرادوا الخروج من هذا الجحيم، فعليهم التعاون مع إيطاليا من أجل القضاء على المقاومة".¹⁸ من المؤكد أن المعتقلين لم يقتنعوا بذلك، وإلا لتعاونوا منذ البداية، فما نريد أن نتوقَّف عنده أن هذا الشيخ الذي قابلته كان ضحية لظلم مروع، وأن موقفه الذي أصرَّ عليه لما يزيد عن سبعين عامًا جزء من تاريخنا، وبسبب معرفتنا عن معاناة المعتقلات، لا أعتقد أن بإمكاننا أن نتجاهل وجهة نظر هذا الشيخ الجليل، وأن نجزم أنها حالة منفردة ونرجعها إلى الجبن أو الخيانة. السرديات المغايرة ينبغي أن تثير أسئلة أخرى لدينا، وأن نبحث عن إجابات أعمق لها.

18 ناصر فرج بورحيل، "المعتقلات وسياسة الضغط على عمر المختار"، صفحة مركز المؤرخ للدراسات التاريخية والأثرية،

https://www.facebook.com/228060660582202/posts/607174749337456/?locale=ar_AR

والسؤال الذي تثيره وجهة النظر المكبوتة هذه هو: "ماذا كان يفكر ضحايا المعتقلات في جهاد المختار المستمر في ذلك الوقت؟ وماذا كان الشيخ عمر المختار وزملاؤه المقاتلون يفكرون عندما كانت تأتئهم أخبار ما يحدث لعشرات الآلاف من المعتقلين الذين يموتون من المرض والتعذيب والجوع في المعتقلات؟" ولنتبع ذلك بسؤال مهول: لماذا استمر الشيخ عمر المختار في الجهاد حتى "ننتصر أو نموت"، كما تقول عبارته المشهورة، على الرغم مما كان يحدث في المعتقلات ومعاناة الناس فيها؟ أو بسؤال آخر: هل كان الإيطاليون فعلاً سيوقفون سياسة المعتقلات والإبادة الجماعية لو توقّف الجهاد؟

بالنسبة للسؤال الأول، إضافةً إلى الشهادات التي جمعها الأستاذ حميده وغيره من الباحثين فإن المعاملة في المعتقلات كانت بشعة بشكل لا يقارن، وفي هذه الحالات العصية وكما يحدث في الكثير من حالات الاعتقال الجماعي، فمن المؤكد أن العنف المؤسسي في المعتقلات الفاشية سبب تفشي الصراع والفروقات بين الأفراد والجماعات على الموارد القليلة التي وفرت للمعتقلين¹⁹، هذا إضافةً إلى التهديدات ومحاولات الإغراء التي مارسها جيش الاستعمار نحو بعض المعتقلين، فمن المؤكد، وهو أمر ليس مستغرباً، أن التجويع والاضطهاد ومشاهد الموت قلّلت من عزيمة الأهالي، وربما جعلتهم يشكون في فائدة العمل الجهادي، ومن هنا قد نفهم موقف الشيخ الذي شعر بالخلاص عندما

19 ليس لدينا معلومات تكفي عما جرى في المعتقلات الليبية، ولكن تاريخ المعتقلات النازية كتاريخ مقارن يوحي لنا بأن الجوع والتعذيب وقلة الموارد كانت تخلق صراعات بين المعتقلين. للمزيد من المعلومات راجع:

"Inmate Relations" in "Nazi Concentration Camps: A Teaching and Learning Resource": <http://www.camps.bbk.ac.uk/themes/inmate-relations.html>

Nikolaus Wachsmann, *KL: A History of Nazi Concentration Camps*. New York: Farrar, و (Straus and Giroux; Reprint edition, 2016)

تم القبض على عمر المختار.²⁰

الجدير بالذكر أن حياة أجدادنا كانت صعبة أساساً، كما يخبرنا سالم العوكلي الذي يكتب "أن الحياة خارج المعتقلات لم تكن بأفضل بكثير من داخلها حيث مرت مجاعات وأوبئة فتكت بالكثيرين خصوصاً في العشرية الأولى من الغزو الإيطالي."²¹ أما عن المعتقلات ذاتها، وإن كانت كلها وحشية في العموم، فقد تضمنت بعض الفروقات مما قد يفسر بعض التباين في المواقف بين فئات المواطنين حينها. يضيف العوكلي، "انقسمت المعتقلات حسب طبيعة المعتقلين فيها: معتقلات العقوبة (العقيلة والبريقة) التي نقل إليها كل من يمتون بصلة لرجال المقاومة أو ساعدوهم وفيها كانت تجرى المحاكمات والإعدامات، ومعتقلات عادية لمجرد تفرغ الأرض من السكان وعزل المقاومة، وبعض المعتقلات كانت إقامة إجبارية لبعض القبائل في موطنها... غير أن العسف والتعذيب والقتل كان فعلاً في معتقلات العقوبة."²² هذه الفوارق النسبية في المعاملة الوحشية، والتي تشبه إلى حد كبير الأوضاع في معتقلات الهولوكوست النازية في العقد الذي تلى، توضح لنا أن حتى ممارسات الإبادة الجماعية كانت متنوعة كما

20 يستشهد إنزو سانتاريلي وآخرون برسالة لمتصرف الجبل الكومندتور جوزيبي داودياتشي إلى الجنرال قريتراني مؤرخة يوم 5 يوليو 1932 يقول فيها إنه أصبح "لدى مختلف القبائل، حقد أسود، دفين بسبب شعورها بأنهم (أي المجاهدين) كانوا مصدر هلاكها"، ولنا أن نتوقع أن ما سماه داودياتشي أن الحقد الدفين تكون داخل المخيمات ومن خلال التعذيب والتجوع ضمن قبائل كانت قبل ذلك تفانت في مساندة المجاهدين. إنزو سانتاريلي، روين رائنبرو، جورجو روشا، لويجي قوليا: "عمر المختار وإعادة الاحتلال الفاشي للبيبا"، ترجمة: عبد الرحمن سالم العجيلي، تقديم: الدكتور عقيلة محمد البريار. طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (سلسلة الدراسات المترجمة 7)، الطبعة الثانية، 2005، ص 180.

21 العوكلي، سالم. مرسلة خاصة مع الكاتب، 2023/6/18.

22 العوكلي، 2023.

كانت خبرة الناس للاستعمار. هذه الفروقات في الخبرة تتحول إلي أنسجة مختلفة من الذاكرة بإمكانها، إذا سمح لها أن تُظهر تنوعها، أن تثري فهمنا لما حدث في الماضي. أما إذا كُتِمَت تحت ضغط سردية مهيمنة بإمكانها تبهم التاريخ بدلا من أن تزيده وضوحا.

أما بالنسبة لمدى معرفة المختار والمجاهدين بما يجري في المتعلقات فمن الصعب التكهن بها وبخاصة أن شبكة المعلومات التي كان يعتمد عليها المختار خلال الصراع المسلح مع الإيطاليين تم تدميرها عندما أُخليَ الجبل من سكانه، الأمر الذي "أفقد حركة المقاومة جهاز مخابراتها الفعال لأقصى حد"، بل وتمكّن الإيطاليون "من العثور على عناصر استخبارات مأموني الجانب... من بين فرق صغيرة من (المتعاونين)".²³ أما عن جدوى استمرار الصراع المسلح مع الإيطاليين، فيبدو أن إخلاء الجبل من سكانه أثر في قدرة المجاهدين في استمرار المقاومة. يخبرنا إنزو سانتاريلي ورفاقه أن زمام المبادرة تحوّل مع النصف الثاني لعام 1930 من المجاهدين للقوات الإيطالية، "فأفراد المقاومة لم يبادروا بالهجوم - طوال الفترة من سبتمبر إلى ديسمبر 1930 - إلا مرة واحدة، وذلك عند انقضاضهم على قافلة من الإبل بالقرب من درنة، وأصبح من الصعب على المقاومة من التعويض عن خسائرهم، إذ أن جماعات عمر المختار - بعد انقطاع كل صلة لهم بالأهالي المحشورين في ميادين الاعتقال - أصبحت مضطرة إلى الاعتماد في تموينها على المساعدات التي تتمكّن من استجلابها من مصر، بعد

23 إنزو سانتاريلي، روبن رانثيرو، جورجو روشا، لويجي قوليا "عمر المختار وإعادة الاحتلال الفاشي للبيبا" ترجمة عبد الرحمن سالم العجيلي، تقديم الدكتور عقيلة محمد البريار. طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (سلسلة الدراسات المترجمة 7)، الطبعة الثانية، 2005، ص. 140.

قطع مسافات طويلة ومسيرات بطيئة، محفوفة بالأخطار.²⁴ في خلال هذه الظروف لماذا إذن استمر المختار، هل توقع النصر فعلاً، أم اختار أن يجاهد مدرّكاً أن المعركة أصبحت محسومة لصالح العدو؟

ليس لديّ إجابات وافية أو مريحة لهذه الأسئلة، وليلاحظ القارئ أنني لأجيب عنها اضطررت إلى اللجوء إلى مصدر إيطالي وإن كان بأقلام متعاطفة معنا تزكيتها أهم مؤسسة ليبية تعنى بتاريخ الفترة الاستعمارية. المهم في هذه القضية أن نقبل أنه كان هناك اختلاف في المواقف، وأن نتفهمه فهذا أمر طبيعي جدّاً في أي بيئة إنسانية وذاكرتها الاجتماعية. كما ينبغي أن ندرك أن الحوار والخلافات والصراعات الداخلية هي جزء لا يتجزأ من تاريخ وثقافة الأمة لا ينبغي تمويهها أو دحرجها أو إخفاؤها. وليكن حافزنا لهذا التعامل الصادق والواقعي في سرد تاريخنا وذاكرته المتشابكة ومواقفه المختلفة هو أننا إذا لم نكتب تاريخنا بحقائقه وما يحتويه من أمور شائكة سيأتي آخرون ويكتبونه لنا، أو عنا، إذ إن التاريخ الليبي ما زال يعتمد على المصادر غير الليبية في الكثير من تدويناته، كما هو الحال في الكثير من دول منطقتنا، وهذا أمر لا بد أن يكون مقلقاً لنا وأن نعمل على تغييره.

5. الإبادة الجماعية: تفاهة الشر والإرث المثير للجدل

ثمة ما لا يحصى من تجليات التفاهة، التي غالباً ما تتأخم حد كوميديا هزلية رخيصة، وفي هذا الحد، بالذات، تكتمل كل عناصر

24 سانتاريلي، ص. 139.

المأساة.

حسن خضر

الإبادة الجماعية قد تعد استراتيجية خاصة بالاستعمار الاستيطاني، وهي ككل معادلات الاستعمار، مركبة جدًا. يخبرنا سانتارييلي ورفاقه مستشهدين برسالة أرسلها الجنرال بادليو صاحب تخطيط المعتقلات إلى الجنرال قراتزاني²⁵ يخبره فيها أن عزل المقاومة عن الأهالي الذي يدعمونهم بات أمرًا ضروريًا، وعلى الرغم من إدراكه بـ"فداحة مثل هذا الإجراء وأهواله وأبعاده... ولكن الطريق تحدّد لنا مسارها وعلينا اتباعها إلى النهاية، حتى لو أدى ذلك إلى فناء أهالي برقة على بكرة أبيهم."²⁶ ويضيف سانتارييلي ورفاقه: "إن جميع الدلائل تشير إلى أن قراتزاني وبادليو كانا يفكران في إبقاء ميادين الاعتقال قائمة إلى ما لا نهاية"، آملين أن يستقر الليبيون المعتقلون في بطحاء سرت، وأن تبقى منطقة الجبل الأخضر الخصبة للإيطاليين الذين كان الفاشيون ينوون أن يجلبوهم لها ليستوطنوا في ليبيا.²⁷ لكن الإيطاليين اكتشفوا مع بداية عام 1932، أي بعد أشهر من استشهاد المختار، أن مشروع استيطان المعتقلين في بطحاء سرت مشروع فاشل، لاستحالة "توفير سبل المعيشة وضمان تقديم رعاية صحية وطبية بصورة كافية، ولو في أدنى حد يضمن البقاء الطبيعي."²⁸ والسبب الآخر لإنهاء مشروع المعتقلات هو "الحاجة إلى توفير يد عاملة رخيصة

25 يكتب أيضًا اسمه بـ"غريساني"، استعملت هنا نفس التهجي الذي استعمله الأستاذ عبد الرحمن سالم العجيلي مترجم كتاب سانتارييلي الذي تقصيت منه بعض المقتطفات.

26 سانتارييلي، ص 122.

27 سانتارييلي، ص 174.

28 سانتارييلي، ص 179.

لاستصلاح الجبل واستثماره.²⁹

يشير هذا التغيير في سياسة الفاشيين إلى الطموحات المتضاربة في كثير من الهياكل الاستعمارية، كما يذكرنا نقاد منهج ما بعد الاستعمار، ويبقى مصير حياة السكان الأصليين هو السؤال المتجدد أمام المستعمر: هل يجب على القوة الاستعمارية إزاحتهم أو التخلص منهم تمامًا؟ أو تحويلهم إلى قوة عاملة مطيعة تعتمد على المستعمرات الاستيطانية في معيشتهم؟ أو في النهاية تحسين أوضاعهم عبر توفير بعض التعليم لهم وربط اقتصادهم باقتصاد الاستعمار بحيث يصبحوا مستهلكين لمنتجاته؟ على الرغم من بشاعته وعنفه، فالاستعمار مشروع اقتصادي في الأساس، وكلما ازداد استثماره وتغلغله في البلاد بات المواطنون الأصليون أكثر أهمية له، كيد عاملة يستغلها وكسوق احتكاري لبيع منتجه وليطور عبره صناعته وتقنيته. هذه العوامل تفرض علينا أن ننظر إلى العلاقة مع المستعمر بقدر ردود أفعالنا له، والتي أدت إلى مواقف وعلاقات متعددة معه.

يرجعنا تذبذب الاستعمار، من إبادة لأجدادنا كأداة ضرورية لمصلحته، ثم توفير العناية الطبية لهم لسبب مماثل، يرجعنا إلى ما سمته الفيلسوفة حنا أرنت بتفاهة الشر، والمقصود بذلك في هذا الصدد أن القادة العسكريين الإيطاليين غيروا قراراتهم بخصوص من يموت ومن يبقى على قيد الحياة بدون أي شعور بالمفارقة. تفاهة الشر التي تقصدها أرنت تعني أن يقوم أشخاص بالقتل والتعذيب والتجويع من دون أي شفقة نحو الآخرين بعذر أنهم يتبعون أوامر قادتهم، كما أن هؤلاء الأشخاص ليسوا بالضرورة أشخاصًا

29 سانتاريللي، ص 179.

شريرين أو عنيفين خارج نطاق عملهم والبيروقراطية التي تسيّر وظائفهم الشيطانية. وبصورة مماثلة، نسب أجدادنا الذين عانوا أهوال معسكرات الاعتقال الفاشية إلى الشر³⁰، أو إلى قوة استولت على عقول الجلادين، لأن في عقليتهم ليس من المعقول أن يلحق البشر مثل هذا الألم بالآخرين بدون هuada. في حالة أخرى يصف أجدادنا مرتكبي أعمال العنف بأنهم من "أقارب الشيطان"³¹، مما يوحي بأن ذلك كان شيئاً غريباً فيهم خارجاً عن إرادة مقترفي الجرائم ووعيمهم. في هذه التعابير البسيطة يكمن نوع الشر الذي نحن بصددده، شر يصنع من البشر أدوات وحشية تنزع منهم جزءاً من ضميرهم متى تشاء. وبمنطق الحديث النبوي الذي تحدثنا عنه سابقاً، قد نقول إن الدولة الحديثة المعاصرة بمقدورها أن تنزع آخر فتيل للرؤية والتقدير لدى الأفراد ليصلوا لمستوى أضعف من أضعف الإيمان، ألا وهو انعدام الإنسانية تماماً وعدم القدرة لتعيين المنكر مما يفقداهم الرغبة في تغييره ولو في قلوبهم. هذا التمسك بالبروتوكول البيروقراطي في النظام الفاشي وما يصحبه من انعدام أي إحساس بأي مسؤولية نحو ضحاياه، هو ما أدّى إلى إصدار إجراء إداري اسمه "المذبحة الإدارية"³²، مارسه العديد من الدول العظمى، ابتداءً من البريطانيين في مستعمراتهم في القرن التاسع عشر قبل أن يمارسه الإيطاليون على أجدادنا.³³ المذابح الإدارية،

30 Ahmida, 95.

31 Ahmida, 98.

32 أرندت تستعمل مصطلح "administrative massacre" وهو ما ترجمناه بـ "مذبحة إدارية".
Arendt, Hannah, Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil (Revised and Enlarged Edition). New York: The Viking Press, 1964. https://platypus1917.org/wp-content/uploads/2014/01/arendt_eichmanninjerusalem.pdf

33 Edward Said, *Culture and Imperialism* (London: Chatto & Windus 1993), 162.

والتي بإمكاننا أن نعد منها مذبحة سجن بوسليم، هي الجريمة الأساسية التي اتُّهم بها قادة الهولوكوست، منهم أدولف إيمان الذي حضرت أرنت محاكمته، والذي بنت على جرائمه مصطلح تفاهة الشر³⁴.

بالنسبة لأهداف سياسة الإبادة في ليبيا، بالإضافة لإنهاء المقاومة العسكرية، كان الإيطاليون، بالأخص قريزياني، يريدون إنهاء حياة البداوة تمامًا في برقة³⁵، وهنا أيضًا نجد أن منبع هذه السياسة نوعين من الشر من الصعب وصفهما؛ أولهما العنصرية الفجة في الفكر الفاشي واستعانت به لعلم زائف يسمى بتحسين النسل³⁶ (eugenics) الذي كان له دور كبير في بلورة الفكر الفاشي منذ البداية ليقى الجنس الإيطالي من الأجناس الأخرى.³⁷ في عام 1926 مثلاً، قبل أن يجمع الاستعمار الإيطالي أجدادنا في معتقلات الموت بأربع سنوات، سعت الحكومة الفاشية لطرد شعب الروما (العجر) من إيطاليا "لتطهير البلد من قوافل العجر التي... تشكل خطرًا على السلامة والصحة العامة"³⁸، وذلك لأنهم كانوا يعيشون

34 للأسف على الرغم من أنها من أهم منظري ومؤرخي الإبادة الجماعية والأنظمة الشمولية، إلا أن أرنت لم تمنع في تاريخ الفاشية الإيطالية وجرائمها ضد أهالي المستعمرات واعتبرت الفاشية الإيطالية عبارة عن "دكتاتورية عادية". انظر، Ahmida, p. 56.

35 سانتاريلي: 188-189.

36 أدى استعمال اليوجنكس خاصة بعد الحرب العالمية الأولى إلى سياسات بشعة في كل الدول الغربية تقريبًا من تحديد هجرة بعض العرقيات، لتعقيم مواطنهم ذوي العاهات، إلى الإبادة الجماعية.

37 Maria Sophia Quine, "Racial 'Sterility' and 'Hyperfecundity' in Fascist Italy: Biological Politics of Sex and Production." *Fascism*, 1(2), 133: <https://doi.org/10.1163/22116257-00201003>

38 *Human Rights of Roma and Travellers in Europe*. France, Conseil de l'Europe, 2013. الجدير بالذكر أن النظام الفاشستي في إيطاليا سلم شعب الروما للنازيين، والذين نفوا منهم حوالي مليون شخص في المعتقلات النازية.

حياة بدوية أو شبه بدوية، وكان هذا العامل الثاني في قرارهم.³⁹ حارب الإيطاليون البداوة في ليبيا، وفي بلادهم أيضًا لسبب أيديولوجي وهو إصرار الحكم الفاشي أن تكون كل فئات المجتمع وكل مواد الإنتاج تحت هيمنة مؤسسات موالية له، فالدولة الفاشية لا تقبل أي حيز من العمل الثقافي أو السياسي أو الاجتماعي خارج نطاق نفوذها.⁴⁰ يعدُّ هذا التبرير الإداري امتدادًا لوسائل قمعية متعددة استعانت بها الدول المتقدمة بكل أنواع المعرفة لتكوين مؤسسات بيروقراطية صرفة لتهيمن على شعوبها وكل شعوب العالم مهما أدى ذلك من اضطهاد أو عنف.

هذا التلخيص للسياق الإداري والأخلاقي الذي تبلور خلاله الاستعمار الإيطالي والتحولت العالمية التي كوّنته وأدت إلى اللجوء للإبادة الجماعية، يجعلنا نتساءل عن طبيعة هذا الإرث المؤلم، وآثاره في وعينا وضميرنا. إلى أي مدى تؤثر فينا الفاجعة وما هو الدور الذي قد يكون

39 The Gypsies During the Second World War, Volume 2, Donald Kenrick, editor. United Kingdom: Univ of Hertfordshire Press, 1997, p. 15

40 قرّرت أن أترجم corporatism و corporatismo أو بالمؤسساتية بدلًا من النقابوية أو التشاركية نظرًا إلى الخلط الذي قد تسبّبه في مفهومها، وهي كانت دائمًا فكرة تسعى إلى تدخل الدولة في توجيه العلاقات الاقتصادية، وهي كمنظريّة سياسية أقدم من الفاشية، لكنها اعتمدت في إيطاليا لكي تتحكم الدولة في مصادر الإنتاج، حيث كونت الدولة الفاشية مؤسسات لكل قطاع إنتاجي تضم الشركات الرأسمالية ونقابات العمال. للمزيد عن المؤسساتية انظر: <https://www.britannica.com/topic/corporatism> يشرح موسوليني المؤسساتية وعلاقتها مع الإنتاج بهذا الشكل: "تعتبر الحكومة المؤسسة أن القطاع الخاص في مجال الإنتاج هو الأداة الأكثر فاعلية ومفيدة في مصلحة الأمة، وبما أن التنظيم الخاص للإنتاج هو وظيفة تتعلّق بالأمة بأكملها، فإن مدير الشركة الخاصة مسؤول أمام الدولة فيما يتعلق بتوجيه الإنتاج"، ويضيف: لا ينشأ تدخل الدولة في الإنتاج الاقتصادي إلا عندما تكون مبادرة القطاع الخاص غير موجودة أو غير كافية، أو عندما تتطابق جهودهم مع المصالح السياسية للدولة. قد يأخذ هذا التدخل شكل التحكم أو المساعدة أو الإدارة المباشرة.

"Mussolini and the Corporate State," <https://politicalresearch.org/2005/01/12/mussolini-corporate-state>

لذاكرة الإبادة الجماعية في تكوين هوية شعب ما؟ عندما ننظر إلى بعض النماذج المتاحة، لا نجد العديد من الدول التي جعلت الإبادة الجماعية ركيزة أساسية لهويتها. ولعل أسوأ نموذج لاستعمال ذاكرة الإبادة الجماعية هي إسرائيل التي طوّرت ذكرى الهولوكوست حتى أصبحت نوعاً من الدين المدني،⁴¹ حيث يقوم الخطاب الإسرائيلي والمساند له في الغرب على تموضع الهولوكوست كجزء أساسي من تفرّد الأمة. كما تستعمل إسرائيل ذاكرة الهولوكوست لتبرّر اضطهادها للشعب الفلسطيني بوسائل لا تحصى، وهي حالة وصفها إدوارد سعيد بـ“الضحية الذي أصبح الجاني الذي يضحى بشعب آخر”⁴²، بل وتتهم إسرائيل الفلسطينيين بأنهم من اقترح فكرة الهولوكوست لهتلر ليحملوهم مسؤولية المحرقة! في الحقيقة لا يوجد أي مثال يشابه إسرائيل في سخريتها الصارخة عبر استغلال تاريخ الإبادة الجماعية التي أصابت اليهود لتبرير قمع وترهيب شعب آخر.

من حسن الحظ أن هناك أمثلة إيجابية للتعامل مع ذاكرة الإبادة الجماعية. في حالة رواندا، التي يحكمها الآن أبناء ضحايا الإبادة الجماعية التي فني فيها حوالي مليون فرد من قبيلة التوتسي ومن ساندتهم، بذلت الحكومة الرواندية جهوداً جبارة في تثبيت الذاكرة من خلال متاحف ومراكز تثقيفية

41 العديد من النقاد اليهود يرون أن هناك مخاطر كبيرة لتحول الهولوكوست إلى أهم ركائز الهوية اليهودية المعاصرة. للمزيد من المعلومات راجع:

Alter, Robert, “Deformation of the Holocaust,” *Commentary*, February 1981. <https://www.commentary.org/articles/robert-alter-2/deformations-of-the-holocaust/>

Esther Benbassa, *Suffering as Identity: The Jewish Paradigm*. Translated by G. M. Goshgarian. New York: Penguin, 2010.

42 Edward W. Said. “Identity, Authority, and Freedom: The Potentate and the Traveler.” *boundary 2*, Autumn, 1994, Vol. 21, No. 3, p. 12.

ووسائل متعدّدة لتشيع الوعي العام داخل البلاد. كما أن رواندا باتت أحد مراكز دراسات الإبادة الجماعية في العالم، إذ وضعت فجيعتها نصب أعين الباحثين والمؤرخين من حول العالم. في أرمينيا، سعى الشعب الأرمني لتذكير العالم بالإبادة الجماعية التي اقترفها الأتراك في أهابلهم، ومنذ الخمسينيات في الاتحاد السوفييتي التي كانت أرمينيا إحدى جمهورياته صمّموا برامج طويلة الأمد، أعادوا نشر الأعمال الأدبية التي منعها ستالين ودونوا فجيعتهم من خلال بحوث مستمرة، كما أنشأوا نصبًا تذكارية ومتاحف لهذا الغرض. خارج أرمينيا ذاتها ساهم الشتات الأرمني بشكل كبير في كسب تعاطف دولي لمأساتهم على الرغم من الضغط الذي تمارسه تركيا في نفيها للإبادة أساسًا. أما كمبوديا التي قتل فيها نظام الخمير الحمر حوالي مليون مواطن، إضافةً إلى جهود مماثلة لما قامت به رواندا وأرمينيا، فقد استعان الكمبوديون بالأمم المتحدة لمقاضاة مقترفي الإبادة في محاكم مفتوحة تشهد عليها الأمة كلها. ولا يفوتني أن أذكر أن الجهود الجبارة التي قام بها أهالي ضحايا المذابح الجماعية في إسبانيا والأرجنتين وتشيلي للبحث عن رفات المفقودين في الحروب والصراعات التي واجهوها وسعوا إلى محاكمة الجناة ولحفظ ذاكرة الضحايا وإقحامها في ذاكرة الأمة، ولتصبح أحد روافد هويتها الجديدة. هذه الأمثلة الإيجابية توحى لنا أن ذاكرة الإبادة الجماعية بإمكانها أن تكون بؤرة لتركيز الوعي الوطني والتماهي الجماعي حول ذاكرة خاصة بشعب بذاته، ولو أنها مؤلمة.

6. الهوية الوطنية: بين التاريخ الدفاعي والتجوه الاستراتيجي

التذكر ليس أبداً فعل استبطان هادئ، إنما إعادة

تشكيل مؤلمة، فهو تجميع

لأشلاء الماضي لفهم صدمة الحاضر

هو مي بابا

أنا القضية الكبرى، أكتب أعتازاً لأخطاء اليوم من

أجل سراب الغد.

وولي شوينكا

الاستعمار الأوروبي لأفريقيا وآسيا، اختلف عما سبقه من احتلالات وغزوات، إذ إن التفوق العلمي للمحتل كان أكبر بشكل شاسع على الشعوب التي احتلها. في العالم العربي ما زلنا نتحدث عن حملة نابليون كعامل فارق في تاريخ منطقتنا نظراً إلى التجهيزات العلمية التي أتت بها جيوشه ولكم الهائل من التقنيات التي أطلقتها في المنطقة. وهنا نحن نتحدث عن مصر التي كانت من أعلى المراكز الحضارية في العالم الإسلامي، والتي كانت تصارع أوروبا بضعة قرون سبقت مجيء نابليون، فما بالك عن مناطق أخرى في العالم التي كان فيها الناس ما يزالون في العصر الحجري. التاريخ أيضاً يشهد أنه كلما كان المحتل متفوقاً مادياً (علمياً وعسكرياً)، ومن ثم ثقافياً) زادت قدرته على التأثير في ثقافات المجتمعات التي يهيمن عليها. يخبرنا فرانز فانون، طبيب علم النفس والناقد الاجتماعي، أن الاستعمار لم يكتفِ "بمجرد إخفاء الناس في قبضته وإفراغ عقل السكان الأصليين بكل أشكاله ومضمونه"، بل سعت الهيمنة الاستعمارية على "إقناع السكان

الأصليين بأن الاستعمار جاء لتفتيح ظلامهم... إنه إذا غادر المستوطنون، فسيعودون في الحال إلى الهمجية والانحطاط.⁴³ وكما كان متوقعًا، كان رد المثقفين المحليين في المناطق المستعمرة أن يبحثوا عن "ثقافة وطنية كانت موجودة قبل الحقبة الاستعمارية... للابتعاد عن الثقافة الغربية التي يتعرّضون فيها جميعًا لخطر الانغماس فيها"⁴⁴، وأدى هذا "البحث الشغوف" إلى اكتشاف "حقبة جميلة ورائعة" في تاريخ الأمة تكشف "ما وراء بؤس اليوم، ما وراء ازدياد الذات والاستسلام"⁴⁵ للمستعمر. يقر قانون أن المثقفين المحليين "اكتشفوا بسرور كبير أنه لم يكن هناك ما يُخجل منه في الماضي، بل الكرامة والمجد والوقار."⁴⁶ ويضيف أنه كان الأمل في هذا "الادعاء بثقافة وطنية في الماضي [أن] يؤدي فقط إلى إعادة تأهيل الأمة، بل [يكون بمثابة تبرير للأمل في ثقافة وطنية مستقبلية]."⁴⁷ لكن "جهود المثقف المحلي في إعادة تأهيل نفسه والهروب من برائن الاستعمار" بتاريخ تراث أمته وثقافتها بشكل دفاعي المقصود به دحض الادعاءات الاستعمارية "حمل بصمة منطق الاستعمار ووجهة نظره"⁴⁸ بما فيها من تعميم وغموض.

وفي هذا الصدد بالذات قد نجد مصطلحًا مفيدًا صاغته المؤرخة والناقدة

43 Fanon, Frantz. *The Wretched of the Earth*. Translated by Constance Farrington. New York: Grove Press, 1963, p. 210.

44 Fanon, p. 209.

45 Fanon, p. 210.

46 Fanon, p. 210.

47 Fanon، نفس المصدر

48 Fanon, p. 211.

غياتري سبيفاك، ألا وهو مفهوم "التجوهر الاستراتيجي"، وهو تكتيك سياسي تقوم به الأقليات المستضعفة عبر تقديم هوية جماعية بطريقة مبسطة لتحقيق أهداف معينة على الرغم من وجود اختلافات كبيرة في وجهات النظر بينها.⁴⁹ تضيف سبيفاك أن التجوهر الاستراتيجي تكتيك يستعمله المستضعفون بدقة عالية، وبشكل مؤقت للمّ شملهم وللتفاوض مع قوة أعظم منهم، فهو ليس سياسة أو موقف طويل الأمد لأن التجوهر عمومًا يجمع الحقيقة، ولكن جهود التجوهر الاستراتيجي، أو طرق أخرى لابتكار الهوية سواء كانت فردية أو جماعية، ليس من السهل كبها في الواقع.

ولعلّ أكثر الجهود المعروفة نحو خلق جوهر وطني استراتيجي هي التي قام بها المثقفون الأيرلنديون في نضالهم لتعبئة الشعب الأيرلندي نحو الاستقلال من بريطانيا.⁵⁰ بقيادة الشاعر ويليام بتلر بيتس، استخدم هؤلاء المثقفون "مخزونًا هائلًا من النصوص الأثرية والتاريخية غير الموثقة والأنثروبولوجية واللغوية والأدبية بشكل استراتيجي لبناء صورة لأيرلندا (افتراضية إلى حد كبير) خارج نطاق الإمبراطورية البريطانية."⁵¹ وقد تضمّن هذا الجهد كتابة تاريخ مغاير (وعموماً متخيل) لأيرلندا يُرجع جذور أهاليها لشعوب من الشرق معتمدًا على أساطير سلتية قديمة. وبشكل

49 Spivak, Gayatri Chakravorty. *The Spivak reader : selected works of Gayatri Chakravorty Spivak*. New York : Routledge, 1996, p. 214.

50 Declan Kiberd, *Inventing Ireland: The Literature of Modern Ireland*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997.

51 Nicholas Allen. Review of *Irish Orientalism: A Literary and Intellectual History* by Joseph Lennon. *New Hibernia Review / Iris Éireannach Nua*, Spring, 2005, Vol. 9, No. 1 (Spring, 2005), pp. 157-159.

أدق، اعتمد ييتس على التصوف والرمزية الشرقية لصياغة خطاب أيرلندي مضاد للاستعمار، يرتكز على نقد المادية الغربية الحديثة يتشابه في حدّ كبير للنقد الذي كتبه أدباء الهند والشرق الأوسط عن الغرب.⁵² اجتمع هذا الجهد في إعطاء صبغة شرقية لأيرلندا لتوحي بأنها بلد ذات جوهر مغاير تمامًا عن بريطانيا، بل وعن الغرب عامة. كان هذا الجهد للتجوهر الأيرلندي استراتيجيًا بالفعل، إذ إنه لم يدم طويلًا، ولكن لا يزال يُعد بأنه كان له دور مهم لبناء خطاب قومي أيرلندي لمناهضة الاستعمار.

بالنسبة لتاريخنا، ليبيا ومنطقتنا عمومًا، لنا أن نقول إن التجوهر الاستراتيجي كطريقة لمحاربة التاريخ الاستعماري والاستشراق، قد تغلغلت أكثر مما ينبغي كموقف أخلاقي وسياسي في أساليب كتابة تاريخنا. في تحليله المميز للتأريخ الليبي للفترة الاستعمارية وما مدى التجوهر الاستراتيجي الذي استعملناه لكتابة تاريخنا، يضيف د. المفتي ثلاث نقاط مهمة جدًّا في هذا الصدد: أولاً- بخصوص كتم الجوانب السلبية في تاريخ الأمة، وثانيًا- حول سعي النخب الوطنية لسردية تاريخية تخلو من الشوائب وفقًا لتحليل فانون، وثالثًا- بخصوص كتابة التاريخ بشكل تتجوهر فيه صورة الأمة لتخدم أغراض سياسية، ويتغاضى عن عناصر وحقائق كثيرة في الخبرة الوطنية.

بالنسبة للتكتم فيقر المفتي عن الذاكرة الجماعية في ليبيا فيما يخصُّ

52 Jane Grogan, book review, Joseph Lennon, *Irish Orientalism: A Literary and Intellectual History*

Irish University Review, Vol. 35, No. 1, Special Issue: John McGahern (Spring -Summer, 2005), pp. 204-208.

الفترة الاستعمارية أنها كَيِّفَتْ "أحداث وشخصيات الماضي بطرق خفية لتوائم همومها وأحلامها وطموحاتها الحاضرة، ويصل التحوير أحياناً حد التزوير والإيهام عندما تكون إعادة كتابة الماضي على حساب نقد الذات وتعرية مواطن الضعف".⁵³ ويضيف أن هذا التحول في السرد التاريخي جرى على المستوى الشفوي حيث أدَّى كتم الصدمة إلى إبقاء فقط بعض الجوانب الإيجابية أو المفيدة في تاريخ الأحداث، ثم أجمعت الصحافة الحديثة هذه السردية غير المنصفة عبر مقالات الرأي التي لا تراعي التحقيق في المعلومات التي تنشرها.

فيما يخصُّ البحث عن سردية رائعة ونقية عن تاريخ الأمة التي تحدث عنها فانون، فيخبرنا المفتي عن كيفية تعامل كُتاب الجيل الثاني من النهضة العربية مع تاريخ الأمة الإسلامية، "أمثال طه حسين/ المازني/ أحمد أمين/ العقاد/ خالد محمد خالد، وغيرهم ممن قدّموا سرداً جديداً ملحمياً لظهور وانتشار الإسلام.. يسقط كل ما يثير التساؤل أو يحرّج الصورة المثالية.. ويغفل الأسباب الحقيقية للأزمات والفتن والانشقاقات".⁵⁴ الجدير بالذكر أن أغلب هؤلاء الأدباء الذين يذكّره المفتي مصريون، وأن التاريخ الذي قدّموه للأمة المصرية على أنه هو تاريخها هو تاريخ إسلامي خارج نطاق جغرافيا مصر في أغلبه ولا يخصُّ مصر بالذات، إلا أننا لا نستغرب ذلك، فكما أخبرنا فانون، أن أدباء الشعوب المستعمرة كثيراً ما وسعوا الرقعة التاريخية لتراث أوطانهم، إذ "كان رد الشعوب المستعمرة

53 المفتي، ص 30.

54 المفتي، ص 31.

قارياً في اتساعه⁵⁵ لتجميع موارد ثقافتها وتاريخها. ومن هنا يصبح تاريخ مصر أو ليبيا أو اليمن تاريخ الأمة الإسلامية كلها، وكما نعلم اعتمدت فيما بعد الكثير من الدول العربية هذه السرديات كجزء من تاريخها وأصبح هذا التاريخ المنقى والمترامي الأطراف تاريخها الوطني.

وكمحاولة للتجوهر الاستراتيجي خلال الفترة الاستعمارية وبعدها، كما يخبرنا المفتي، ركزت السرديات التاريخية على التاريخ الصدامي بين شعوبنا والاستعمار. يكتب المفتي: "خدمة لمعاركه السياسية.. دأب الفكر القومي المعاصر (بعثي/ ناصري/ قومي عربي) على التشديد على الجانب الصدامي في لقاء الثقافة العربية مع الثقافة الأوروبية الحديثة الوافدة في الأزمنة الحديثة، والتي رافقت جزئياً وصول جيوش الاحتلال، كما سعى بقصد أو بدونه إلى التقليل من عملية التفاعل الأعظم على مستويات المعاش والفكر والقيم، وكان كَتَّاب حقبة الاستقلال.. ينتقون قصص المقاومة ويضخمون حجمها ومساحتها الزمنية، حتى لتتوهَّم أن لا شيء كان يشغل أهلنا سوى نصب الكمان وبناء المتاريس."⁵⁶ ويضيف الأديب عمر الككلي أنه في ليبيا في عهد القذافي، ركز تأريخ المقاومة الليبية ضد الاستعمار الإيطالي "على الجانب العسكري وحده ولم يولِ أي اهتمام للمقاومة السياسية أو النضال السياسي."⁵⁷ كما يُقر الككلي أنه "لم نلاحظ أي اهتمام بالنشاط السياسي المضاد للإيطاليين داخل ليبيا (وهو، في ما نعلم، قليل جداً)، ولا بجهود

55 Fanon, 212.

56 المفتي، ص 31.

57 عمر بلقاسم الككلي، "معمار القذافي وتاريخ ليبيا، بوابة الوسط، 2016/1/17.

<https://alwasat.ly/news/opinions/86921?author=1>

المعارضة السياسية بين أوساط المهاجرين الليبيين في تونس ومصر وبلاد الشام، كما تم تجاهل الحراك السياسي بتنظيماته المتعددة، والذي جرى في عهد الإدارة البريطانية في النصف الثاني من الأربعينيات لإدارة معركة الاستقلال⁵⁸ وبخاصة "الجهود السياسية لمحمد إدريس السنوسي (أمير برقة ثم ملك ليبيا لاحقاً)، والجمعيات والتنظيمات والأحزاب السياسية.⁵⁹ أما نظام القذافي، فيضيف الككلي، أنه أراد "أن يُظهر التاريخ الليبي المعاصر على أنه تاريخ جهاد وقتال فحسب، قائم على الحماس الديني والقومي فقط دون أي دعم سياسي" لأنه كان نظاماً "معادياً للعمل السياسي، ويرى فيه خطراً على نظامه، لذا لم يشأ أن تنتشر ثقافة المعارضة السياسية والعمل السياسي المنظم.⁶⁰ هذه الممارسات التأريخية معاً توحى إلى حد كبير ما تقصده سبيفاك بالتجوهر الاستراتيجي، ألا وهو تكوين سرديّة غير منصفة للحقائق لدعم هوية مقتضبة من أجل أهداف سياسية معينة. المشكلة هنا تكمن في التأثير الذي تضغط به سرديات العنف على المجتمع وعلى شعور أفراده بالفاعلية وأشكال العمل السياسي المتاحة لهم، والتي بإمكانهم ممارستها.

7. التاريخ والهوية: من تطبيق العنف إلى ذاكرة انتعاقية

يخلق التاريخ والذاكرة ساحة لسياسات الحاضر

علي حميده

58 الككلي، 2016.

59 الككلي، 2016.

60 الككلي، 2016.

إن الفتى من يقول ها أنا ذا
ليس الفتى من يقول كان أبي
علي بن أبي طالب

ما هي
الأشياء الثلاثة التي لا بد ألا تفعلها؟
أن تنسى.
أن تبقى صامتًا.
أن تقف بمفردك

موريل روكايزر

أقدم هذه التأمّلات المشكالية المسهبة عن تاريخنا، قاصدًا أن نرى تاريخنا وتأريخنا من وجهات متعددة، ولاقتراح أدوات نظرية إضافية تمكّننا من كتابة التاريخ بشكل جديد، وتنطوي هذه المقترحات التي أقدمها هنا تحت مصطلح "أنسنة" التاريخ، والمقصود بها أن نكتب التاريخ بقبول حقائق الإنسان كما هي، وعدم التعامل مع التاريخ كمجموعة من الدروس والمواظ ينقسم فيها البشر بين الأبطال والشريرين، وبين الطيبين والأشقياء. لهذا الغرض أقترح خمسة توجهات أراها مهمة ليس فقط في كتابة تاريخنا، ولكن أيضًا في تكوين هويتنا. أولاً- التوقف عن تطبيق العنف⁶¹؛ ثانيًا- تنويع أدوات ومصادر كتابة التاريخ؛ ثالثًا- التعامل مع إشكالية البطل وسرد خبرة الأمة بكل قطاعاتها؛ رابعًا- الاعتراف بالتواريخ المكتومة وفتح المجال لسردها؛ خامسًا- إعادة تمركز التاريخ نحو الضحايا بدلًا من المقاتلين. أرى أن هذه التغييرات بإمكانها أن تعيد توليف الهوية الوطنية بشكل أكثر إيجابية، وأن تلهم ابتكار آليات جديدة للعمل السياسي تنمّي السلام والتوافق.

61 أستخدم هذا المصطلح من الأديب سالم العوكلي. "تطبيق العنف ثقافيًا"، بوابة الوسط، 2016/1/24: <https://alwasat.ly/news/opinions/87625?author=1>

إشكالية تطبيق العنف

يقول القول المأثور عن التاريخ إن "من لا يعرفون التاريخ، من المحتم أنهم سيكررونه"، فعدم معرفتنا بالتاريخ قد تجعلنا قادرين على أن نأخذ مواقف مختلفة نحو معاضل واجهها آخرون قبلنا. وقد نقول أيضًا إن الذين لا يعرفون إلا صيغة أو فلسفة واحدة للتاريخ سيتصرفون طبقًا لما يعرفونه، فالذين لا يعرفون إلا تاريخًا مليئًا بالعنف، وبخاصة إذا تم تمجيده لهم، لن يكون لديهم مرجعية إلا العنف في خياراتهم السياسية. هذا للأسف هو الإرث السياسي الذي تركه نظام القذافي في ليبيا، وإن كان ليس وحيدًا في ذلك. يسمي الكاتب سالم العوكلي هذا الإرث الفكري في ليبيا بـ"التطقيس الثقافي" للعنف الذي تسرب إلى العقل الجماعي الليبي على "متن الخطاب التعبوي المهيمن في ظل وسواس ثوري قهري، شعاره الكفاح المستمر ونشيدته الأثير مديح الموت".⁶² يضيف العوكلي أن هذا التمجيد للحروب و"لاختزال مفهوم النضال في جانبه المسلح [كان له] دور مهم في تشكيل ثقافة الأجيال اللاحقة التي لم تتشكل لديها ذاكرة ولا خبرة نضال سياسي، فاختارت مباشرةً الأسلوب المسلح لانتفاضة فبراير".⁶³ وهكذا، كما كان يرفض نظام القذافي العمل السياسي المسالم، رفضه أيضًا المناهضون له في فبراير، بل واستخفوا بأي تلميح للنضال السلمي، كما يذكر العوكلي. وكما اختزل نظام القذافي نضال الليبيين للاستعمار بفكرة الانتصار أو الموت تمت مواجهته، بقصد وبدون قصد، بذات الموقف الحاد. لا يخفى

62 العوكلي، 2016.

63 العوكلي، 2016.

على أحد أن ما نجنيه الآن في ليبيا هو امتداد لهذه النظرة المحصورة للعمل السياسي التي أدّت إلى احتكار أمراء الحرب المشهد السياسي، وأن الكوارث التي نتج عنها هذه المواقف التي تجتمع فيها الصرامة والانتهازية والاستهتار ما زالت تفتك بالوطن وتقوده إلى التهلكة.

إشكالية البطل

وكما أن التركيز على جانب واحد من التاريخ (الصراع المسلح) يحدّد وعينا بتنوّع الخيارات أماننا، ومن فاعليتنا في التفاعل مع المحن، فبطريقة مشابهة نجد أن التاريخ الذي يدوّن فقط إنجازات الأبطال له سلبيات على تكوين الوعي السياسي لدى أفراد المجتمع. كل المجتمعات لديها أبطال يقصد بهم أن يكونوا قدوة لباقي الشعب يمثلون بهم ويتبعون خطاهم، وعادةً ما يكون هؤلاء الأبطال مفعمين بروح الشجاعة والتضحية والعطاء والريادة، والقصد من سرد حكاياتهم عبر القصائد الملحمية أو مناهج التعليم هو أن يعتبرهم المواطنون كبارًا وصغارًا قدوة لهم، وأن يسعوا ليكونوا شجعانًا وشهمين مثل هؤلاء الأسلاف. أما عن مدى حقيقة عظمة هؤلاء الأبطال فأولى هذه السلبيات هي أن بطولات الأسلاف كثيرًا ما تكون خرافية أو أن شخصياتهم عظيمة بشكل يجعل الناس العاديين يشعرون أن ليس لديهم القدرة بأن يكونوا مثل هؤلاء الأبطال لأن الفجوة بينهم قد تجعل الفرد عاجزًا أمام أي مسؤوليات اجتماعية أو سياسية، ويقول:

“أنا لست بطلاً، لا يوجد شيء يمكنني فعله.”⁶⁴ هنا تتجاوز الرغبة في إعطاء المثال هدفها، وبدلاً من أن تزيد الأمثلة النموذجية من طموح الناس تحبطهم وتفقددهم الإحساس بالفاعلية.

في القرن العشرين سعت بعض الأنظمة الشمولية إلى هذا الأمر بالذات، أي أنها عظمت من شأن قائدها الأوحده حتى بات مثل الإله والمواطنين عبيده، ومهما قيل لهم إن القائد هو مثال يقتدون به، فهم في الحقيقة يشعرون بأنهم أقزام أمام القائد الأعظم، بل وأنهم لن يستطيعوا العيش بدون. في مثل هذه الوضعية نجد أن تقديس القائد يواكبه صلاحيات مهولة لنظامه وسلطة شاملة في تحديد تصرفات المواطنين ومعاقبتهم إذا ما خالفوا إرشاداته. يكون هذا الشعور بالرهبة والرعب المكبوت علاقة أبوية تعجيزية بين المواطن والقائد الأعظم تجعلهم يبرّرون أي عقاب يصدره ضدهم ويسعون إلى إرضائه بأي شكل لأن رضا النظام عليهم بات الطريقة الوحيدة التي يشعرون بها بقيمة حياتهم.

في حالات أقل حدة أو شمولية، ولكن حيث البون يضل شاسعاً بين البطل النموذجي والأفراد، نجد أن الأفراد يتعاملون مع هذا الفرق بأن يكونوا لأنفسهم شخصيتين منفصلتين: شخصية مثالية مرتبطة بالبطل وقيمه تسعى دائماً إلى الأفضل وتزدهر فيها الروح الإنسانية، وهي ذات تسعى إلى العيش بالقيم العليا والفضيلة والتراحم وصفات أخرى تنسب إلى البطل القدوة. ولكن تسكن بجانب هذه الذات المثالية في ضمير الفرد، ذات

64 “On the Downside of Heroism: Grey Zone Limitations on the Value of Social and Physical Risk Heroism,” *Heroism Science*, Volume 4, Issue 2, 2019. <https://scholarship.richmond.edu/cgi/viewcontent.cgi?article=1025&context=heroism-science>

واقعية تتعامل مع الحياة برؤية براغماتية تسعى إلى مصالحتها الشخصية بكل أنانية وطمع، وترفض المثالية، وتتجاهل الاعتبارات الأخلاقية التي يمثلها الأبطال. الغريب في الأمر أنه هذا الانفصام الأخلاقي لا يصاحبه أي شعور بالتناقض، فقد نقول إن فهم الفرد لهذه المعادلة هو أن هناك عالمين فعليين: عالم مثالي يمثله البطل أو السلف حيث القيم النبيلة هي المعيار والفرد يتصرف على حسابها في مخيلته؛ وهناك عالم آخر، عالم الشارع والحياة اليومية الذي يعيش فيه الفرد أغلب حياته، وهو عالم صراع ومصالح مؤقتة لا يجدي فيه التمسك بالصدق والرحمة والعدالة.

يقول لنا علماء النفس هنا إن البطل يلعب دورًا مهمًا في هذا الانفصام المتناغم في هوية الفرد، فحيث إن البطل في عقلية الجماعة تم تكليفه بمسؤولية تحقيق رغبة جماعية، مثل الشجاعة والكرم والتضحية، قد يقوم البطل القدوة ببعض الأعمال التي لا تتجرأ الجماعة على القيام بها، ومن هنا يمحو كل شعور بالندم أو الذنب في تقصيرها.⁶⁵ أي بلغتنا قد نقول إن البطل يؤدي ما يشبه فرض الكفاية في مسؤوليات مهمة ويُسقطه عن الجماعة، وكذلك يدفع كفارة تقصيرها أو ذنوبها في حالة قيامها بأعمال سيئة. ولعلَّ أهم رمز للبطل هو أن مبادئه وتصرفاته توحى بأنه لا يخشى الموت ولا يعيره اهتمامًا، وهو في ذلك مختلف عن أغلب الناس، وهم يقدِّرونه ويمجِّدونه لأنه حرَّر نفسه، وبشكل ما حرَّرهم أيضًا، من الشيء

65 André Oliveira Costa and Adriana Simões Marino. "The hero in Freudian and Lacanian psychoanalysis: revolution and subversion." *Psicologia USP*, Volume 29, número 3, 2018, pp. 394-403.

[https://www.scielo.br/j/psup/a/cMMFdttcWFjhtgWVs34y6Ns/?lang=en&format=pdf#:~:text=The%20hero%20occupies%20a%20place,guilt"%20\(Freud%2C%201913%2F](https://www.scielo.br/j/psup/a/cMMFdttcWFjhtgWVs34y6Ns/?lang=en&format=pdf#:~:text=The%20hero%20occupies%20a%20place,guilt)

الذي يخشونه أكثر من أي شيء آخر.

كل مجتمع يحتاج إلى أبطال، وليس هناك مجتمع لم يحاول أن ينقي أبطاله الذين يقومون بإعفاء الناس من القيام بمهام لا طاقة لهم بها، إضافةً إلى قدرتهم على أن يلهموا الأفراد نحو الأفضل. ولكن بالنسبة لكتابة التاريخ حين يتم التركيز فقط على الأبطال، وحين يُعتمد عليهم كركيزة أساسية في تكوين الهوية الوطنية، قد تتحوّل بطولات الماضي (أو حتى الحاضر) إلى وسيلة للناس ليعفوا بها أنفسهم من مسؤولياتهم الاجتماعية والأخلاقية. كما أن استعمال التاريخ لتحفيز عامة الناس ليتصرفوا بشكل بطولي يوحي بأن هناك إشكالية في البيئة الاجتماعية. ما السبب الذي يدفعنا أن نطلب من الناس العاديين أن يقدموا تضحيات أكثر من الأعمال اليومية التي تجعلهم مستقلين ومكتفين بذاتهم؟ ما هو الطارئ الذي يتطلب أن يقوم الناس بجهد إضافي ومن سيستفيد من هذه التضحيات؟ استعمال التاريخ البطولي إذن يدل على وجود عدم توازن في البيئة قد يؤدي إلى أن يقدم بعض الناس تضحيات أكثر من آخرين، وأن يقوم بعضهم باستغلال هذا الاختلال لمصلحتهم، وأن يدّعي آخرون تضحيات لم يقوموا بها سعيًا لرفع مكانتهم في المجتمع. هنا يتحوّل التحفيز للعمل البطولي إلى مساحة للرياء والنفاق، كما أن السعي وراء التكريم والمكافآت قد يؤدي إلى صرف انتباهنا عن العمل اليومي لإصلاح المنظومة الاجتماعية حتى لا نحتاج إلى عدد كبير من الأبطال أساساً.⁶⁶

66 Shea, Gregory P. "The Problem with Heroes." *Knowledge at Wharton*:

<https://knowledge.wharton.upenn.edu/article/the-problem-with-heroes/>

ما نقترحه هنا هو أن تخرج كتابة التاريخ من مأزق التركيز على الأبطال الخارقين، وأن تسعى إلى التعامل مع تفاصيل حياتهم بإنصاف بحيث نراهم كبشر، وهذا سيمكننا أن نتعلم منهم حقاً لأنهم مثلنا وإن كانوا أفضل منا. كما أقترح أن نسعى إلى رصد الفترات التي سعى فيها مجتمعنا إلى التوافق ورفع شأن عامة الناس حيث لم يلجأ المجتمع إلى التناحر والصراع وإلى الأبطال ليتعاملوا مع الصعاب.

تنوع أدوات ومصادر التاريخ

هل للتاريخ دور في المستقبل إذن؟ نعم. الكيفية التي نتعامل بها مع تاريخنا توحى بالشكل الذي نتعامل به مع الواقع، كما يخبرنا الأستاذ حميده عندما يقرُّ بأن التاريخ والذاكرة يخلقان ساحة لسياسات الحاضر في مقولته المقتطفة من كتابه. التاريخ الذي نركّز فيه على أنواع مختلفة للنضال السياسي والحوار وأشكال أخرى من ممارسة الفاعلية السياسية السلمية سيوحى لنا بخيارات عديدة للعمل السياسي في المستقبل، وهذا ما نريده. هذا يعني أن علينا إعادة كتابة تاريخنا لاكتشاف هذه الممارسات، مما قد يضطرُّنا أن نخرج من نطاق السياسة تمامًا وعن الموارد التقليدية لكتابة التاريخ. مثلاً: إذا أردنا أن نعرف حياة الليبيين بداية السبعينيات إلى نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وهي الفترة التي اختزل فيها القرار السياسي في يد القذافي، فلن نجد الكثير عن حياة الليبيين وردود أفعالهم لطريقة حكمه. قد نقتنص من الأرشيف الإداري وفي تسلسل بعض القوانين والإجراءات الإدارية الصادرة عن الوزارات ومؤتمر

الشعب العام ردود أفعال الناس لوضع سياسي ما، وقد نتفحص الصحافة الموالية للنظام لنشتق منها واقع حياة الليبيين على الرغم من أنها كانت تتكتم على حقائق الوضع السياسي والاجتماعي، وقد نجد في المطبوعات المستقلة القليلة جدًا وفيما كتبه الصحفيون العرب والأجانب عن ليبيا، مادة نستقصي منها بعض الحقائق، وبدون شك ستكون بعض النصوص الأدبية والأعمال المسرحية التي حاولت أن تمثل الواقع بشكل ما مفيدة جدًا. من حسن حظنا أن بعض الكتاب والإداريين الليبيين كتبوا مذكراتهم بعد سقوط النظام ولكنها ما زالت قليلة. إذن سيقع الشغل الأعظم في تقصّي الحقائق على اللقاءات مع الأشخاص الفاعلين، وكذلك عبر تدوين ذكريات الناس العاديين عن وضعهم الاقتصادي، مثلًا، في فترات معينة من تاريخ النظام، وكذلك عن قمع الخصوم السياسيين، وحرية التعبير، والفساد المالي والإداري، وعلاقات النظام مع التكتلات القبلية والجهوية والتكنوقراط، والتيارات الفكرية المختلفة. الكثير من تفاصيل هذه الأحداث لم يُكتب وسيكون العمل الإثنوغرافي مهمًا جدًا لقلّة المصادر المكتوبة. إذن لا بد أن يُكتب التاريخ من الصفر، وذلك لعدم وجود أرشيف جيد، وأيضًا لأن النظام ذاته كان يعتمد الكذب على ذاته وعلى الشعب. مع ذلك تظل كتابة تاريخنا ممكنة وضرورية على الرغم من هذه العوائق، ولنا في كتاب الأستاذ حميده مثال مميز على كيفية استعمال تعدّد التخصصات لكتابة تاريخ أكثر واقعية وأكثر إلهامًا.

الاعتراف بالتواريخ المكتومة

مثل الكثير من الليبيين، لم أعلم بوجود اللغة الأمازيغية إلا في سن المراهقة، وبالطبع لم أقرأ في فترة الدراسة في ليبيا أي شيء عن المواطنين الأصليين، الأمازيغ الذين يجري دمهم في دمائي، أو عن وجود لغات وثقافات غير العربية في ليبيا. كما أننا لم نتعلم عن التراث الفينيقي والإغريقي والروماني في ليبيا إلا بمجرد ذكرها كفترات في تاريخنا دون أي تفاصيل. وما زال الكثير منا يستغرب معرفة أن المسيحية واليهودية كانتا منتشرتين في ليبيا في تاريخنا القديم، كما أن معرفتنا ما زالت قليلة جدًا بشعراء وأدباء وفلاسفة ليبيا القدامى ككاليماخوس وأريستيبوس وسائينيوس وأبوليوس. نتحدث عنهم كإغريق ورومان بالرغم من أنهم كتبوا نصوصهم هنا في بلادنا التي ولدوا بها، وبالطبع لا تدرس كتاباتهم في المدارس ولا أظن بالجامعات. بدأت بعض الكتابات عن الثقافة الأمازيغية تصدر في ليبيا في الآونة الأخيرة، ولكن ما يمنع أن يتم تدوين وترجمة المزيد من هذه الأعمال، وتصحيح معرفتنا بهذه الثقافة التي وإن كان أغلب الليبيين لا يعرفون عنها إلا القليل فهي موجودة في حاضنات النوي؟ أذكر هذه النقطة باختصار شديد لأجسد قلة معرفتنا، وقلة معرفتي بالذات، بالفجوات المهولة في تاريخنا، فلا يمكن أن نتحدث عن تاريخنا وإعادة توليف هويّتنا دون التعامل مع هذه الفجوات.

التركيز على تذكر الضحايا

يخبرنا الأستاذ حميده، أن الإبادة الجماعية كممارسة حدثت تطوّرت عبر

عدة مراحل، وأن ليبيا كانت إحدى محطات هذا التاريخ المأساوي، لذا فإن دعوته لإعادة تمركز هذا التاريخ من تركيزه شبه الحصري على أوروبا وتجاهله للإبادة الجماعية في الدول التي استعمرها الغرب هي مبادرة تصحيحية مهمة لتثبيت الحقائق ولتحميل المسؤوليات التاريخية ولإعداد الهياكل المؤسسية لإيقاف هذه الممارسة المأساوية في المستقبل. ولكن ماذا عنا نحن في بلادنا؟ مما لا شك فيه أن رصد خبرتنا والبحث عن كل ما بإمكاننا أن نعلمه عنها وتأطيرها ضمن سياقها التاريخي سيساعدنا على وضع هذه المأساة العظيمة ضمن ترابط بشري يوثقه التعاطف والتضامن، بدلاً من الحسرة والانعزال، أو الأخطر من ذلك، التجاهل والنسيان.

ما يهمني هنا ليس الإبادة الجماعية وحدها ولا الماضي فقط، بل الحاضر والمستقبل. من سنكون، أو ماذا نريد أن نكون، وكيف سيكون تاريخنا عوئاً لنا في تشكيل هويتنا ووجهتنا في المستقبل؟ كلنا يعرف مدى العنف الذي أصاب ليبيا في العقود الخمسة الماضية، وخصوصاً بعد التمرد الذي أسقط نظام القذافي. ونظرًا إلى أننا تجاهلنا ولم نتمكن من رصد جرائم نظام القذافي وتسمية الذين ارتكبوا إرثه العنيف، لم نتمكن أيضًا من البدء في معالجة عنف السنوات الاثنتي عشرة الماضية، وأنا هنا أقصد بالذات العنف ضد الأبرياء والمدنيين. هل سنسأهم مثلما تناسينا ضحايا الإبادة الجماعية الفاشية في بلادنا؟ والسؤال الملح: هل إهمالنا لفجائع الماضي وعدم اكترائنا بضحاياه هو سبب عدم قدرتنا في الخروج من دوامة العنف والتحارب التي نحن فيها؟ أعتقد أن ليس شك في ذلك.

ساعدنا مثقفون الذين استعنت بهم هنا، المفتي والككلي والعوكلي، في

شرح الأسباب التي جعلتنا نتمسك بما يؤجج العنف في تراثنا. الذي أريد أن أضيفه هنا، أننا لا يمكننا أن نتجاهل الذاكرة التي بإمكانها أن تُغني وتُرسّخ إحساسنا بإنسانيتنا والتي أيضاً بمقدورها أن تعيننا في إعادة تشكيل هويتنا وأولويات رؤيانا الوطنية. نريد أن نضع ضحايا الإبادة الجماعية وضحايا صراعاتنا الآن نصب أعيننا لأننا لا نريد تكرار ما حدث لهم، وأن تكون ذكراهم ميثاقاً نعتق به أنفسنا من الشقاء والظلم الذي عاشوه في حياتهم.

نريد أن نتذكر الضحايا لا لأننا نطلب القصص من الماضي، فالقصص لن يكون إلا مزيّداً من الموت، فيما أن الخروج من دائرة الموت هو سعيها الأول، ولا من أجل العزاء ولا لتأجيج الجروح، ولا لأن تكون الذكرى المؤلمة عرضة للأسعار والمكافآت وليقفل حسابها مثل الصفقات. نتذكر الضحايا لأن ذكرى الأبرياء المؤلمة لها قيمة أخلاقية بحد ذاتها لأنها تذكّرنا بحقيقة الشر في الآخرين وفي أنفسنا، وتفتح مجالاً للتعاطف مع ألم الآخرين. نتذكر الضحايا لنعيد ونذكر أنفسنا أننا لا نريد أن يحدث الشر ثانية، فيما بيننا ومع الآخر، وأننا لن ننسى الضحايا لأننا لا نريد المزيد منهم، كما لا نريد المزيد من الأبطال. نريد أن نحيا ذاكرة من غيبه الموت حينما كان يبغى الحياة، وليبقى في ذاكرة الناس من أراد الحياة لنفسه ولغيره، وليس من حرم غيره منها. نتذكر الضحايا لأنهم يذكّروننا بأن ننقذ الضعفاء من ويلات الحرب ونوفّر لهم الملجأ والملبس والطعام لنثبتهم في الحياة، وبهم ومعهم سنسعى إلى السلام أينما كنا. نتذكر الضحايا حتى نتمكن من مواجهة المستقبل عندما يسألنا أبنائنا وبناتنا عما حدث في حياتنا. نتذكر لأننا نريد أن يستجوبنا المستقبل، نريد أطفالنا أن يخبرونا أنهم مصدومون

لما جرى في حياتنا. ونريدهم أن ينصدموا عندما يعلموا عن الضحايا الأبرياء الذين سُلِّبَت حياتهم من بيننا، لا أن يروا ما قاساه الضحايا كان طبيعياً. نريد أن نُثَبِّت في عقولهم أن السلام والحوار هو ما ينبغي أن يكون طبيعياً. نتذكّر الضحايا لأننا نريد أن تتخذ الأجيال القادمة خيارات أفضل من التي أخذناها. نتذكّر الضحايا لأننا نريد أن نقرأ تاريخنا بشكل مختلف، لنكشف النقاب عن الدماء التي أهدرت وراء المجد. ولندوّن ونتذكّر كل ما قمنا به من بناء وتواصل وتفكير وإبداع ومقاومة من أجل أن نحافظ على الهبة الإلهية التي ليس هناك أي مبرر كان لأخذها.

8. خاتمة

في الأعوام المئة التي مضت شهدت ليبيا إحدى أعنف فترات تاريخها، من احتلال شامل، إلى صراع مسلح مع الاستعمار، إلى إبادة جماعية، إلى حرب عالمية، إلى دكتاتورية متسلّطة أدّت إلى حرب أهلية طغت فيها مصالح القوى المجاورة على المصلحة الوطنية. لا أجزم بأن هناك عاملاً واحداً يجمع هذه الأحداث المؤلمة، ولكن قد نقول إن فقداننا لسردية تاريخية موثقة ومنصفة كان لها دور في انحلال الشعور بالانتماء وتفكّك الهوية الوطنية، والتي نرى نتائجها في الصراع الحالي. قد يقول البعض إن القضية عكس ذلك، فضعف انتمائنا وشعورنا بهوية موحدة هو ما أدّى إلى عدم وجود سردية تجمعنا. وقد يرد آخر، أن الصراع هو على محتوى التاريخ، وكذلك فإن إهماله من العوارض الجانبية للصراع السياسي، فالك سيستعين بالتاريخ أو يهمله حسب فائدته السياسية له. وقد يضيف آخر

أن الدول والمجتمعات المستقرة التي تتوافر لديها حرية الرأي والموارد العلمية والمادية الكافية هي وحدها التي تستطيع أن تواجه تاريخها بإنصاف، وأن تسعى إلى استقصاء الأسطورة من الحقائق، وبما أننا لسنا مستقرين وبدون الإمكانيات الكافية فلا ينبغي أن نتوقع ذلك أساسًا.

كل هذه الردود منطقية، فنحن لسنا بلدًا مستقرًا، وما جرى للهوية والانتماء لدينا أمر متوقع، سببًا كان أم نتيجة لضعف حسنا التاريخي أو الصراع الحالي. ولكن لا بد أن نسأل، فيما يخص تاريخنا: ما الذي نستطيع أن نقوم به نحو سرديتنا الوطنية بحيث أن يكون لها دور في بناء الحس الوطني عمومًا وإنهاء حالة الصراع والتشرذم التي نحن فيها؟ ما حاولت أن أقدمه من تأملات ومقترحات هنا يمكن ضمها تحت فكرة أنسنة التاريخ، أول هذه العوامل هو طبعًا عدم تناسي التاريخ وعدم أدلجته؛ ثانيها توسيع رقعة تأريخنا لتضم كل الفئات الاجتماعية وكل ردود الأفعال للأوضاع السياسية والاقتصادية في الفترات التي ندرسها؛ ثالثها رصد السرديات ووجهات النظر المختلفة وعدم تنميط الأحداث لفرض سردية واحدة؛ رابعها وضع تاريخنا في سياق الأحداث المتزامنة لها نظرًا إلى تشابك التأثيرات الثقافية والأحداث السياسية في العالم المعاصر؛ خامسها تأريخ التأريخ ورصد التأثيرات السياسية والأيدولوجية التي تم خلالها كتابة تاريخنا؛ سادسها نبذ بعض التوجهات التي عرقلت قدرتنا على كتابة تاريخ منصف وموثق وتبني أساليب ومواقف نحو تاريخنا لصياغته بشكل أدق وأشمل يساعدنا على إعادة تشكيل الهوية الوطنية نحو المصداقية والتآلف.

ولعلّ أهم ما أقصده بأنسنة التاريخ هو أولاً- أن نقبل الإنسان كما هو عندما

نكتب التاريخ ونرضى بإنسانيته بما فيها من قصور وفضيلة ومن صواب وخطأ سعيًا إلى المعرفة وليس إلى الحكم على الأحداث أو الأشخاص. ثانيًا- أن نُؤنس التاريخ بجعله لا ينسى ضحايا الظلم وعدم الاكتراث، وثالثًا- أن نُؤرخ فترات السلام فيما بيننا لأنها أهم مكتسباتنا، وهي التي نريد أن نتعلّم منها، ليس فترات التحارب. سيتطلّب هذا جهدًا منظمًا ومختلّفًا، وهنا كتاب الدكتور حميده بإمكانه أن يكون نموذجًا مهمًا لدراسة التاريخ التي تسعى إلى تغيير مفاهيم تؤثّر في المستقبل. ككل الشعوب، هويتنا تكمن إلى حد كبير في تاريخنا، وقد نقول إن طموحنا لمستقبلنا أيضًا مرتبط بالطموح والعمل الذي نضعه في كتابة تاريخنا.

المساهمات/ون

صالح السنوسي: روائي وأستاذ للقانون الدولي والعلاقات الدولية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة بنغازي، بالإضافة إلى كتبه البحثية العديدة في قضايا القانون والسياسة والمجتمع، أصدر عدة روايات، منها: "متى يفيض الوادي؟" (1980)، "سيرة آخر بني هلال" (2000)، و"الهروب من جزيرة أوستيكا" (2018).

عائشة إبراهيم: روائية وقاصة، صدرت لها مجموعة قصصية بعنوان "العالم ينتهي في طرابلس" (2019)، وثلاث روايات: "قصيل" (2016)، و"حرب الغزالة" (2019)، و"صندوق الرمل" (2022) اللتان كانتا ضمن اللائحة الطويلة لجائزة بوكر للرواية العربية.

مروان جبودة: كاتب ومدوّن وقاص، مهندس ميكانيكي، نشر نتاجه بصحف ومواقع ثقافية، أحد الفائزين بجائزة القارئ للكتابة الإبداعية 2018، شارك في كتابة مسلسل "كيخ لاند" رمضان 2018.

صلاح المنصف: ولد في مدينة الكويت، بالكويت. وهو مؤلف عدة كتب أدبية ونقدية باللغة الإنجليزية منها: "من حين لآخر"، و"بنغازي"، و"عقاير الفن"، و"الهدية". درس بجامعة تونس، وتحصّل على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة إنديانا بالولايات المتحدة. حصل عدة مرات على منحة الفولبرايت البحثية، وعلى الجائزة الرئاسية للتميز في

العلوم الإنسانية. يحاضر في الأدب الإنجليزي والكتابة الإبداعية بجامعة نانت بفرنسا، ومحرر أول بدار نشر روتليدج/ تايلور أند فرانسيس بلندن. "بن يتحمص جزر ممكنة"، و"الصدفة كل ما أنا"

ميرنا فكري صبحي حنا: طبيبة مصرية مبتدئة وجدت طريقًا للهروب مؤخرًا إلى عالم الأدب. بدأت ممارسة الترجمة في عام 2019 كهواية تحولت لاحقًا إلى نشاط احترافي جانبي.

حسام الشني: مواليد بنغازي، كاتب، وباحث في مجال السياسات الثقافية والإدارة الثقافية، عضو مؤسس لمنظمة تاناروت، والمدير التنفيذي السابق لها.

علي عبد اللطيف حميدة: أستاذ ورئيس مؤسس لقسم علم السياسة بكلية الآداب والعلوم بجامعة نيو إنقلاند بالولايات المتحدة الأمريكية. تخصصه هو النظرية السياسية والسياسة المقارنة وعلم الاجتماع التاريخي. وتركز اهتماماته البحثية والدراسية على القوة والفاعل البشري والمقاومة ضد الاستعمار في شمال أفريقيا، وبخاصة ليبيا الحديثة.

محمد زاهي بشير المغيربي: أستاذ شرف علم السياسة بجامعة بنغازي، متخصص في السياسة المقارنة ودراسات الثقافة السياسية والمجتمع المدني والسياسة العامة. ألّف وترجم، بمفرده أو بالتعاون مع آخرين، عدّة مؤلفات في مجال تخصصه والمجالات ذات العلاقة.

فؤاد مغربي: أكاديمي فلسطيني متقاعد، أستاذ شرف في العلوم السياسية في جامعة تنيسي في تشاتانوغا بالولايات المتحدة. له العديد من المؤلفات في الشأن الفلسطيني والرأي العام الأمريكي بالقضية الفلسطينية، كما أنه مؤسس ومدير سابق لمركز القطان للبحوث التربوية والتنمية، برام الله، فلسطين.

نافع الطشاني: أستاذ ومحاضر في الترجمة التحريرية والفورية ودراسات الترجمة. حاصل على ماجستير الآداب في الترجمة من الأكاديمية الليبية، شغل منصب رئيس قسم الترجمة في جامعة بنغازي. مترجم قانوني ومترجم فوري معتمد من محكمة بنغازي. له عدة مقالات مترجمة منشورة وأبحاث عن دراسات الترجمة.

أحمد يوسف عقيلة: كاتب قصة قصيرة وباحث في التراث والفلكلور الشعبي. صدر له العديد من المجموعات القصصية ترجم بعضها إلى الإنجليزية والتركية والفارسية، كما أصدر موسوعات الشعر الشعبي وغناوي العلم والأمثال والحكايات الشعبية.

فاطمة غندور: كاتبة وباحثة، أستاذة بكلية الفنون والإعلام، جامعة طرابلس، صدر لها عدة كتب منها: "الحكاية الشعبية الليبية.. دراسة سوسيولوجية"، و"حاملات السر (راويات براك. الشاطي)"، و"محمد الزواوي متعة السخرية".

خالد المطاوع: شاعر وأكاديمي، صدرت له عدة دواوين وتراجم باللغة الإنجليزية، وأستاذ الأدب والكتابة الإبداعية بجامعة ميشيغان بالولايات المتحدة.

ميرنا فكري صبحي حنا: طبيبة مصرية مبتدئة وجدت طريقًا للهروب مؤخرًا إلى عالم الأدب. بدأت في ممارسة الترجمة في عام 2019 كهواية تحوّلت لاحقًا إلى نشاط احترافي جانبي.

أنطونيوم مورون: أستاذ مشارك في التاريخ الأفريقي المعاصر ومنسق درجة الماجستير في الدراسات الأفريقية والآسيوية بجامعة بافيا. كتب مقالات أكاديمية عن التاريخ الاجتماعي الاستعماري وما بعد الاستعماري، الهجرات الأفريقية والمتوسطة، الذاكرة الخاصة والعامة في السياق الاستعماري، والتحولات السياسية والاجتماعية في الدول الهشة. نشر مورون في الصحافة الإيطالية وظهرت مقالاته في كورييري ديلا سيرا، ونيغريزيا، وإلمولينو، وريفستا دي كولتورا إي بوليتيكا.

سعد العشة: سينمائي ومترجم وكاتب مقال، نشرت بعض أعماله في عدة مواقع صحفية دولية. سيتم عرض فيلمه "السينما ولا شيء بسواها" (2023)، بمهرجان برلين للسينما المستقلة ومهرجان الدار البيضاء للسينما العربية.

فريدريك ويرى: زميل أول في برنامج الشرق الأوسط في مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي، حيث تركّز أبحاثه على الحوكمة والصراع والأمن في ليبيا وشمال أفريقيا والخليج العربي. ظهرت مقالاته في نيويورك تايمز وواشنطن بوست وفاينانشيال تايمز وول ستريت جورنال والعديد من المجلات الأكاديمية. وهو مؤلف كتاب "الشواطئ الحارقة: داخل المعركة من أجل ليبيا الجديدة" (2018) و"السياسة الطائفية في الخليج: من حرب العراق إلى الانتفاضات العربية" (2013).

ستيفن وات : أستاذ الأدب الإنجليزي متخصص في المسرح والأدب الأيرلندي في جامعة إنديانا بالولايات المتحدة الأمريكية. وهو مؤلف لعدة كتب بالنقد الأدبي، من بينها: "قصص برنارد شو: علم النفس المادي والتأثير الوجداني" (2018)، "شيء مخيف وعظيم: الأدب الأمريكي واللاوعي اليهودي-الأيرلندي (2015)، "صموئيل بيكيت والأدب الأيرلندي المعاصر (2009).



لَمّة هي مجلة أكاديمية توفر منتدى لبحث وفهم بشكل نقدي وممنهج الأفكار والقيم والتكوينات الاجتماعية والتاريخ والحقائق المادية المركبة في ليبيا. وإدراكاً منا للحاجة الملحة لمثل هذا المنتدى، فإننا نرحب بمجموعة واسعة من التخصصات والمصادر والمناهج، في مقدمتها بشكل خاص تلك التي لم تحظى في السابق باهتمام علمي كافٍ. "لَمّة" هي مساحة تتفاعل فيها هذه المجالات وتستفيد من بعضها البعض، وهي منصة يجتمع فيها الباحثون والطلاب من داخل ليبيا وخارجها لإعادة تعريف وإعادة تشكيل مجال "الدراسات الليبية".

www.escholarship.org/uc/lamma

[illegible]

www.alghurfa211.ly

ألبوم ليبيا

A L B U M L I B Y A



ألبوم ليبيا هو مشروع متعدد الأدوات (كتاب مطبوع، موقع، معارض)، يقدم صوراً وقصصاً من السير الشخصية للعديد من الأدباء والشعراء والفنانين والمثقفين الليبيين، وهو فسيفساء سردية تغطي جوانب متعددة من حياة الليبيين منذ منتصف القرن الماضي.



www.albumlibya.ly



محترف الرواية الليبية

مشروع محترف الرواية الليبية أسس لمساندة الأدباء الليبيين الجدد لتطوير قدراتهم في فن كتابة الرواية الحديثة. يقدم فيه الروائيون الشباب مشاريعهم الروائية ويتحصلون على المشورة والتحفيز من نقاد وأدباء ومدرسين، لديهم خبرة عميقة في مجالهم. كما يقدم المحترف منحة مالية للأدباء للشباب الذين يتم اختيارهم ليتفرغوا للتدريب ولإكمال مشاريعهم.



www.qasaed-lilhayat.com

أطلقت مؤسسة أريتي مشروع قصائد للحياة بالتزامن مع اليوم العالمي للشعر 21 مارس 2019. الموقع معني بالشعر العالمي المعاصر ويهدف لتقديم مختارات منه على شكل قصيدة جديدة كل يوم للقارئ، وتنوع هذه المختارات بوجهات نظر عديدة ونبرات مختلفة. بالإضافة إلى قصيدة مترجمة جديدة بشكل يومي يقدم الموقع أرشيفاً للقصائد يحتوي على ما سبق نشره من قصائد عبر الموقع، الذي تجاوز الآن ألف قصيدة من أكثر من ثمانين دولة من حول العالم.



**مؤسسة أريتي
للثقافة و الفنون**

Arete Foundation
for Arts & Culture

www.arete-foundation.org

منظمة ليبية وطنية غير هادفة للربح تسعى لدعم وتوجيه وتسهيل الإبداع الفني والتبادل الثقافي بداخل ليبيا، ومع الدول المجاورة لها. المؤسسة مسجلة لدى وزارة الثقافة والمجتمع المدني وتم إشهارها في مارس 2012.